

التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

تفسير  
سورة الأحزاب

الدكتور  
محمد سيد طنطاوي  
مفتي الديار المصرية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م

الطبعة الرابعة



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الفقرة

١ - سورة الأحزاب هي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف وهي من السور المدنية ، وكان نزولها بعد سورة آل عمران ، أي : أنها من أوائل السور المدنية ، إذ لم يسبقها في النزول بعد الهجرة سوى سور : البقرة والأنفال وآل عمران .

ويبدو : ان نزولها كان في الفقرة التي أعقبت غزوة بدر ، إلى ما قبل صلح الحديبية ، وعدد آياتها ثلاث وسبعون آية .

٢ - وقد افتتحت سورة الأحزاب ببدء من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، نعمة فيه عن طاعة المنافقين والكافرين ، وأمرته بالمداومة على طاعة الله - تعالى - وحده ، وبإتباع أمره ، وبالتوكل عليه - سبحانه - .

قال - تعالى - : دأبها النبي لإتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً . وإتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً .

٣ - ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى بيان حكم الله - تعالى - في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع في ذلك الوقت ، فأبطلت التبني ، كما أبطلت ما كان سائداً في المجتمع من عادة الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، فتصير محرمة عليه حرمة مؤبدة .

قال الله - تعالى - : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل . أدهوم لأبائهم هو أقسط عند الله . . . »

٤ - ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض الأحكام التشريعية الأخرى ، وكوجوب طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - طاعة تفوق طاعتهم لأنفسهم ولوجوب تعظيم المسلمين لأوجائهم - صلى الله عليه وسلم - كتعظيمهم لأمهاتهم وكوجوب التوارد بين الأقارب بالطريقة التي بينها - سبحانه - في آيات أخرى ، وإبطال النوراث عن طريق المؤاخاة التي تمت بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار .

قال - تعالى - : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا ، كان ذلك في الكتاب مسطورًا .

٥ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بجانب من نعمه عليهم ، حيث دفع عنهم جيوش الأحزاب ، وأرسل على تلك الجيوش جنوداً من عنده لم يروها ، وكشف عن رذائل المنافقين التي ارتكبوها في تلك الغزوة ، ومدح المؤمنين الصادقين على وقائهم بهم ودمهم ، وكافأهم على ذلك بأن أورثهم أرض أعدائهم وديارهم .

قال - تعالى - : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قوياً عزيزاً . وأفرز الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأها . وكان الله على كل شيء قديراً ،

وبعد هذا الحديث المفصل عن غزوة الأحزاب ، والذي يستغرق ما يقرب

عن عشرين آية ، إنتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أدراج النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يظهر من بين التوسيع بإحسان ، وبين الصبر على شظف العيش ، ليظفرون برضا الله - تعالى - كما وجهت لداة اليمن أمرهن فيه ، بالآداب والآداب الدينية التي تليق بهن ، لأنهن في مكان القدوة لآثار النساء .

كما أمرهن بالبقاء في بيوتهن ، فلا يخرجن لغير حاجة مشروعة . ومثلن في ذلك مثل سائر نساء المسلمين ، حتى يتفرغن لرعاية شئون بيوتهن التي هي من خصائصهن وليت من خصائص الرجال . . .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة ببيان الثواب الجزيل الذي أعدّه للمؤمنين والمؤمنات . فقال - تعالى - : إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والحاشعين والحاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما . .

٧ - ثم أشارت السورة بعد ذلك إلى قصة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بالسيدة زينب بنت جحش ، وإلى الحكمة من ذلك . وإلى تطبيق زيد بن حارثة لها ، وإلى أن ما فعله رسول - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة لهذه الحادثة . كان بأمر الله - تعالى - وإذنه . .

قال - تعالى - ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله . وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبأ أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما . .

ذكر الله - تعالى - ومن تصيحه وتزيمه ، كما وجهت نداء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بينت له فيه وظيفته ، قال - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا - اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحييتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما . يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداهيا إلى الله ياذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . . . . .

٩ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك بشيء من التفصيل عن بعض الأحكام التي تتعلق بأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - وبملاقاته - صلى الله عليه وسلم - من حيث القسم وغيره ، ومن حيث الزواج وغيره . . .

كما تحدثت عن الآداب التي يجب على المؤمنين أن يلتزموها عند دخولهم بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم - بدعوة منه ، لأجل تناول طعام ، أو لأجل أمر من الأمور الأخرى التي تتعلق بدينهم أو دنياهم .

ثم ختمت هذه الآيات بقوله - تعالى - يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما .

١٠ - وبعد هذا البيان المفصل لكثير من الأحكام والآداب ، أختت السورة الكريمة في أواخرها ، في تهديد المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وفي بيان أن سنن الله في خلقه لا تتخلف ، وأن علم وقت قيام الساعة إلى الله - تعالى - وحده ، وأن الإصرار على الكفر يؤدي إلى سوء العاقبة ، وأن السير على طريق الحق ، يؤدي إلى مغفرة الذنوب ، وأن الإنسان قد ارتضى حل الأمانة ، التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال . . .

قال - تعالى - : : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا .  
ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفورا رحيما .

١١ - ومن هذا العرض المجمل لآيات سورة الأحزاب ، نرى أنها قد اهتمت بموضوعات من أبرزها ما يلي :

( أ ) كثرة التوجيهات والإرشادات ، من الله - تعالى - لذبيه صلى الله عليه وسلم - إلى أفضل الأحكام ، وأقوم الآداب ، وأهدى السبل .

وهذه التوجيهات والإرشادات - تراها في كثير من آيات سورة الأحزاب لاسيما التي نادت الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوصف النبوة ومن ذلك قوله - تعالى - : : يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين . . . . .

وقوله - سبحانه - : : يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها . . . . .

وقوله - عز وجل - : : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ،  
وقوله - تعالى - : : يا أيها النبي إنا أحملنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن . . . . .

وقوله - سبحانه - : : يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . . . . .

( ب ) أمر المؤمنين بطاعة الله - تعالى - ، وبطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .  
Made searchable using ScribeTools.com

وهذه الآراء والنواهي ، فإها في كثير من آيات هذه السورة الكريمة .  
ومن ذلك قوله تعالى - : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ،  
إذا جاءكم جنود فارسنا عليهم رجاً وجنوداً لم تزوها . . . .

وقوله - سبحانه - : يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً  
وسبحوه بكرة وأصيلاً . . . .

وقوله - عز وجل - : يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن  
من قبل أن تمسرن ، فإلكن عليهن من عدة تعتدونها . . . .

وقوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ،  
فبرأه الله مما قالوا . . . .

وقوله - سبحانه - : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ،  
(ح) هذه السورة الكريمة تعتبر على رأس السور القرآنية التي اهتمت

ببيان فضل نساء النبي - ﷺ - وحقوقهن ، وواجباتهن وخصائصهن .  
ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : يا نساء النبي

من يأت منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين . . . .  
وقوله - سبحانه - : يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ،

فلا تخضعن بالقول . . . .  
وقوله - عز وجل - : د وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية

الأولى ، وأقن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله . . . .  
وقوله - سبحانه - : لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من

أزواج ، ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك . . . .  
وقوله - تعالى - : دوما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا

أزواجه من بعده أبداً . . . .

وقوله - عز وجل - : «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم»  
 (د) هذه السورة تعبر من أجمع السور القرآنية التى تعرضت لكثير من  
 الأحكام الشرعية ، والآداب الاجتماعية ، التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان  
 ومن ذلك حديثها عن الظهار ، وعن النبى ، وعن التوارث بين الأقارب  
 بدون غيرهم ، وعن وجوب تقديم طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - على  
 طاعة الإنسان لنفسه ، وعن وجوب التأسى به ، وعن وجوب الابتعاد عن  
 أكل ما يؤذيه أو يجرح شعوره ، وعن وجوب الخضوع لحكم الله - تعالى -  
 ولحكم رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

قال - تعالى - : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ،  
 أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ لأبويننا ، .  
 (هـ) السورة الكريمة فصلت الحديث عن غزوة الأحزاب ، التى وقعت  
 فى السنة الخامسة من الهجرة بين المسلمين وأعدائهم .

فبدأت حديثها عن تلك الغزوة بتذكير المؤمنين بفضل الله - تعالى -  
 عليهم فى هذه الغزوة ، ثم صررت أحوالهم عند إحاطة جيوش الأحزاب  
 بالمدينة المنورة .

قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمه الله عليكم ، إذ  
 جاءكم جنود فأرسلنا عليهم رجلاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون  
 بصيراً . إذ جاءوكم من فرقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار  
 وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . . . » .

ثم حكّت أقوال المنافقين القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، وردت عليهم  
 بما يفضحهم ، وبما يكشف عن سوء أخلاقهم .

قال - تعالى - : « أشح علىكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك  
 غدوراً عينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد

ثم مدحت المؤمنين الصادقين لوفائهم بهودهم ، واشجاعتهم في مواجهة أعدائهم .

قال - سبحانه - : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصديق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً . . . »

وكما بدأت السورة حديثها عن غزوة الأحزاب بتفكير المؤمنين ، بنعم الله عليهم ختمته - أيضاً - بهذا التذكير ، لكي يزدادوا شكر آله - عز وجل -

قال - تعالى - : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فربما تقتلون وتمسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها ، وكان الله هلى كل شىء قديراً . »

( و ) والخلاصة أن المتأمل في سورة الأحزاب ، يراها زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالأداب الاجتماعية ، وبالتوجيهات الربانية ، تارة من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وقارة لأرواحه - صلى الله عليه وسلم - ، وقارة للمؤمنين .

كما يراها تنهم لإهتماما واضحا بتنظيم المجتمع الإسلامى تنظيمها حكيماً ، من شأنه أن يأخذ بيد المتبعين له إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر      كتبه الراجى هفوره

٨ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ ٢٨/٤/١٩٨٥ م      د. محمد سيد طنطاوى

يَتَأْتِي النَّبِيَّ أَتَقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا  
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣﴾ مَا جَعَلَ  
اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ  
مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ  
وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ  
عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ  
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ  
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ  
وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ  
اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا  
كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ  
وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ  
مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ

افتتحت سورة الاحزاب بهذا النداء لسيد الخلق - صلى الله عليه وسلم -  
وبهذا الوصف الكريم ، وهو الوصف بالنبوة ، على سبيل التثنية والتعظيم  
قال صاحب الكشف : جعل - سبحانه - نداءه بالنبي والرسول في قوله :  
« يا أيها النبي . يا أيها الرسول » ، وترك نداءه باسمه ، كما قال : يا آدم ، يا موسى ،  
يا عيسى ، يا دارد : كرامة له وتشريفا ، وتنويها بفضلته .  
فإن قلت : إن لم يقع اسمه في النداء . فقد أوقعه في الإخبار ، في قوله :  
« محمد رسول الله » .

قلت : ذلك لتعليم الناس بأنه رسول ، وعلقين لهم أن يسموه بذلك  
ويدعوه به . . . (١) .

والمراد بأمره بتقوى الله : المداومة على ذلك ، والازدحام من هذه التقوى  
أي : واظب - أيها النبي الكريم - على تقوى الله ، وعلى مراقبته ،  
وعلى الخوف منه ، وأكثر من ذلك ، فإن تقوى الله ، هي رأس الفضائل  
التي يجبها - سبحانه - .

قال ابن كثير : هذا تنبيه بالاعلى على الأدنى ، فإنه - تعالى - إذا كان  
يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى  
وقد قال خلف بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من  
الله ، ترجو ثواب الله ، (٢) .

ويعد الأمر بالتقوى ، جاء للنهي عن طاعة غير المؤمنين ، فقال - تعالى - :  
« ولا تطع الكافرين والمنافقين » .

أي : واظب - أيها النبي الكريم - على تقوى الله ، واجتنب طاعة

(١) تفسير الكشف ٣ ص ٥١٨

(٢) تفسير ابن كثير ٦ ص ٢٧٦

الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم ، وعبدوا معه آلهة أخرى واجتنب  
كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر .

وفى لإيراد هذا النهى بعد الأمر بتقوى الله ، إشارة وإيماء إلى ما كان  
يبدله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود حنيقة ، لزعزعة النبى ( صلى  
الله عليه وسلم ) عما هو عليه من حق ، وانصرفه عن دعوتهم إلى الإسلام .  
وقد ذكرنا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن جماعة من أهل  
مكة ، طلبوا من النبى ( صلى الله عليه وسلم ) أن يرجع عن قوله ، وأن  
يعطوه شطر أموالهم ، وأن المنافقين واليهود بالمدينة هددوه بالقتل إن لم  
يرجع عن دعوتهم إلى الإسلام ، فقلت (١) .

وقوله - تعالى - « إن الله كان عليماً حكيماً » : تعليل للأمر والنهى . أى :  
اتبع ما أمرناك به ، وما نهيناك عنه ، لأن الله - تعالى - عليم بكل شيء . وحكيم  
فى كل أقواله وأفعاله .

ثم أمره - سبحانه - بإتباع ما يوحى إليه فقال : « واتبع ما يوحى إليك  
من ربك ... » أى : واظب على تقوى الله ، وابتنى عن طاعة أعدائك ،  
واتبع فى كل ما نأتى وننذر ، كل ما نوحى إليك من عندنا اتباعاً تاماً .  
فالجملة الكريمة معطوف على ما قبلها . من قبيل عطف العام على الخاص .  
وفى النص على أن الوحى إليه ( صلى الله عليه وسلم ) ، وأن هذا الوحى  
من ربه الذى تولاه بالقرية والرعاية ، إشعار بوجوب الإتيان التام الذى  
لا يشوبه انحراف أو تردد .

ثم أكد - سبحانه - هذا الأمر تأكيداً قوياً فقال : « إن الله كان بما تعملون  
خبيراً » أى : إنه - تعالى - خبير ومحيط بحركات النفوس وبغفائى القلوب .

وكل من يخالف ما أمرناه به . أو ينهنا عنه ، فلا يخفى علينا أمره وسنجاهه  
يوم القيامة بما يستحقه .

وقوله — سبحانه — : « وتوكل على الله ، أي : وفوض أمرك إليه  
— هز وجل — وحده .

« وكفى بآئنه وكيلا ، أي : وكفى بربك حافظا لك ، وكفيلا بيدبر  
أمرك فانت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد تضمنت ثلاثة أوامر : تقوى  
الله ، وإتباع وحيه ، والتوكل عليه — تعالى — وحده .

كما تضمنت نهيه ( صلى الله عليه وسلم ) عن طاعة الكافرين والمنافقين :  
وبإتباع هذه الأوامر والنواهي ، يسعد الأفراد ، وتسعد الأمم .

. . .

ثم أبطل — سبحانه — بعض العادات التي كانت متفشية في المجتمع ،  
وكانت لا تتناسب مع شريعة الإسلام وآدابه ، فقال — تعالى : « ما جعل  
الله لرجل من قلبين في جوفه ... »

قال القرطبي ما ملخصه : قوله — تعالى — : « ما جعل الله لرجل من قلبين  
في جوفه ... » نزات في رجل من قریش اسمه جميل بن معمر الفهري ، كان  
حفاظا لما يسمع ، وكان يقول : له قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد .  
فلما هزم المشركون يوم بدر ، ومعهم هذا الرجل رآه أبو سفيان وهو ملقى  
إحدى تعلية في يده والآخرى في رجله — من شدة الهلع — ، فقال له أبو  
سفيان : ما حال الناس ؟ قال : انهزموا . فقال له : فما بال إحدى نعليك في  
يدك والآخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي . فعرفوا  
يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده .

وقيل في سبب نزولها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا ( ﷺ ) له قلبان ؛

لأنه وبما كان في شيء فنزع في غيره نزعاً ثم عاد إلى شأنه الأول ،  
فأكد بهم الله بقوله : ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . . . (١) .

وبرى بعضهم : أن هذه الجملة الكريمة ، مثل ضربه الله - تعالى - للظاهر  
من امرأته والمغبى ولد غيره ، تعمدها لما بعده .

أمى : كما أن الله - تعالى - لم يخلق للإنسان قلبين في جوفه ، كذلك لم يجعل  
المرأة الواحدة زوجاً للرجل وأما له في وقت واحد ، وكذلك لم يجعل المرء  
دعياً لرجل وابناً له في زمن واحد .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : أمى : ما جمع الله قلبين في  
جوف ، ولا زوجية وأمومة في امرأة ، ولا بنوة ودعوة في رجل . . . لأن  
الأم مخدومة مخفوض لها الجناح ، والزوجة ليست كذلك . . .

لأن النبوة أصالة في النسب وعراقه فيه ، والدعوة : إلصاق عارض  
بالتسمية لا غير . . .

فإن قلت : أمى فائدة في ذكر الجوف ؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة في قوله  
- تعالى - : د ولكن تعنى القلوب التي في الصدور ، وذلك ما يحصل للسامع من  
زيادة التصور والتجلى المدلول عليه ، لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جَوْفاً  
يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار . . . (٢) .

وقوله - سبحانه - : د وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ،  
إبطال لما كان سائداً من أن الرجل كان إذا قال لزوجته أنت على كظهر أمى  
حرمت عليه .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١١٦ .

(٢) تفسير الكشف . . . . .

يقال : ظاهر فلان من امرأته وتظهر وظهر منها ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمي ، يريد أنها محرمة عليه كحرمه أمه . . .

وقد جاء الكلام عن الظهار ، وعن حكمه ، وعن كفارته ، في سورة المجادلة ، في قوله - تعالى - : قد سمع الله قول الذي تعادلك في زوجها ، وتشتمك إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع عليم . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . . .

وقوله - سبحانه - : وما جعل أدياءكم أبناءكم ، لإبطال لعادة أخرى كانت موجودة ، وهي عادة التبني .

والأدياء : جمع دعي ، وهو الولد الذي يدعي ابنا لغير أبيه وكان الرجل يتبنى ولد غيره ، ويجري عليه أحكام البنوة النسبية ، ومنها حرمة زواج الأب بزوجة ابنه بالتبني بعد طلاقها ، ومنها التوارث فيما بينهم .

قال ابن كثير : وقوله : وما جعل أدياءكم أبناءكم ، هذا هو المقصود بالتبني ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ، مولى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقد كان صلى الله عليه وسلم - قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله - تعالى - أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النسبة بقوله : وما جعل أدياءكم أبناءكم ، كما قال في أثناء السورة : ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . . . (١) .

واسم الإشارة في قوله : ذلكم قولكم بأفواهكم ، يعود إلى ما سبق ذكره من التلفظ بالظهار ومن إجراء التبني على ولد لغيره ، وهو مبتدأ - وما بعده خبر .

أى : ذلكم الذى تزعمونه من تشبيه الزوجة بالأم فى التحريم ، ومن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين ، هو مجرد قول باللسان لا يؤيده الواقع ، ولا يسانده الحق .

قال ابن جرير : وقوله : ذلكم قولكم بأفواهكم ، يقول - تعالى ذكره - هذا القول ، وهو قول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى ، ودعؤه مر ليس بابنه أنه ابنه ، إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، ولا يثبت بهذه الدهوى نسب الذى أدهيت بنوته ، ولا نصير الزوجة أما بقول الرجل لها : أنت على كظهر أمى ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالذكرمة بقوله : والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل ، أى : والله - تعالى - يقول الحق الثابت الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو - سبحانه - دون غيره يهتدى ويرشد إلى السبيل القويم الذى يوصل إلى الخير والصلاح . وما دام الأمر كذلك فأتروا عاداتكم وتقاليدكم التى ألفتموها ، والتى أبطلها الله - تعالى - بحكمته ، واتبعوا ما يأمركم به - سبحانه - .

ثم أرشدهم إلى الطرية السليمة فى معاملة الإبن المبتنى فقال : ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله . . .  
أى : اتبعوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم ، فإن هذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله - تعالى - .

قال الألوسى : أخرج الشيخان عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد ابن حارثة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ادعوهم لأبائهم . . . فقال - صلى الله عليه -

وسلم - : د انت زيد بن حارثة بن شراحيل . . . (١) .

وكان زيد قد أسر في بعض الحروب ، ثم بيع في مكة ، واشتراه حكيم ابن حزام ، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة ، ثم أهدته خديجة -رضى الله عنها - إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وصار الناس يقولون : زيد بن محمد حتى نزلت الآية .

وقوله - سبحانه - : : فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ، إرشاد إلى معاملة هؤلاء الأعدياء في حالة عدم معرفة آباءهم .

أى : انسبوا هؤلاء الأعدياء إلى آباءهم الحقيقيين ، فإن ذلك أعدل [ هند الله - تعالى - ، وأشرف الآباء والأبناء ، فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين لى تنسبهم إليهم ، فهؤلاء الأعدياء هم إخوانكم في الدين والعقيدة ، وهم مواليكم ، فقولوا لهم : يا أخى أو يامولائى ، واتركوا نسبتهم إلى غير آباءهم الشرعيين .

وفى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه المجتمع الجاهلى من تداخل فى العلاقات الجنسية ومن اضطراب فى الأنساب ، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة ، المبنية على الطهر والعفاف ووضع الأمور فى مواضعها السليمة .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر اليسر ورفع الحرج فى تشريعاته فقال : : وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيماً .

أى : انسبوا - أيها المسلمون - الأبناء إلى آباءهم الشرعيين ، فإن لم تعرفوا آباءهم فخطبواهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يامولائى . ومع كل

ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحاً أو إثماً ، فيما وقعتم فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم ببعض الأبناء الأدعياء إلى غير آبائهم ، واكتننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما نعدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم .

وكان الله ، - وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده . هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين : حرص جريدة الإسلام على إعطاء كل ذي حق حقه ، ومن مظاهر ذلك إبطال الظهار الذي كان يجعل المرأة محرمة على الرجل . ثم تبقى بعد ذلك معلقة ، لا هي مطلقة فتزوج غير زوجها ، ولا هي زوجة فتحل له ، فشرع الإسلام كفارة الظهار إنصافاً للمرأة ، وحرصاً على كرامتها .

ومن مظاهر ذلك - أيضاً - : إبطال عادة التبني ، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية والواقعية .

ولقد حذر الإسلام من دعوى الإبن إلى غير أبيه تحذيراً شديداً . ونهر من ذلك .

قال القرطبي : جاء في الحديث الصحيح عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكر ، كلاهما قال : سمعته أذناني ووطأ قلبي ، محمداً صلى الله عليه وسلم يقول من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام ، .

وفي حديث أبي ذر أنه سمع النبي ( صلى الله عليه وسلم ) يقول : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ( ﷺ ) ،  
ونحو أزواجه ، وما يجب للأقارب فيما بينهم . فقال - تعالى - : « النبي  
أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

أى : النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم وأولى  
في المحبة والطاعة ، فإذا مادعاهم إلى أمر ، ودعاهم أنفسهم إلى خلافه وجب  
أن يؤثروا مادعاهم إليه ، على ما تدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه ( صلى الله عليه  
وسلم ) لا يدعوهم إلا إلى ما ينفعهم . أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم .  
وفي الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة . أن  
رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : إنما مثلى ومثل أمتى ، كمثل رجل  
استوقد نارا ، فجعلت الدواب والقراش يقعن فيه - أى فى الشئ المستوقد -  
وأنا آخذ بمحزكم - أى : وأنا آخذ بما يعمدكم من السقوط كلبسكم ومعاقد  
الإزار - وأنتم تقعون فيه أى : وأنتم تحاولون الوقوع فيما يحرقكم - .

قال الفرطبي : قال : العلماء : الحجة : السراويل ، والمعد للإزار فإذا  
أراد الرجل لمسك من يخاف سقوطه ، أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل  
لاجتماع نبينا ( صلى الله عليه وسلم ) فى نجاتنا وحرصه على تخلصنا من  
الهلكات التى بين أيدينا . فهو أولى بنا من أنفسنا ، ( ١ ) ،

وقال الإمام ابن كثير . قد علم الله - تعالى - شفقة رسوله ( صلى  
الله عليه وسلم ) على أمته ، ونصحه لهم . فجعله أولى بهم من أنفسهم ،  
وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم .

وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب  
إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » .

وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال :  
 «حامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم :  
 «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فأما مؤمن ترك مالا فليبره عصبته  
 من كانوا . فإن ترك ديناً أو ضيقاً فليأتنى فأنا مولاه .

وروى الإمام أحمد عن جابر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه كان  
 يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فأما رجل مات وترك ديناً فإلى ،  
 مؤمن ترك مالا فلورثته ، (١) .

قال الآلوسى : وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) بهذه المثابة فى حق  
 المؤمنين ، يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه — عليه  
 الصلاة والسلام — عليهم أنفذ من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها  
 وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها .

وسبب نزول الآية — على ما قيل — ما روى من أنه (صلى الله عليه وسلم)  
 أراد غزوة تبوك . فأمر الناس بالخروج . فقال أناس منهم : فستأذن  
 آبائنا وأمهاتنا فنزلت . ووجه دلالتها على السبب أنه (صلى الله عليه وسلم)  
 إذا كان أولى من أنفسهم ، فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى (٢) .

ثم بين — سبحانه — منزلة أزواجه (صلى الله عليه وسلم) بالنسبة  
 للمؤمنين فقال : « وأزواجه أمهاتهم ، أى : وأزواجه (صلى الله عليه وسلم)  
 بمنزلة أمهاتهم — أيها المؤمنون — فى الإحرام والإكرام ،  
 وفى حرمة الزواج بهن .

قالوا : وأما ما بعد ذلك كالنظر إليهن ، واخلوتهن ، وإرثتهن ،  
فهن كالأجنبيات .

ثم بين - سبحانه - أن التوارث إنما يكون بين الأقارب فقال - تعالى -  
« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، من المؤمنين والمهاجرين  
إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا ، كان ذلك في الكتاب مسطورًا » .

والمراد بأولو الأرحام : الأقارب الذين تربط بينهم رابطة الرحم  
كالآباء والأبناء ، والإخوة ، والأخوات .

وقوله : « في كتاب الله » متعلق بقوله « أولى » ، أو بحذف على أنه  
حال من الضمير في « أولى » .

والمراد بالمؤمنين والمهاجرين . من لا تربط بينهم وبين غيرهم رابطة  
قربة .

قال ابن كثير : وقد أورد ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله  
- عز وجل - فينا خاصة معشر قريش والأنصار : « وأولو الأرحام بعضهم  
أولى ببعض » ، وذلك أنا معشر قريش ، لما قدمنا المدينة قدمنا ولأموال لنا ،  
فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم .. حتى أنزل الله  
هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ، فراجعنا إلى موارثنا ، (١) .

وشبهه هذه الآية في وجوب أن يكون التوارث بحسب قرابة الدم ،  
قوله - تعالى - في آخر آية من سورة الأنفال : « والذين آمنوا من بعد  
وهاجروا واجاهدوا معكم فأولئك منكم » ، وأولو الأرحام بعضهم أولى  
ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم .

والإستثناء في قوله - سبحانه - : « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم »

معروفاً ، . رجع بعضهم أنه إستثناء منقطع . وقوله : أن تفعلوا ، مبتدأ ، وخبره محذوف .

والمراد بالكتاب فى قوله : كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ، القرآن الكريم أو اللوح المحفوظ .

والمعنى : وأولوا الأرحام وهم الأقارب ، بعضهم أولى ببعض فى التوارث فيما بينهم ، وفى تبادل المنافع بعضهم مع بعض ، وهذه الأولوية والأحقية ثابتة فى كتاب الله - تعالى - حيث بين لكم فى آيات الموارث التى بسورة النساء ، كيفية تقسيم التركة بين الأقارب ، وهم بهذا البيان أولى فى ميراث الميت من المؤمنين والمهاجرين الذين لا تربطهم بالميت صلة القرابة .

هذا هو حكم الشرع فيما يتعلق بالتوارث لكن إذا أردتم - أيها المؤمنون - أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين العروفا ، كان توصوا له ببعض المال فلا بأس ، ولا حرج عليكم فى ذلك .

وهذا الحكم الذى بيناه لكم فيما يتعلق بالتوارث بين الأقارب ، كان مسطوراً ومكتوباً فى اللوح المحفوظ ، وفى آيات القرآن التى سبق نزولها فاعملوا بما شرعناه لكم ، واتركوا ما نهيناكم عنه .

قال الشوكانى ما ملخصه قوله : : إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ، هذا الإستثناء إما متصل من أعم العام . والتقدير : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كل شيء من الإرث وغيره ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ، من صدقة أو وصية ، فإن ذلك جائز .

وإما منقطع . والمعنى : لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به .

وفي الكتاب مسطورا، أى : في اللوح المحفوظ ، أوفى القرآن مكتوبا ، (١) .  
وبذلك نرى الآية الكريمة قد وضحت ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ،  
وما يجب عليهم نحو أزواجه ، وما يجب عليهم نحو أقاربهم فيما يتعلق بالتوارث  
ثم ذكر الله - تعالى - رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) بالعهد الذى  
أخذه عليه وهى الأنبياء من قبله ، فقال - تعالى - : د وإذ أخذنا  
من النبيين ميثاقهم .

والميثاق : العهد الموثق المؤكد . ما خوذ من أفظ وثق ، المتضمن معنى  
الشدد والربط على الشئ - بقوة وإحكام .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أخذنا من جميع النبيين  
العهد الوثيق ، على أن يبلغوا ما أوحيناها إليهم من هدايات للناس ، وعلى أن  
يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وعلى أن يصدق بعضهم بعضا فى أصول  
الشرائع ومكارم الأخلاق .. كما أخذنا هذا العهد الوثيق منك ، ومن أنبيائنا  
نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .

وخمس هؤلاء الأنبياء بالذكر ، للتنويه بفضلهم ، فهم أولوا العزم من  
الرسول ، وهم الذين تحملوا فى سبيل إعلاء كلمة الله - تعالى - أكثر مما  
تحمل غيرهم .

وقدم ( صلى الله عليه وسلم ) عليهم فى قوله د ومنك من نوح . . .  
لمزيد فضله ( صلى الله عليه وسلم ) على جميع الأنبياء .

قال الألوزى : ولا يضر تقديم نوح - عليه السلام - فى سورة الشورى ،  
أعنى قوله - تعالى - : د شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا  
إليك . . . ، إذ لكل مقام مقال . والمقام فى سورة الشورى وصف دين  
الإسلام بالأصالة . والمناسب فيه تقديم نوح . فكانه قيل : شرع لكم الدين

الأصل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد ( صلى الله عليه وسلم ) فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء ، (١) وقوله - سبحانه - : « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، معطوف على ما قبله وهو «أخذنا من النبيين ميثاقهم» لإفادة تفصيهم بأن هذا الميثاق المأخوذ على الأنبياء ، وبيان أنه عهد فى أقصى درجات الأهمية والشدة .  
أى : وأخذنا من هؤلاء الأنبياء عهدا عظيم الشأن ، بالغ الخطورة رفيع المقدار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فإذا أراد بالميثاق الغليظ ؟  
قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه . إذ المعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق حيثاقا غليظا .

والغليظ استعارة فى وصف الأجرام ، والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه .

وقيل : المراد بالميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا ، (٢) .  
وقوله - سبحانه - : « ليسأل الأصادقين عن صدقهم » متعلق بقوله : « أخذنا » ، أو بمحذوف . والمراد بالصادقين : الأنبياء الذين أخذ الله عليهم الميثاق .

أى : فعل - سبحانه - ذلك ليسأل يوم القيامة أنبياءه عن كلامهم الصادق الذى قالوه لأقوامهم ، وعن موقف هؤلاء الأقوام منهم .  
والحكمة من هذا السؤال لشريف هؤلاء الرسل وتكريمهم ، وتوبيخ المكذبين لهم فيما جاءهم به من كلام صادق ، ومن إرشاد حكيم .

وقوله — سبحانه — : «وَأَعِدُّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ، مَعطوف على ما قبله عليه قوله ، ليسأل الصادقين ، .

أى : أفتاب — هز وجل — الأنبياء الكرام بسبب صدقهم في قبليخ رسالته ولعد للكافرين الذين أهرضوا عن دهوة أنبيائهم عذابا أليما ، بسبب هذا الإعراض .

وهكذا جمعت الآية السكريمة بين ما أهده — سبحانه — من ثواب عظيم للصادقين ، ومن عذاب أليم للكافرين .

وبعد هذا البيان الحكيم لبعض الأحكام الشرعية ، أنتقلت السورة السكريمة إلى الحديث عن غزوة الأحزاب ، وعن فضل الله — تعالى — على المؤمنين فيها ، فقال — سبحانه — :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ  
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ  
أَبْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ  
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ  
قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّ  
فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ  
الْإِفْرَارَا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوهُمَا وَمَا  
تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا لَيْسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ  
الْأَدْبَرَ ؕ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

وغزوة الأحزاب ، من الغزوات الشهيرة في تاريخ الدعوة الإسلامية ،  
وكانت - إلهي الرجوع - في شهر شوال من السنة الخامسة بعد الهجرة :  
وملخصها - كما ذكر الإمام ابن كثير - أن نفرًا من اليهود - على رأسهم

ثم خرجوا إلى قبيلة عطفان فدهوهم لحرب المسلمين ، فاستجابوا لهم  
— أيضاً — . .

وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها ، والجميع في جيش قريب  
من عشرة آلاف رجل .

وعندما علم الرسول — صلى الله عليه وسلم — بمقدمهم ، أمر بحفر  
خندق حول المدينة .

ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينة ، فوجدوا الخندق  
قد حفر ، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها ، كان أن المسلمين كانوا لهم  
بالمرصاد .

وخلال هذه الفترة العصبية ، نقض يهود بني قريظة عهودهم مع المسلمين  
وانضموا إلى جيوش الأحزاب ، فزاد الخطب على المسلمين . .

ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريبا من شهر ، ثم جاء نصر الله  
— تعالى — ، بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من  
هذه ، فتصرعت جيوش الأحزاب ، وانكسرت خيامهم ، وملأ الرعب  
قلوبهم ، ورد الله الفين كفروا بغياظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين  
الفتال . . . (١) .

وقد ابتدأ الله — تعالى — الحديث عن هذه الغزوة ، ببدء وجهه إلى  
المؤمنين ، ذكرهم فيه بفضله عليهم ، وبرحمته بهم فقال : يا أيها الذين آمنوا  
اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا  
لم تروها . . .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٨٥ . والسيرة النبوية لابن هشام .

والله : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، اذكروا ، على سبيل الشكر  
والاعتبار ، نعمة الله عليكم ، ورحمته بكم .

« إذ جاءكم جنود ، كثيرة ، هي جنود جيوش الأحزاب ، فأرسلنا  
عليهم ريحا ، شديدة زلزالهم ، وجعلناهم يرحلون عنكم بخوف وفزع .  
كما أرسلنا عليهم جنودا لم تروها ، وهم الملائكة ، الذين أقوا الرعب  
في قلوب أعدائكم .

قالوا : روى أن الله - تعالى - بعث عليهم ريحا باردة في ليلة باردة ، فالقت  
القراب في وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت أوتاد خيامهم ، وأطفأت نيرانهم  
وقدفت في قلوبهم الرعب . . فقال كل سيد قوم لقومه : يا بنى فلان : النجاة  
النجاة . . . (١) .

وقوله - سبحانه - : « وكان الله بما تعملون بصيرا » ، تذييل قصده به  
بيان مظاهر آخر من مظاهر فضله - تعالى - عليهم .

أى : جاءكم تلك الجنود الكثيرة ، فأرسلنا عليهم ريحا شديدة ، وأرسلنا  
عليهم من عندنا جنودا لم تروها ، وكنا فوق كل ذلك مطلعين على أعمالكم  
من حفر الخندق وغيره ، وسامعين لدعائكم ، وقد أجبناه لكم ، حيث  
رددنا أعداءكم عنكم دون أن ينالوا خيرا .

ثم فصل - سبحانه - ما حدث للمؤمنين في هذه الغزوة ، بعد هذا  
الإجمال ، فقال : « إذ جاءوكم من فوقكم ، أى : من أعلى الوادى من جهة  
المشرق . والجملة بدل من قوله « إذ جاءكم جنود » :

والمراد بالذين جاءوا من تلك الجهة : قبائل غطفان وهوازن . وانضم  
إليهم بنو قريظة بعد أن نقضوا عهودهم .

« ومن أسفل منكم ، أى : ومن أسفل الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش ومعهم أحبايشهم وحلفاؤهم .

وقوله : « وإذ زاغت الأبصار ، معطوف على ما قبله ، داخل معه فى حيز التذكير .

أى : واذكروا وقت أن زاغت أبصاركم ، ومالت عن كل شئ . حولها ، وصارت لا تنظر إلا إلى أولئك الأعداء .

يقال : زاغ البصر يزىغ زياغاً وزيفاناً إذا مال وانحرف ، ويقال له أيضاً : زاغ البصر ، إذا مل وتعب بسبب استدامة شغوصه من شدة الهول .

وقوله « وبلغت للقلوب الحناجر » بيان آخر لما أصاب المسلمين من بلاء بسبب إحاطة جيوش الأحزاب بهم .

والحناجر : جمع حنجرة ، وهى جوف الحلقة . والمراد أن قلوبكم فزعت فزعا شديداً . حتى لكانها قد انتقلت من أماكنها إلى أعلى ، حتى قاربت أن تخرج من أفواهكم .

فآلية تصور ما أصاب المسلمين من فزع وكرب فى غزوة الأحزاب ، تصويراً بديعاً مؤثراً ، يرسم حركات القلوب ، وملامح الوجوه ، وخلجات النفوس .

وقوله - سبحانه - : « وتظنون بالله الظنونا » بيان لما دار فى عقولهم من أفكار ، حين رأوا الأحزاب وقد أحاطوا بالمدينة .

والظنون جمع الظن . وهو مصدر يطلق على القليل والكثير منه . وجاء بصيغة الجمع لتعدد أنواعه ، واختلافه باختلاف قوة الإيمان وضعفه .

أى : وتظنون - أيها المؤمنون - بالله - تعالى - الظنون المختلفة ، فنكم من ازداد يقيناً على يقينه ، وازداد ثقة بوعده الله - تعالى - وبصره ، ومنكم من

كان أقل من ذلك في ثباته وبقيته ، وحكم من كان يظهر أيمانكم الإيمان  
الإسلام ، ويظن الكفر والعصيان ، وهم المنافقون وهؤلاء ظنوا الظنون  
السيئة ، بأن اعتقدوا بأن الدائرة ستدور عليكم .

قال ابن كثير قوله : « وتظنون بالله الظنونا » قال الحسن : ظنون  
مختلفة ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن  
ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه - سبحانه - سيظهر دينه على الدين كله ولو  
كره المشركون .

عن أبي سعيد قال : قلنا يوم الحندق : يا رسول الله ، هل من شيء  
نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ فقال ( صلى الله عليه وسلم ) : نعم .  
قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

قال : « فحضر الله - تعالى - وجوه أعدائه بالريح فمزهمهم ، ( ١ ) .  
ولفظ ، هنالك ، في قوله - تعالى - : « هنالك ابتلى المؤمنون » :  
خُرف مكان البعيد ، وهو منصوب بقوله « ابتلى » ، والابتلاء : الاختبار  
والامتحان بالشدائد والمصائب .

أى : في ذلك المكان الذي أحاط به الأحزاب من كل جانب ، امتحن  
الله - تعالى - المؤمنين واختبرهم ، ليميز قوى الإيمان من ضعفه .  
« وزلزلوا زلزالاً شديداً » ، أى : واضطربوا اضطراباً شديداً ، من  
شدة الفزع ، لأن الأعداء حاصروهم ، ولأن بني قريظة نقضوا عهودهم .  
ولقد بلغ إشغال المسلمين بعدوهم إشغالا عظيما . حتى أنهم لم يستطيعوا  
أن يؤدوا بعض الصلوات في أوقاتها ، وقال بعض الصحابة : يا رسول الله ،  
ما صلينا ، فقال لهم ( صلى الله عليه وسلم ) : « ولا أنا والله ما صليت » ثم قال

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا ، فالتقتا - دون أن تعرف إحداهما الأخرى - فتقاتلا ، وحدث بينهم ما حدث من جراح وقتل ، ولم يشعروا أنهم من المسلمين حتى تنادوا بشعار الإسلام : « حم . لا ينصرون » ، فكشف بعضهم عن بعض .

فلما بلغ ذلك رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال لهم : « جراحكم في سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد » .

وعما زاد في بلاء المسلمين وحزنهم . ما ظهر من أقوال قبيحة من المنافقين - حكاهما - سبحانه - في قوله : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، أي : واذكروا - أيضاً - أيها المؤمنون - وقت أن كشف المنافقون وأشباهم عن نفوسهم الخبيثة ، وطباعهم الذميمة ، وقلوبهم المريضة ، فقالوا لكم وأتم في أشد ساعات الحرج والضيق : ( ما وعدنا الله ورسوله ) بالنصر والظفر ( إلا غرورا ) أي : إلا وعداً باطلاً ، لا يطابق الواقع الذي نعيش فيه .

وقال أحدهم : ( إن محمداً كان يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقبصر ، وأعدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط ) .

( وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . )

أي : واذكروا - كذلك - أيها المؤمنون - وقت أن قالت لكم طائفة من هؤلاء المنافقين : ( يا أهل يثرب ) أي : يا أهل المدينة لا مقام لكم في هذا المكان الذي تقيمون فيه بجوار الخندق لحماية بيوتكم ومدنيتكم . فارجعوا إلى مساكنكم ، واستسلموا لأعدائكم .

قال الشوكاني : وذلك أن المسلمين خرجوا في غزوة الخندق ، لجعلوا ظهورهم إلى جبل ملح ، وجعلوا وجوههم إلى العدو ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم . فقال هؤلاء المنافقون : ليس هاهنا موضع إقامة وأمروا

الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول الفميم ، بل كانوا يهربون من الوقوف إلى جانب المؤمنين ، فقال - تعالى - :  
( ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا هورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ) .

أى : أنهم كانوا يحرصون غيرهم على ترك مكانه في الجهاد ولا يكتفون بذلك ، بل كان كل فريق منهم يذهب إلى النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فيستأذنه في الرجوع إلى بيوتهم ، قائلين له : يا رسول الله ( إن بيوتنا هورة ) أى : خالية عن محرسها . يقال : دار ذات عورة إذا سهل دخولها لقلة حصانتها

وهنا يكشف القرآن عن حقيقتهم ويكشفهم في دهرهم فيقول :  
( وما هي بعورة ) أى : والحال أن بيوتهم ليست كما يزعمون ، وإنما الحق أنهم يريدون الفرار من ميدان القتال ، لضعف إيمانهم ، وجبن نفوسهم .

روى أن بنى حارثة بعثوا أحدهم إلى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ليقول له : إن بيوتنا هورة . وليست دار من دور الانصار مثل دورنا ، من بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا كي نرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم ( صلى الله عليه وسلم ) .

فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم . إنا وإنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا فعلوا ذلك . . فردهم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين جمعوا لأنفسهم كل نقيض فهم يسرعون إلى ما يؤذى المؤمنين ، ويبطئون عما ينفعهم . فقال - تعالى -  
( ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما لبثوا بها

إلا يساء ) .

والضمير في قوله — تعالى — ( دخلت ) البيوت أو للمدينة . وقابل  
الدخول من دخل هذه البيوت أو المدينة من أهل الكفر والفساد .  
وأستد — سبحانه — الدخول إلى بيوتهم ، للإشعار بأن الأعداء  
به خلونوا وهم قابعون فيها .

والأفطار : جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة .

والمراد بالفتنة هنا : الردة عن الإسلام أو قتال المسلمين .

وقوله ( لآتوها ) قرأه الجمهور — رر بالمبد بمعنى لأعطوها . وقرأه نافع  
وابن كثير ( لآتوها ) بالتصريح ، بمعنى لاجأوها وفعلوها والتلبك : الإبطاء  
والتأخير .

والمعنى إن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أن بيوتهم عورة ، هم كاذبون  
في زعمهم ، وهم أصحاب نيات خبيثة ، ونفوس عارية عن كل خير .

والدليل على ذلك ، أن بيوتهم هذه التي يزعمون أنها عورة لو اقتحمها  
عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها . ثم طلب منهم أن ينضم إليهم  
في مقاومة المسلمين لسارعوا إلى تلبية طلبه ، وكانوا مطيعين له كل الطاعة  
وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمادة قليلة يعدون العدة خلالها لقتالكم  
— أيها المسلمون — وللانفصال عن كل رابطة تربطكم بهم ، لأن عقيدتهم  
واحدة ونفوسهم مريضة خائرة .

قال صاحب الكشف قوله : ( ولو دخلت عليهم ) أي : المدينة .  
وقيل : بيوتهم . من قولك : دخلت على فلان داره ( من أقطارها ) أي :  
من جوانبها . يريد : ولو دخلت هذه المساكن المتحيزة التي يفرون منها  
مدبتهم من نواحيها كلها وانتالت على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين  
ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ( الفتنة ) أي : الردة والرجعة إلى  
الكفر ومقاومة المسلمين . لآتوها أي : لاجأوها وفعلوها . وقرئ .

لأنوما . أى : لأعطوها ( وما تلبثوا بها إلا يسيرا ) ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف ، أو ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرا . فإن الله يهلكهم ، ( ١ ) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن من الصفات اللازمة للمنافقين نقضهم لعهودهم فقال - تعالى - : ( ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ) .

أى : ولقد كان هؤلاء المنافقون قد حلفوا من قبل غزوة الأحزاب أنهم سيكونون معكم فى الدفاع عن الحق وعن المدينة المنورة التى يسكنونها فيها ، ولكنهم لم يفوا بعهودهم .

( وكان عهد الله مسئولا ) أى : مسئولا عنه صاحبه الذى عاهد الله - تعالى - على الوفاء ، - ويجازى - سبحانه - كل ناقض لعهده بما يستحقه من عقاب .

. . .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فوبختهم على سوء فهمهم . وعلى جبنهم وخورهم وعلى سلاطة ألسنتهم . .

فقال - تعالى - :

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنِ  
 فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ  
 مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً  
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ  
 الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ  
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْهَءٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ  
 تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ  
 سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشْهَءٌ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ  
 اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ  
 يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ  
 يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المنافقين : ( ان ينفعكم الفرار  
 إن فررتم من الموت أو القتل ، لأن كل إنسان لابد له من نهاية تنتهي  
 عندها حياته ، سواء أكانت تلك النهاية من طريق القتل بالسيف ، أم من  
 طريق الموت على الفراش .

ومادام الأمر كذلك فعلى هؤلاء المنافقين أن يعلموا : أن الجبن لا يؤخر

الحياة ، وأن الشجاعة لا تقدمها عن موعدها . وصدق الله إذ يقول :  
 « ولاكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .  
 وقوله : « إن فررتم . . . » جوابه محذوف لدلالة ما سبق عليه . أى : إن  
 فررتم لن ينفعكم فراركم .

وقوله : « وإذا لا تمتعون إلا قليلا » تدبيل قصد به زجرهم عن الجبن  
 الذى استولى عليهم .

أى : إن فراركم من الموت أو القتل ، إن نفعكم - على سبيل الفرض -  
 لفترة من الوقت ، فلن ينفعكم طويلا ، لأنكم لن تتمتعوا بالحياة بعد هذا  
 الفرار إلا وقتا قليلا ، ثم ينزل بكم قضاء الله - تعالى - الذى لا مرد لكم منه  
 فاتفرون منه هو نازل بكم قطعا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقرعهم بحجة  
 أخرى لا يستطيعون الرد عليها ، فقال : « قل من ذا الذى يعصمكم من الله ،  
 إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة . . . » .

أى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هذا الذى يملك أن  
 يدفع ما يريد الله - تعالى - بكم من خير أو شر ، ومن نعمة أو نقمة ،  
 ومن موت أو حياة . . .

إن أحد لا يستطيع أن يمنع قضاء الله عنكم فلاستفهام الإنكار  
 والنفي .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء .

Made searchable using ScribeTools.com

فى النص

قلبي : معناه ، أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام .  
وأجرى مجرى قول : « متقلداً سيفاً وروحاً » أي : « متقلداً سيفاً وحاملاً  
روحاً » (١) . . . .

وقوله - تعالى - : « ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً »  
معطوف على ما قبله . أي : لا يجدون من يعصمهم عما يربده الله - تعالى -  
بهم ، ولا يجدون من دونه - سبحانه - ولياً ينقهم ، أو نصيراً ينصرهم ،  
إذ هو وحده - سبحانه - الناصر والمغيث والمجير .

قال - تعالى - : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ،  
وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » .

ثم بين - سبحانه - أن علمه محيط بهؤلاء المنافقين ، وأنهم لن يفلتوا  
من عقابه ، فقال : « قد يعلم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هلم إلينا  
ولا يأتون البأس إلا قليلاً » .

قال الألوسي ما ملخصه : قال ابن السائب : الآية في عبد الله بن أبي  
وأمثاله ممن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة . كانوا إذا جاءهم  
المنافق قالوا له : ويحك أجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم في  
العسكر ، أن اثبتونا فإننا ننتظركم . . .

وكان بعضهم يقول لبعض : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا  
لما لا إثمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم . . . (٢) .

و قد ، للتحقيق ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء . « والمعوقين »  
من المعوق وهو المنع والصرف . يقال : عاق فلان فلاناً ، إذا صرفه عن  
الجهة التي يريد بها .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٢٩

(٢) تفسير الألوسي ج ٢١ ص ١٦٣

و د من ، في قوله د منكم لليلين . والمراد بالأخوة : التوافق والتشابه في الصفات الذميمة ، والاتجاهات القبيحة ، التي على رأسها كراهيتهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) ولأصحابه .

و د هلم ، إحم فعل أمر بمعنى أقبل .

والمعنى : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه حال أولئك المنافقين . الذين يخفون ويثبطون ويصرفون إخوانهم في النفاق والعشاق ، عن الإشراك مع المؤمنين ، في حرب جيوش الأحزاب ، ويقولون لهم : د هلم إلينا ، أي : أقبلوا نحونا ، وتعالوا إلى جوارنا . ولا تنضموا إلى صفوف المسلمين .

وقوله - سبحانه - : د ولا يأتون لباس إلا قليلا ، ذم لهم على جبنهم وخورهم .

أي : أن من صفاتهم الأصلية أنهم جبناء . ولا يقبلون على الحرب والقتال ، إلا إقبالا قليلا . فهم تارة يخرجون مع المؤمنين ، لإيهاهم أنهم معهم ، أو يخرجون معهم على سبيل الرياء والطمع في غنيمة .

ثم أخذت السورة الكريمة في تصوير ما جعلوا عليه من سوء تصويراً معجزاً ، فقال - تعالى - د أشجة عليكم ، جمع شحيح من الشح وهو البخل في أقبح صورة . ولفظ د أشجة ، منصوب على الحال من الضمير في قوله : د ولا يأتون لباس إلا قليلا .

أي : أن من صفات هؤلاء المنافقين الجبن والخور ، حالة كونهم بخلاء بكل خير يصل إليكم - أيها المؤمنون - فهم لا يعاونونكم في حفر الخندق ، ولا في الدفاع عن الحق والعرض والشرف ولا في أي شيء فيه منفعة لكم .

«رأيتم» - أيها الرسول الكريم - «ينظرون لإيلك، يحزن وهلح وتدور أعينهم» في ما فيهم يميناً وشمالاً .

وحالهم كحال الذي دبغشى عليه من الموت، أي : كحال الذي أحاط به الموت من كل جانب ، فصار في أقصى دركات الوهن والخوف والفرع .

هذه هي حالهم عند ما يتوقعون الشدائد والمخاوف ، أما حالهم عند الأمان وذهاب الخوف ، فهي كما قال - تعالى - « فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداة » .

وقوله «سلقوكم» من السلق . وأصله بسط العضو ومدّه للأذى سواء أكان هذا العضو يداً أو لساناً . والمراد به الإيذاء بالكلام السيء القبيح .

أي : أنهم عند الشدائد جبناءً بخلاء . فإذا ما ذهب الخوف وجل الأمان سلطوا عليكم أسننتهم البذيئة بالأذى والسوء ، ورموكم بالسنة ماضية حادة تؤثر تأثير الحديد في الشيء ، وارتفعت أصواتهم بعد خفوتها ، وانتفخت أوداجهم بعد ضمورها ، وأدعر أنهم أصحاب البلاء في القتال ، بعد أن كانوا إذا ما ذكر القتال أمامهم ، صار حالهم كحال المغشى عليه من الموت .

ثم هم بعد ذلك أشحّة على الخير، أي بخلاء بكل خير ، فهم يحرصون على جمع الغنائم ، وعلى الأموال بكل وسيلة ، ولكنهم لا ينفقون شيئاً منها في وجه من وجوه الخير والبر .

قال ابن كثير قوله «أشحّة على الخير» أي : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال في أمثالهم للشاعر :

أني أسلم أعياراً جفاءً وغلظة      وفي الحرب أمثال النساء العوارك

أي : هم في حال المسألة كأنهم الخير الأعيار . والأعيار جمع عير

وهو الحمار . وفي الحرب كأنهم النساء الحميم ، (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً .

أى : أولئك المنافقون الموصوفون بما سبق من الصفات السيئة لم يؤمنوا بما يجب الإيمان به إيماناً صادقاً ، بل قالوا بالاسم ثم قلوبهم وأفعالهم فأحبط الله - تعالى - أعمالهم ، بأن أبطلها وجعلها هباء منثوراً ، وكان ذلك الاحباط على الله - سبحانه - هيناً يسيراً .

وخص - سبحانه - يسر احباط عملهم بالذكر مع أن كل شئ يسير عليه - تعالى - لبيان أن أعمالهم جديرة بالاحباط والافساد ، لصدورها عن قلوب مريضة ، ونفوس خبيثة .

قال صاحب الكشف : وهل يثبت للمنافقين عمل حتى يرد عليه الاحباط ؟ قلت : لا ، لكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يوطئه القلب ، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يمدى عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء من غير أساس ، وأنها بما يذهب عند الله هباء منثوراً ، (٢) .

ثم ختم - سبحانه - هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند العداوة والمحن فقال : يحسبون الأحزاب لم يذهبوا . . . ،

أى : أن هؤلاء المنافقين بلغ بهم الجبن والخور ، أنهم حتى بعد وحيل الأحزاب عن المدينة ، مازالوا يحسبون ويظنون أنهم لم يذهبوا عنها ، فهم يأبون أن يصدقوا أن الله - تعالى - قد رد الذين كفروا بغيظهم دون أن ينالوا خيراً .

وفي هذه الجملة ما فيها من التلميح بالمنافقين ، حيث وصفتم بأنهم حتى بعد ذهاب أسباب الخوف ، ما زالوا في جنتهم يعيشون .

ثم بين - سبحانه - حالهم فيما لو عاد الأحزاب على سبيل الفرض والتقدير فقال : « وإن يأت الأحزاب ، .  
أى : إلى المدينة مرة ثانية .

« يودوا لو أنهم يادون في الأعراب ، أى : وإن تعد جيوش الأحزاب إلى مهاجمة المدينة مرة ثانية ، يتمنى هؤلاء المنافقون ، أن يكونوا غائبين عنها ، نازلين خارجها مع أهل البوادي من الأعراب ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للقتال .  
فقوله : « يادون ، جمع باد وهو ساكن البادية . يقال : بدا القوم بدا ، إذا نزحوا من المدن إلى البوادي .

والأعراب : جمع أعرابي وهو من يسكن البادية .

ثم بين - سبحانه - تلميحهم على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين فقال :  
« يسألون عن أبنائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ، .

أى : هؤلاء المنافقون يسألون القادمين من المدينة ، والذاهبين إليها عن أخباركم - أيها المؤمنون - حتى لو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا .

ولو كانوا فيكم عند ما يعود الكافرون إلى المدينة - على سبيل الفرض - ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا حتى لا يكتشف أمرهم انكشافاً تاماً . فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء وخداعة .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد أفاضت في شرح الأحوال القبيحة التي كان عليها المنافقون عند ماهاجمت جيوش الأحزاب المدينة ، ووصفتهم بأبشع الصفات وأبغضها إلى كل نفس كريمة ، حتى يحذروهم المؤمنون .

وكما دة القرآن الكريم في المقارنة بين الأخيار والأشرار ، سأقت

فالسورة بعد ذلك صورة مشرفة لمضية للمؤمنين الصادقين ، الذين عند ما رأوا جيوش الأحزاب قالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » ، والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه دون أن يبدلوا تبديلاً . . .  
 لنستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لنا موقف المؤمنين في غزوة الأحزاب ، كما يحكى جانباً من فضل الله عليهم ، ومن لطفه بهم فيقول سبحانه :

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
 الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا  
 مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا  
 وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ  
 مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ  
 الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ  
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ  
 يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾  
 وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ  
 فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ  
 أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . أى : كان لكم قدوة في النبى ( صلى الله عليه وسلم ) حيث بذل نفسه لنصرة دين الله ، في خروجه إلى الخندق ، والأسوة : القدوة . وقرأ عاصم وأسرة ، بضم الهمزة والباقون بكسرهما ، والجمع أسى وأسى - بضم الهمزة وكسرهما . . . (١) .

يقال : فلان انسى بفلان ، إذا اقتدى به ، وسار على نهجه وطريقته . وقال الإمام ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسى برسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى ( صلى الله عليه وسلم ) يوم الأحزاب ، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - تعالى - . . . (٢) .

والذى يقرأ السيرة النبوية الشريفة ، يرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان في هذه الغزوة بصفة خاصة ، وفي غيرها بصفة هامة القدوة الحسنة الطيبة في كل أقواله وأفعاله وأحواله - صلى الله عليه وسلم - . . .

لقد شارك أصحابه في حفر الخندق ، وفي الضرب بالقام ، وفي حمل التراب - بل وشاركهم في أراجيزهم وأناشيدهم ، وهم يقومون بهذا العمل الشاق المتعب . .

وشاركهم في تحمل آلام الجوع ، وآلام السهر . . بل كان - صلى الله عليه وسلم - هو القائد الحازم الرحيم ، الذى يلجأ إليه أصحابه عندما يعجزون عن إزالة عقبة صادقةم خلال حفرهم للخندق . . .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٥٥

(٢) . ابن كثير ج ٦ ص ٣٩٢

قال ابن إسحاق ما ملخصه : وعمل المسلمون فيه - أى فى الخندق - حتى أحكوه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له « جميل » ، سماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمرا ، فقالوا :

سماه من بعد جميل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا  
فإذا مروا بعمرو ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « عمرا » ،  
وإذا مروا بظاهر قال : « ظهرا » .

ثم قال ابن إسحاق : وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغت فى فيها تحقيق نبوته - ﷺ - فكان فيما بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث ، أنهم اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية - أى صخرة عظيمة - ، فشكروا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فدها بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من حضرها : « فوالذى بعته بالحق نبيا لانهالت - أى : لتفتت - حتى عاده كالكتيب - أى كالرمل المتجمع - لا ترد فأسا ولا مسحاة ... » (١) .

وهذه الآية الكريمة وإن كان نزولها فى غزوة الأحزاب ، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول - صلى الله عليه وسلم - فى جميع أقواله وأفعاله ، كما قال - تعالى - : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ... » .

والجار والمجرور فى قوله - سبحانه - : « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، متعلق بمحذوف صفة لقوله « حسنة » ، أو بهذا اللفظ نفسه وهو « حسنة » .

والمراد بمن كان يرجو الله واليوم الآخر : المؤمنون الصادقون الذين  
وفوا بعهودهم .

أى : لقد كان لكم - أيها الناس - قدوة حسنة في نبيكم - صلى الله عليه  
وسلم - ، وهذه القدوة الحسنة كائنة وثابتة للمؤمنين حق الإيمان ، الذين  
يرجون ثواب الله - تعالى - ، ويؤمنون رحمته يوم القيامة ، إذ هم المستفعمون  
بالتأسي برسولهم - ﷺ - وقوله : « وذكر الله كثيرا ، معطوف  
على « كان » ، أى : هذه الأسوة الحسنة بالرسول - صلى الله عليه وسلم ثابتة  
لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ولمن ذكر الله - تعالى - ذكرا كثيرا ،  
لأن الملازمة لذكر الله - تعالى - توصل إلى طاعته والخوف منه  
- سبحانه - .

وجمع - سبحانه - بين الرجاء والإكثار من ذكره ، لأن التأسي التام  
بالرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يتحقق إلا بهما .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - على سبيل التشریف والتذكير - ما قاله  
المؤمنون الصادقون عندما شاهدوا جيوش الأحزاب ، فقال - تعالى - :  
« ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله  
ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ، .

واسم الإشارة « هذا » يعود إلى ما راوه من الجيوش التي جاء بها  
المشركون ، أو إلى ما حدث لهم من ضيق وكرب بسبب ذلك .

أى : وحين رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أقبلت  
نحو المدينة ، لم يهنوا ولم يجزعوا ، بل ثبتوا على إيمانهم وقالوا « هذا ، الذى  
نراه من خطر داهم ، هو ما وعدنا به الله ورسوله ، وأن هذا الخطر سيعقبه  
النصر ، وهذا الضيق سيعقبه الفرج ، وهذا الضر سيأتى بعده اليسر .

قال الألو سق مامثخصه : وأرادوا بقولهم ذلك ، ما تضمنه قوله - تعالى -  
 فى سورة البقرة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا  
 من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين  
 آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » .

وكان نزول هذه الآية قبل غزوة الخندق بحول - كما جاء عن ابن عباس -  
 وفى رواية عن ابن عباس - أيضاً - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
 قال لأصحابه : إن الأحزاب سارون إليكم تسعا أو عشرة ، أى : فى آخر  
 شهر ليال أو عشر ، أى : من وقت الاخبار ، أو من غرة الشهر فلما رأوهم  
 قد أقبلوا فى الموعد الذى حدده - صلى الله عليه وسلم - قالوا ذلك ، (١) .

وقوله - تعالى - : « وصدق الله ورسوله ، داخل فى حين ما قالوه .  
 أى : قالوا عندما شاهدوا جيوش الأحزاب : هذا ما وعدنا الله ورسوله ،  
 وقالوا - أيضاً - على سبيل التأكيد وقوة اليقين والتعظيم لذات الله ، ولشخصية  
 رسوله : وصدق الله ورسوله ، أى : وثبت صدق الله - تعالى - فى أخباره ،  
 وصدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى أقواله .

والضمير فى قوله : « ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً ، يعود إلى ما رأوا من  
 جيوش الأحزاب ، ومن شدائد نزلت بهم بسبب ذلك .

أى - ومازادهم ما شاهدوه من جيوش الأحزاب ، ومن بلاء أحاط بهم  
 بسبب ذلك ، إلا إيماناً بقدرة الله - تعالى - ، وتسليماً لقضائه وقدره ،  
 وأملا فى نصره وتأيدته .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا المديح لهم ، مديحاً آخر فقال : « ومن

المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، والنحب : النفر ، وهو أن يلتزم الإنسان الوفاء بأمر تعهد به .

وقضاؤه : الفراغ منه ، والوفاء به على أكل وجه .

وكان رجال من الصحابة قد نذروا ، أنهم إذا صاحبوا رسول الله ﷺ - في حرب ، أن يشبثوا معه ، وأن لا يفروا عنه . . .

والمعنى : من المؤمنين رجال كثيرون ، وفوا أكل وفاء بما عاهدوا الله - تعالى - عليه ، من التأييد لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ومن الثبات معه في كل موطن . . .

ومنهم من قضى نحبه ، أى : فمنهم من وفى بوعده حتى أدركه أجله فمات شهيداً - كحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين - .

ومنهم من ينتظر ، أى : ومنهم من هو مستمر على الوفاء ، وينتظر الشهادة في سبيل الله - تعالى - في الوقت الذى يريد - سبحانه - ويختاره ، كبقية الصحابة الذين نزلت هذه الآية وهم مازالوا على قيد الحياة .

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال أنس : غاب عني أنس بن النضر - سميت به - لم يشهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله - ﷺ - غبت عنه ، لئن أراي الله مشهد فهمه بعد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليرين الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد .

فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو . أين واهما (١)  
لربح الجنة أجده دون أحد .

قال : فقاتلهم حتى قتل : قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون من  
ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته - همتى الربيع لابنه النضر - فما عرفت  
أخى إلا بيناته .

قال : فنزلت هذه الآية : « من المؤمنين رجال . . . فمكناهم يرون  
أنها نزلت فيه وفى أصحابه - رضى الله عنهم ، ورواه مسلم والغزوى والنساق  
من حديث سليمان بن المغيرة ، (٢) .

وقواه - تعالى - : « وما بدلوا تبديلا ، معطوف على « صدقوا ، أى :  
هؤلاء الرجال صدقوا صدقا تاما فى عهدهم مع الله - تعالى - حتى آخر لحظة  
من لحظات حياتهم ، وما غيروا ولا بدلوا شيئا مما عاهدوا الله - تعالى - عليه  
ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا الابتلاء والاختبار فقال :  
« ليجزى الله الصادقين بصدقهم . . . »

أى : فعل - سبحانه - ما فعل فى غزوة الأحزاب من أحداث ، ليجزى  
الصادقين فى إيمانهم الجزاء الحسن الذى يستحقونه بسبب صدقهم ووقائهم .

« ويعذب المنافقين إن شاء ، أى : إن شاء تعذيبهم بسبب موافقهم على  
نفاقهم .

« أو يتوب عليهم ، من نفاقهم بفضله وكرمه فلا يعذبهم .

قال الجمل : وقوله : « ويعذب المنافقين إن شاء ، جوابه محذوف ،

(١) واهما كلمة تعني « تلف قاتلها » . سعد - رضى الله عنهما .

Made searchable using ScribeTools.com

وَكُلِّدَكَ مَفْعُولٌ بِشَاءٍ مُعْطَوْفٌ - أَيْضًا - أَيْ : إِنْ شَاءَ تَعْدِيهِمْ عَلَيْهِمْ .  
وَالْمُرَادُ بِتَعْدِيهِمْ إِمَاتَتُهُمْ عَلَى النِّفَاقِ ، بِدَلِيلِ الْعُطْفِ فِي قَوْلِهِ : أَوْ يَنْتَوِبَ  
عَلَيْهِمْ ، (١) .

وَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - كَانَ ، وَمَا زَالَ دُعَاؤُكُمْ رَحِيمًا : أَيْ : وَانْتِظَارُ  
الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ - سُبْحَانَهُ - الْمَصِيرَ الْأَسْفَى الَّذِي أَنْتَهَى إِلَيْهِ الْكَافِرُونَ فَقَالَ :  
• وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا • .

أَيْ : وَرَدَّ اللَّهُ - تَعَالَى - بِفَضْلِهِ وَقُدْرَتِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ - أَيُّهَا  
الْمُؤْمِنُونَ - حَالَةً كَوْنَهُمْ مُتَلَبِّسِينَ بِغِيظِهِمْ وَحَقْدِهِمْ . دُونَ أَنْ يَنَالُوا أَيْ  
خَيْرٌ مِنْ لَا يَتِيهِمْ إِلَيْكُمْ ، بَلْ رَجَعُوا غَائِبِينَ خَاسِرِينَ .

فَقَوْلُهُ : بِغِيظِهِمْ ، حَالٌ مِنَ الْمَوْصُولِ ، وَالْبَاءُ لِلْمَلَابَسَةِ ، وَجَمْعَةُ لَمْ يَنَالُوا  
خَيْرًا ، حَالٌ ثَانِيَةٌ مِنَ الْمَوْصُولِ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ : • وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ • بَيَانٌ لِلْمُنَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَمَّنَ بِهَا  
- سُبْحَانَهُ - عَلَيْهِمْ .

أَيْ : وَأَغْنَى اللَّهُ - تَعَالَى - بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَتَاعِبِ الْقِتَالِ  
وَأَهْوَالِهِ بِأَنْ أُرْسَلَ عَلَى جُنُودِ الْأَحْزَابِ رِيحٌ شَدِيدَةٌ ، وَجُنُودٌ مِنْ عِنْدِهِ .  
• وَكَانَ اللَّهُ - تَعَالَى - قَوِيًّا • ، عَلَى أَحْدَاثِ كُلِّ أَمْرٍ يَرِيدُهُ وَهَزْزًا ،  
أَيْ : غَالِبًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَفِي قَوْلِهِ • وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ • ، إِشَارَةٌ إِلَى وَضْعِ  
الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ . وَهَكَذَا وَقَعَ بَعْدَهَا ، لَمْ يَغْزَمْ الْمُشْرِكُونَ ، بَلْ  
غَرَّاهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي بِلَادِهِمْ .

قال محمد بن إسحق: لما انصرف أهل الجندب عن الجندب، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزوتهم فلم تغزو قريش بعد ذلك المسلمين، وكان (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة».

وروى الإمام أحمد عن سليمان بن سعد قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول يوم الأحزاب: «الآن تغزوهم ولا يغزونا» (١).

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن غزوة الأحزاب، ببيان ما حل ببني قريظة من عذاب مهين، بسبب نقضهم لعهودهم فقال: «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم».

والصياصى: جمع صيصية وهي كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها. ومنه قيل لقرن الثور صيصية لأنه يدفع به عن نفسه...

أى: وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون - أنزل الله - تعالى - بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم، وهم يهود بنو قريظة، أنزلهم من حصونهم، ومكنكم من رقابهم...

«وقذف في قلوبهم الرعب، الشديد منكم، بحيث صاروا مستسلمين لكم، ونازعين على حكمكم»...

«فريقاً، منهم» تقتلون، وهم الرجال «وتأمرون فريقاً» آخروهم الذرية والنساء.

«وأورثيكم أرضهم» أى: «وأورثكم الله - تعالى - أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثكم ديارهم» أى حصونهم وأموالهم، التى تركوها من خلفهم، كنفودهم وواشيهم.

كما أورثكم «أرضاً لم تطأوها» بعد بقصد القتال وهي أرض خيبر -

أو أرم

Made searchable using ScribeTools.com

وفي هذه الجملة الكريمة ، وأرضاً لم تطأها ، بشارة عظيمة للمؤمنين ،  
بأن الله - تعالى - سينصرهم على أعدائهم .

وكان الله على كل شيء قديراً ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .

أخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لما رجع النبي  
( صلى الله عليه وسلم ) من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل  
فقال : يا محمد قد وضعت السلاح ، والله ما رضعناه فأخرج إليهم .. فقال  
النبي ( ﷺ ) : فإلى أين ؟ قال : ها هنا وأشار إلى بنى قريظة . فخرج  
النبي ( صلى الله عليه وسلم ) إليهم .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال النبي ( صلى الله عليه وسلم )  
يوم الاحزاب ، لا يصلين أحد المعصر إلا في بنى قريظة ، فأدرك بعضهم  
للمعصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل  
نصلي . فذكر ذلك للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) فلم يعنف أحداً ، (١) .

وبعد أن حاصر المسلمون بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة ، نزلوا بعدها  
على حكم سعد بن معاذ - رضى الله عنه - فحكم بقتل رجالهم ، وتقسيم  
أموالهم ، وسبى نسائهم وذرايعهم .

وقال الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) له : لقد حكمت فيهم بحكم الله  
من فوق سبع سموات ، (٢) .

وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثاً جامعاً حكيماً عن غزوة  
الاحزاب ، فقد ذكرت المؤمنين - أولاً - بنعم الله - تعالى - عليهم ،

(١) صحيح البخاري : باب مرجع النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من  
الاحزاب ج ٥ ص ١٤٢

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٩٧ والآلومي ج ٢١ ص ١٧٦

ثم صورت أحوالهم عندما أحاطت بهم جيوش الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم .

ثم حكمت ما قاله المنافقون في تلك الساعات العصيبة ، وما أشاروا به على أشباههم في النفاق ، وما اعتذروا به من أعداء باطلة ، وما جيلوا عليه من أخلاق قبيحة ، على رأسها الجبن والخور وضعف العزيمة وفساد النية .

ثم انتقلت إلى الحديث عن المواقف المشرقة الكريمة التي وقفها المؤمنون الصادقون عندما رأوا الأحزاب ، وكيف أنهم ازدادوا إيماناً على إيمانهم ، ووفوا بعهودهم مع الله - تعالى - دون أن يبدلوا تبديلاً .

وكما بدئت الآيات بتذكير المؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم ، ختمت - أيضاً - بهذا التذكير حيث رد الله أعداءهم عنهم دون أن ينالوا خيراً ، وممكنهم من معاقبة الغادرين من اليهود ...

• • •

ثم هادت السورة الكريمة مرة أخرى - بعد هذا الحديث عن غزوة الخندق - إلى بيان التوجيهات الحكيمة التي وجهها الله - تعالى - إلى نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) وإلى أزواجه ، فقال - سبحانه - :

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ يُرَدُّنَ إِلَى اللَّهِ  
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ  
تُرَدُّنَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْأَرْحَامِ الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا  
عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مِنْ يَدِ مَنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعِّفُ  
لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ  
مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُفْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا  
رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ  
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا  
مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى  
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ  
اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾  
وَأَذْكُرَنَّ مَا بُدِّلَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ  
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ  
وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ  
كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

وهو له سبحانه ما بها النبي قلب لا زواجك .. ، أمر من الله تعالى لنبيه - ﷺ أن  
يغير أذواجه بين أن يعشن معه بمعيشة الكفائي والوحد في زينة الحياة الدنيا  
وبين أن يفارقهن ليصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا .

قال الإمام القرطبي ماملخصه : قال علماءنا : هذه الآية متصلة بمعنى  
ما تقدم من المنع من إيذاء النبي (ﷺ) ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات .  
قيل : سألته شيئاً من مرض الدنيا . وقيل : سألته زيادة في النفقة .

روى البخاري ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال : دخل  
أبو بكر يستأذن على رسول الله (ﷺ) فوجد الناس جلوساً يباه لم يؤذن  
لأحد منهم ، قال : فأذن لأبي بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ،  
فوجد النبي - صلى الله عليه وسلم - جالساً حوله نسائه ...

قال : فقال عمر ، والله لأقولن شيئاً يضحكك رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة - زوجة عمر - سألتني  
النفقة فقلت لئليها فوجأت عنقها : فضحكك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
وقال : « من حولي كما ترى يسألني النفقة » .

فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها  
وكلاهما يقول : تسألان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما ليس عنده ..  
فقلن : والله لا نسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً أبداً  
ليس عنده ...

ثم نزلت هاتين الآيتين . فبدأ - صلى الله عليه وسلم - بعائشة فقال لها :  
« يا عائشة ، إني أريد أن أعرض عليك أمراً ، أحب أن لا تعجلي فيه حتى  
تستشيري أبويك » .

قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها هاتين الآيتين . فقال : أفليك

وفعل أزواج النبی - صلى الله عليه وسلم - مثل ما فعلت عائشة (١) .  
وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق جملة من الأحاديث في هذا المعنى  
وكان تحتها يومئذ تسع نسوة ، خمس من قریش : عائشة وحفصة ، وأم  
حبيبة وسودة ، وأم سلمة .

- وأربع من غير قریش - وهن : صفية بنت حيي النضرية ، وميمونة  
بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث  
المصطلقية - رضى الله عنهن - .

وقال الإمام الألوسی : فلما خیرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة  
مدحهن الله - تعالى - على ذلك ، إذ قال - سبحانه - : « لا يحل لك النساء  
من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ... » ، فقصره الله  
- تعالى - عليهن ، وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله والدار  
الآخرة ... (٢) .

والمعنى : « يأياها النبي قل لأزواجك » اللاتي في عصمتك ، إن كنتن  
تردن الحياة الدنيا وزينتها .

أى : [ إن كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من  
ما كل ومشرب وملبس ، فوق ما أنتن فيه عندي من معيشة مقصورة على  
ضروريات الحياة ، وقائمة على الزهد في زينتها .

إن كنتن تردن ذلك : دفعا لين أمتعن وأمر حكن سراحا جميلا .

قال الجمل : وقوله : « دفعا لين » ، فعل أمر مبني على السكون ، ونون النسوة

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٦٣

(٢) الألوسی ج ٢١ ص ١٨١

خاطل . وأصل هذا الأمر أن يكون الأمر أعلى مكاناً من المأمور ، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه ، ثم كثر استعماله حتى صار معناه أقبل . وهو هنا كناية عن الاختيار والإرادة . والعلاقة هي أن المخبر يدنو إلى من يطهره ، (١)

وقوله : « أمتعن ، مجزوم فى جواب الأمر . والمتعة : ما يعطيه الرجل للمرأة التى طلقها ، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعاً ، وقد جعلها - حقاً على المحسنين الذين يبتغون رضا الله - تعالى - ، وحسن ثوابه ،

وقوله « وأسرحكن ، معطوف على ما قبله ، والتسريح : إرسال الشيء ، ومنه تسريح الشمر ليخلص بعضه من بعض . ويقال : سرح فلان الماشية ، إذا أرسلها لترعى .

والمراد به هنا : طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لا زواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولا تستطعن الصبر على المعيشة معي ، فلو كن أن تخترن مفارقتي ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقاً لا ضرر فيه ، ولا ظلم معه . لأنى سأعطيكن ما هو فوق حقكن .

« وإن كنتن ، لا تردن ذلك ، وإنما اردن الله ورسوله والدار الآخرة . .

أى : وإنما تردن ثواب الله - تعالى - والبقاء مع رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وإيثار شظف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا .

إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أن الله ، - تعالى - ، أهد للمحسنات

منكزن ، بسبب إيمانهم ولحسنهم ، أجر عظيمًا ، لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وبهذا التأديب الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى ما فيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية الاختيار . . .

• • •

ثم وجه - سبحانه - الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن بأكل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل ، لأنهن القدوة لغيرهن من النساء ، ولأنهن في بيوتهن ينزل الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :

يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة .

فقوله - سبحانه - : يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاهف لها العذاب ضعفين . . . ، نداه من الله - تعالى - لهن ، على سبيل الوعظ - والإرشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن لأنهن القدوة لغيرهن . والفاحشة : ما قبح من الأقوال والأفعال .

والمعنى : يا نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف الله - تعالى - لها العقاب ضعفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما . . .

قال صاحب الكشف : وإنما ضوعف عقابهن ، لأن ما قبح من سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل

والمرتبة ... وليس لاحد من النساء ، مثل قتل نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولا على أحد منهن مثل ما فعله عليهن من النعمة ... ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم : أشد منه للعاصي الجاهل : لأن المعصية من العالم أقيح ... (١).

وقد روى عن زين العابدين بن علي بن الحسين - رضى الله عنهم - أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب ، وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما أجرى الله - تعالى - على نساء نبيه - صلى الله عليه وسلم - من أن لمسيئتنا ضعف من العذاب ، ومحسننا ضعف من الأجر .

وقوله - سبحانه - : : من يأت منكناً بفاحة ... جملة شرطية ، والجملة الشرطية لا تقتضى وقوع الشرط ، كما فى قوله - تعالى - : : واقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ... ، وكما فى قوله - سبحانه - : : ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن منزلتين - رضى الله عنهم - لا تمتنع من وقوع العذاب بهن فى حالة ارتكابهن لما نهى الله - تعالى - عنه ، فقال : : وكان ذلك على الله يسيراً ، أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيراً وهيناً على الله ، لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شيء .

هذه الجزاء فى حالة ارتكابهن - على سبيل الفرض - لما نهى الله - تعالى - عنه ، أما فى حالة طاعتهم ، فقد بين - سبحانه - جزاءهن بقوله : : ومن يثبتن منكم لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين ، واعتدنا لها رزقاً كريماً .

والقنوت : ملازمة الطاعة لله - تعالى - ، والخضوع والخشوع لذاته ،

أى : ومن يقنت منكن - يانسأ النبي - الله - تعالى - ، ويلزم طاعته ، ويحرص على مرضاة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وتعمل عملاً صالحاً -

من يفعل ذلك منكن ، نؤتيها أجرها الذى تستحقه مطاعها ، فضلاً منا وكرمنا ، دأعتدنا لها ، أى : وهبنا لها زيادة على ذلك رزقاً كريماً لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وهكذا نرى أن الله - تعالى - قد ميز أمهات المؤمنين ، فجعل حسنتهن كحسنتين أخيرهما ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين أخيرهما - أيضاً - ، وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مالا يشاهده غيرهن ، من سلوك كريم ، وتوجيه حكيم .

ثم وجه - سبحانه - إليهن نداءً ثانياً فقال : يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . إن اتقيتن . . . .

أى : يا نساء النبي ، لقد أعطاكم الله - تعالى - من الفضل ومن سمو المنزلة ما لم يعط غيركن ، فأتين فى مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لىكن إن اتقيتن الله - تعالى - ، وصنن أنفسكن عن كل ما نهاكن - سبحانه - عنه .

قال صاحب الكشف : أحد فى الأصل بمعنى واحد ، وهو الواحد ، ثم وضع فى النفى العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه . ومعنى قوله : لستن كأحد من النساء ، د لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء . أى : إذا استقصيت أمة للنساء جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة

تساويكن في الفضل والسابقة . . . (١) .

وجواب الشرط في قوله « إن اتقيتن » محذوف لدلالة ما قبله عليه .  
أى : إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء .

قال الآلوسى : قوله « إن اتقيتن » شرط لنفي المثلية وفضلهن على النساء .  
وجوابه محذوف دل عليه المفعول كور . . والمفعول محذوف . أى : إن اتقيتن  
مخالفة حكم الله - تعالى - ورضا رسوله - صلى الله عليه وسلم - . والمراد  
إن دمتن على اتقاء ذلك . والمراد به التهييج بجمل طلب الدنيا والميل إلى  
ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهن ، بمنزلة الخروج من التقوى . . (٢) .

فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ما وصلن إليه من منزلة كريمة ، هو  
بفضل تقواهن وخشيتهن لله - تعالى - وليس بفضل شيء آخر .

ثم نهاهن - سبحانه - عن النطق بالكلام الذى يطمع فيه من فى قلبه  
ففاق ولجور فقال : « فلا تخضعن بالقول فيطامع الذى فى قلبه مرض . . . » .

أى : فلا ترققن الكلام ، ولا تنطقن به بطريقة ليننة متكسرة تثير شهوة  
الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع فى النطق بالسوء . ممكن فإن من محاسن  
خصال المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك ، لغير زوجها من الرجال .

وهكذا يحذر الله - تعالى - أمهات المؤمنين - وهن الطاهرات المطهرات -  
عن الخضوع بالقول ، حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرهن فى كل زمان  
ومكان فإن مخاطبة المرأة - لغير زوجها من الرجال - بطريقة ليننة

(١) تنزه الكرامة - ٣٣ ص ٣٦٦ .

مخيرة للشهوات والغرائز ، تؤدي إلى فساد كبير ، وتطعم من لا خلق لهم فيها . .

ثم أرشدنا - سبحانه - إلى القول الذي يرضيه فقال : « وقلن قولا معروفا » .

أي : اتركن الكلام بطريقة تطعم الذي في قلبه مرض فيمكن ، وقلن قولا حسنا محمودا ، وانطلقن به بطريقة طيبة ، بعيدة عن كل ريبة أو انحراف عن الحق والخلق الكريم .

ثم أمرهن - سبحانه - بعد ذلك بالاستقرار في بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال « وقرن في بيوتكن » .

قال القرطبي ما ملخصه في قوله « وقرن » قرأ الجمهور - بكسر القاف - من القرار تقول في قررت بالمكان - بفتح الراء - أقر - بكسر القاف - إذا نزلت فيه - والأصل « اقرن » بكسر الراء لحذفت الراء الأولى تخفيفا . . ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . . فصارت الكلمة « قرن » - بكسر القاف - .

وقرأ عاصم ونافع « وقرن » - بفتح القاف - من قررت في المكان - بكسر الراء - إذا أقت فيه . . والأصل « اقرن » - بفتح الراء - فحذفت الراء الأولى لثقل التضعيف ، وأقيمت حركتها على القاف . . فتقول « قرن » - بالفتح للقاف - . . (١) .

والمعنى في الزمن يانساء النبي - صلى الله عليه وسلم - بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة ، ومثلن في ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن في مثل هذه الأمور ، هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب

أولى ، وإنما خاطب - سبحانه - أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ،  
واقتران غيرهن بهن .

قال بعض العلماء : والحكمة فى هذا الأمر : أن ينصرفن إلى رعاية  
شئون بيوتهن ، وتوفير وسائل الحياة المنزلية التى هى من خصائصهن ،  
ولا يحسنها الرجال ، وإلى تربية الأولاد فى عهد الطفولة وهى من شأنهن .  
وقد جرت السنة الإلهية بأن أمر الزوجين قسمة بينهما ، فللرجال أعمال  
من خصائصهم لا يحسنها النساء ، وللنساء أعمال من خصائصهن لا يحسنها  
الرجال ، فإذا تعدى أحد الفريقين عمله ، اختل النظام فى البيت والمعيشة (١)

وقال صاحب الظلال مامناخصه . والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها  
نفوسها على حقيقتها كما أرادها الله - تعالى - ... ولكى يهى الإسلام للبيت  
جوه السلام ، ويهى للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ،  
وجعلها فريضة ، كي يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ،  
تاتسرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهى به المثابة نظامها وعطرها  
وبشاشتها ....

فألام المكدودة بالعمل وبمقتضياته ، ويمر اعينه ... لا يمكن أن تهى  
للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تهى للطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها .  
إن خروج المرأة للعمل كارثة على البيت قد تهيئها للضرورة ، أما أن  
يقطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب  
الأرواح والضمانر والمقول ، فى عصور الانتكاس والشروع والضلال (٢)  
وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يرحنن إطلاقاً

(١) صفوة البيان فى تفسير القرآن ج ٢ ص ١٨٣ . لفضيلة الشيخ

حسين محمد مخلوف .

ولأنما المقصود بها أن يكون البيت هو الأصل في حياتهم ، ولا يخرجون إلا  
لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة في المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة  
الوالدين والأقارب ، وكفضاء مصالحهم التي لا تقضى إلا بهم . . . بشرط  
أن يكون خروجهم مصحوبا بالفسر والاحتشام وعدم التبذل .

ولذا قال - سبحانه - بعد هذا الأمر : ولا تبرجن تبرج  
الجاهلية الأولى . .

وقوله : « تبرجن » مأخوذ من البرج - بفتح الباء والراء - وهو سعة  
العين وحسنها ، ومنه قولهم : سفينة برجاه ، أى : متسعة ولا غطاء عليها .  
والمراد به هنا : إظهار ما ينبغي ستره من جسد المرأة ، مع التكلف  
والتصنع في ذلك .

والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة ، إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة :  
أول وأولى .

أو المراد بها : الجاهلية الجاهلة التي كانت ترتكب فيها الفواحش  
بدون إخراج .

وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها : قول مجاهد : كانت المرأة تخرج  
فتمشى بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية .

ومنها قول قتادة : كانت المرأة في الجاهلية تمشي مشية فيها تنكسر . . .  
ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها تلقى الخمر على رأسها ، ولا تشده  
فيوارى قلاندها وعنقها . . .

ويبدو لنا أن التبرج المنهى عنه في الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك ،  
كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب  
الإسلام وأشرعياته .

والمعنى : الزمن يا نساء النبى يوتكن ، فلا تخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن فى لباس الحشمة والوقار ، ولا تبدى إحداكن شيئاً أمرها الله - تعالى - بستره وإخفائه ، واحذرن التشبيه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن ما يثير شهوة الرجال ، وبلغت أنظارهم إليهن .

ثم البع - سبحانه - هذا النهى ، بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن - عز وجل - فقال :

«وأقن الصلاة، أى : داومن على إقامتها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص .  
«وأتين الزكاة، التى فرضها الله - تعالى - عليكم . وخص - سبحانه - هاتين الفريضتين بالذكر من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية .

«وأطعن الله ورسوله ، أى : فى كل ما تأمين وتقركن ، لا سيما فيما أمرتن به ، ونهيتن عنه .

وقوله : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» تعليل لما أمرن به من طاعات ، ولما نهين عنه من سيئات .

والرجس فى الأصل : يطلق على كل شئ مستقذر . وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس .

وقوله : «أهل البيت ، منصوب على النداء ، أو على المدح . ويدخل فى أهل البيت هنا دخولا أوليا : نساقه ( صلى الله عليه وسلم ) بقرينة سياق الآيات .

أى : إنما يريد الله - تعالى - بتلك الأوامر التى أمركن بها ، وبذلك

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : : إنما يريد الله ليذهب عنكم  
الرجس أهل البيت . . . . .

هذا نص في دخول أزواج النبي ( صلى الله عليه وسلم ) في أهل البيت  
هاهنا ، لأن سبب نزول هذه الآية . .

وقد وردت أحاديث تدل على أن المراد اعم من ذلك ، فقد روى الإمام  
أحمد - بسنده - عن أنس بن مالك قال : : إن رسول الله ( صلى الله عليه  
وسلم ) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول :  
الصلاة يا أهل البيت . ثم يتلو هذه الآية . . . (١) .

وقال بعض العلماء : والتحقيق - إن شاء الله - أنهم داخلات في الآية  
بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت .

ونظير ذلك من دخول الزوجات في اسم أهل البيت ، قوله - تعالى - في  
زوجة إبراهيم : قالوا أعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت .

وأما الدليل على دخول غيرهن في الآية ، فهو أحاديث جاءت عن النبي  
( ﷺ ) أنه قال في علي وفاطمة والحسن والحسين - رضي الله عنهم - :  
لأنهم أهل البيت ، ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويبطهرهم تطهيرا ، .  
وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي ( صلى  
الله عليه وسلم ) وعلي وفاطمة والحسن والحسين .

فإن قيل : الضمير في قوله : : ليذهب عنكم الرجس ، وفي قوله :  
: ويبطركم تطهيرا ، ضمير الذكور ، فلو كان المراد أزواج النبي ( صلى الله  
عليه وسلم ) لقيل ليذهب هنك وبطركن ؟

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٠٦ فقد ساق بضعة أحاديث في  
هذا المعنى .

فالجواب : «اذكرناه من أن الآية تشملهم وتعمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها . .

ومن أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل ، وباعتبار لفظ أهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله - تعالى - فى موسى : فقال لأهله امكثوا ، وقوله : سأتيكم ، والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد . .

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمية بقوله - عز وجل - «واذكرن ما يعلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . . .» .

أى : واذكرن فى أنفسكن ذكرا متصلا ، وذكرن غيركن على سبيل الإرشاد ، بما يتلى فى بيوتكن من آيات الله البينات الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبى ( صلى الله عليه وسلم ) ، وبين كونها مهتدة على فنون الحكم والآداب والمواظ . .

ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم ، وبالحكمة : أقوال النبى ( صلى الله عليه وسلم ) وأفعاله وتقريراته .

وفى الآية السكينة إشارة إلى أنهن - وقد خصهن الله - تعالى - بعمل بيوتهن موطننا لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة - أحق بهذا التذكير ، وبالعمل الصالح من غيرهن .

«إن الله كان لطيفا خبيرا ، أى : لا يخفى عليه شئ من أحوالكم ، وقد أنزل عليكم ما فيه صلاح أموركم فى الدنيا والآخرة .

وبعد هذه الترجمات الحكيمة لأهميات المؤمنين ، ساق - سبحانه -  
توجيهاً جامعاً لأهميات الفضائل ، وبشر المنصفين بهذه الفضائل بالمغفرة  
والأجر العظيم . فقال - تعالى - : « إن المسلمين والمسلمات ،

ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد  
والنسائي وغيرهما ، عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قلت للنبي  
( ﷺ ) : مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرض  
منه ( صلى الله عليه وسلم ) ذات يوم إلا فداه على المنبر ، وهو يتلو هذه  
الآية : « إن المسلمين والمسلمات . . . » .

وأخرج القرمظي وغيره عن أم حمارة الأنصارية أنها أتت النبي ( صلى  
الله عليه وسلم ) فقالت : ما أرى كل شيء إلا الرجال ، وما أرى النساء  
يذكرون بشيء ، فنزلت هذه الآية .

وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على أزواج النبي ( صلى  
الله عليه وسلم ) فقلن : قد ذكر كن الله - تعالى - في القرآن ، وما يذكركنا  
بشيء . أما فينا ما يذكر ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ( ١ ) .

والمعنى : « إن المسلمين والمسلمات ، والإسلام هو الانقياد لأمر الله  
- تعالى - وإسلام الوجه له - سبحانه - وتفويض الأمر إليه وحده .

« والمؤمنين والمؤمنات ، والإيمان هو التصديق القلبي ، والإذعان  
الباطني ، لما جاء به النبي ( صلى الله عليه وسلم ) .

« والقانتين والقانتات ، والقنوت هو المواظبة على فعل الطاعات من  
رضا واختيار .

«والصادقين والصادقات، والصدق هو النطق بما يطابق الواقع والبعد،  
عن الكذب والقول الباطل .

«والصابرين والصابرات ، والصبر هو توطين النفس على احتمال  
المسكاره والمشاق فى سبيل الحق ، وحبس النفس عن الشهوات .

«والخاشعين والخاشعات ، والخشوع صفة تجعل القلب والجوارح فى  
حالة انقياد تام لله - تعالى - ، ومراقبة له ، واستغفار لجلاله وهيبته .

«والمتصدقين والمتصدقات ، والتصدق تقديم الخير إلى الغير بإخلاص،  
دفعاً لحاجته ، وعملًا لى عونه ومساعدته .

«والصائمين والصائمات ، والصوم هو تقرب إلى الله - تعالى - ،  
واستعلاء على مطالب الحياة ولذائدها ، من أجل التقرب إليه - سبحانه -  
بما يرضيه .

«والحافظين فروجهم والحافظات ، وحفظ الفرج كناية عن التعفف  
والتطهر والنصون عن أن يضع الإنسان شهوته فى غير الموضع الذى أحله  
الله - تعالى - .

«والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، وذكر الله - تعالى - يتمثل فى  
النطق بما يرضيه كقراءة القرآن الكريم ، والإكثار من تسبيحه - عز وجل -  
وتحميده وتكبيره ..

وفى شعور النفس فى كل لحظة بمراقبته - سبحانه -

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات من الرجال والنساء أهداهم الله، تعالى

وهكذا نجد القرآن الكريم يسوق الصفات الكريمة التي يمتاز بها شأن الرجل والمرأة إذا ما اتصافا بها ، أن يسعدا في ديارهما وفي أخراهما ، وأن يسعد بهما المجتمع الذي يعيمان فيه .

إنها صفات نظمت علاقة الإنسان بربه ، وب نفسه ، وبغيره ، تنظيمًا حكيمًا ، يهدي إلى الرشده ، ويوصل إلى الظفر والنجاح .

ثم انتقلت السورة السكرية إلى الحديث عن الحقوق الواجبة على المسلم نحو خالقه — عز وجل — ونحو رسوله — صلى الله عليه وسلم — وعن تأكيد إبطال عادة التبغى التي كانت منتشرة قبل نزول هذه السورة ، وعن بيان الحكمة خلف الإبطال ، وعن علاقة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) بغيره من أتباعه .



عنها - ، خطبها رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لزيد بن حارثة غاصقة كفت ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وفي رواية أنها قالت : يا رسول الله ، لست بنا كحمته ، فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : « بل فانكحيه » ، فقالت : يا رسول الله ، أوامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحادثان ، أنزل الله - تعالى - هذه الآية . فقالت : يا رسول الله ، قد رضيت لي زوجا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا أعصى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، قد زوجته نفسي .

وذكر بعضهم أنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء - يعني بعد صلح الحديبية - ، فوهبت نفسها للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) فزوجها من مولاه زيد بن حارثة - بعد فراقه لزينة فسخطت هي وأخوها وقالوا : إنما أردنا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فزوجنا عبده ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد (١)

قال ابن كثير : هذه الآية عامة في جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشئ ، فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأى ولا قول ، كما قال - تعالى - : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وفي الحديث الشريف : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

والمعنى : لا يصح ولا يحل لأى مؤمن ولا لآية مؤمنة « إذا قضى الله

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٨٦ ، وتفسير ابن كثير

ورسوله . أى : إذا أراد الله ورسوله أمراً ، من الأمور .

وقال — سبحانه — : « إذا قضى الله ورسوله أمراً ، للإشعاع ، بأن ما يفعله الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) إنما يفعله بأمر الله — تعالى — ، لأنه ( صلى الله عليه وسلم ) لا ينطق عن الهوى .

وقوله : « أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، أى : لا يصح لمؤمن أو مؤمنة إذا أراد الله ورسوله أمراً ، أن يختاروا ما يخالف ذلك ، بل يجب عليهم أن يذعنوا لأمره ( صلى الله عليه وسلم ) ، وأن يجعلوا رأيهم تابعاً لرأيه فى كل شيء .

وكلمة الخيرة : مصدر من تخير ، كالطيرة مصدر من تطير ، وقوله : « من أمرهم » متعلق بها ، أو بمحذوف وقع حالاً منها .

وجاء الضمير فى قوله « لهم » ، وفى قوله « من أمرهم » بصيغة الجمع : رعاية للمعنى إذ أن لفظي مؤمن ومؤمنة وقعاً فى سياق النفي ، فيعمان كل مؤمن وكل مؤمنة .

وقوله — سبحانه — : « ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، بيان لسوء عاقبة من يخالف أمر الله ورسوله .

أى : ومن يعص الله ورسوله فى أمر من الأمور ، فقد ضلّ عن الحق والصواب ضلالاً واضحاً بيناً .

ثم ذكر - سبحانه - قصة زواج النبی ( ﷺ ) من السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة فى الجاهلية ، فقال — تعالى — : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه . . .

الله Made searchable using ScribeTools.com

— تعالى — عليه بنسبة الإيثار ، وهو زيد بن حارثة — رضي الله عنه —

« وأنعمت عليه ، بنعمة العتق ، والحربة ، وحسن الزينة ، والمحبة ، والإكرام ... »

« أمسك عليك زوجك واتق الله ، أي : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله في أمرها ، واصبر على ما يدرمها في حقك ... »

وكان زيد - رضى الله عنه - قد اشتكى للنبي - صلى الله عليه وسلم - من تطاولها عليه ، وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتخشينها له القول ، وقال : يا رسول الله ، إني أريد أن أطلقها .

وقوله - تعالى - : « وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، معطوف على » تقول . أي : تقول له ذلك وتخفى في نفسك الشيء الذي أظهره الله - تعالى - لك ، وهو إلهامك بأن زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستزوجها بأمر الله - عز وجل - .

قال الألوسي : والمراد بالموصول « ما ، على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن علي بن الحسين ما أوحى الله - تعالى - به لإيه من أن زينب سيطلقها زيد ، ويزوجها هو - صلى الله عليه وسلم - . »

ولل هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي ، وغيرهم (١) .

وقال بعض العلماء ماملخصه : قوله - تعالى - : « وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، جملة : الله مبديه صلة الموصول الذي هو « ما ، وما أبداه - سبحانه - »

هو زواجه - صلى الله عليه وسلم - بزینب ، وذلك فى قوله - تعالى - : « فلما خفى زيد منها وطرا زوجناكها » وهذا هو التحقيق فى معنى الآية ، الذى دل عليه القرآن ، وهو اللاتق بجنبه - صلى الله عليه وسلم - .

وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه فى نفسه - صلى الله عليه وسلم - وأبداه الله - تعالى - ، هو وقوع زينب فى قلبه - صلى الله عليه وسلم - ومحبة لها ، وهى زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عندما رآها : سبحان - مقاب القلوب ... إلى آخر ما قالوا ... كله لاصحة له ... ، (١) .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم - وغيرهما - ما هنا آثارا عن بعض السلف ، أحينا أن تضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها . فلا نورد هنا ... ، (٢) .

هذا ، والفضيلة شيخنا الجليل الدكتور أحمد السيد الكومى رأى فى معنى هذه الجملة الكريمة ، وهو أن ما أخفاه الرسول فى نفسه : هو علمه بإصرار زيد على طلاقه زينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه ، وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها ..

وما أبداه الله - تعالى - : هو علم الناس بحال زيد معها ، وعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره ، وتفخر عليه بنسبها . .

فيكون المعنى : أقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك وانق الله ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرته زوجة زينب لوجود التنافر بينهما . . مع أن الله - تعالى - قد أظهر ذلك ، عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة ..

وعما يؤيد هذا الرأي أنه لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة ما يدل دلالة صريحة على أن الله قد أوحى إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - سيتزوجها ، كل ما ورد في ذلك من تلك الرواية التي سبق أن ذكرناها من على بن الحسين - رضى الله عنهما - .

قال صاحب الظلال : وهذا الذي أخفاه النبي - صلى الله عليه وسلم - في نفسه ، وهو يعلم أن الله مبيده ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله ، ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجمهوره في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها من إعلانه - ولكنه - صلى الله عليه وسلم - كان أمام إلهام يجرده في نفسه ، ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس به حتى أذن الله بكونه ، فطلق زيد زوجه في النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد . . . (١)

وهذه الأقوال جميعها تهدم هداما تاما كل للروايات التي رويت عن هذا الحادث ، والتي تهبط بها أهداء الإسلام في كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفكرات .

وقوله - سبحانه - : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ، معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أي : تقول له ما قلت ، وتخفى في نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما ألهمك الله - تعالى - به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله - تعالى - أحق بالخشية من كل ما سواه .

فأجللة الكريمة عتاب رقيق من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم -

وإرشاده إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من زواجه - صلى الله عليه وسلم - بزينب فقال : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها ، لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » .

والوطر : الحاجة ، وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشيء . يقال : قضى فلان وطره من هذا الشيء ، إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته المظمى في مفارقتها .

أى : فلما قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكمها ، أى : جعلناها زوجة لك ، « لكي لا يكون على المؤمنين حرج ، أو ضيق أو مشقة » في أزواج أدعيائهم ، أى : في الأزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين لبنوم ، إذا قضوا منهن وطرا ، أى : إذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم ، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على آباء هؤلاء الأدعياء . أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة . « وكان أمر الله مفعولا ، أى : وكان ما يريد الله - تعالى - حاصلا لا محالة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها » . أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكمها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله - عز وجل - . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر . . .

... الإمام أحمد عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب - رضی الله عنها -

خاضع حتى آناها وهي تخمر عجبنا . قال . فلما رأينا عظمت في صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها . وجعلت أقول - وقد ولينا ظمري ، ونسكت على عقبي - يا زينب - أبشرى . أرسلنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكرك قالت : ما أنا بصانعه شيئاً حتى أؤامر ربى - أئى : أستشيره فى أمرى - ، فقامت إلى مسجد ها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدخل عليها بغير إذن . . .

ورى البخارى عن أنس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى - ﷺ - فنقول له زوجكم أهال يكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات . . . (١)

وقال الإمام الشوكانى : وقوله . . لى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيانهم . . .

أئى : فى الزوج بأزواج من يجعلونه ابناً ، كما كانت تفعله العرب ، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون . . . وكانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تنبوه ، كما تحرم عليهم نساء أبنائهم على الحقيقة ، والأدعياء : جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة . فأخبرهم الله - تعالى - أن نساء الأدعياء حلال لهم - بعد انقضاء العدة - بخلاف الأبناء من الصلب ، فإن نساءهم تحريم على الآباء بنفس العقد عليها . . . (٢)

وبعد أن بين - سبحانه - الحكمة من زواج النبى - صلى الله عليه وسلم - بالسيدة زينب بنت جحش ، التى كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة - الذى كان الرسول قد تبناه وأعتقه - بعد كل ذلك أخذت السورة للمكرمة

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٠ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٦ ص ٣٨٥ .

فى تقرير هذه الحكمة ونا كيدها ، وإزالة كل معلق بالأذهان بشأنها ، فقال  
- تعالى - : « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له . . . » .

أى : ما كان على النبى - صلى الله عليه وسلم - من حرج أو لوم  
أو مؤاخذه ، فى فعل ما أحله الله له ، وقدره عليه ، وأمر به من زواجه بزینب  
بعد أن طلقها ابنه بالثبوت . زيد بن حارثة فقوله : « فيما فرض الله له ، أى :  
فيما قسمه له ، وقدره عليه ، مأخوذ من قولهم : فرض فلان لفلان كذا ،  
أى : قدر له هذا الشيء ، وجعله حلالا له .

وقوله - تعالى - « سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا  
مقدورا ، زيادة فى تأكيد هذه الحكمة ، وفى تقرير صحة ما فرضه الله - تعالى -  
لنبيه - صلى الله عليه وسلم - .

أى : ما فعله الرسول - ﷺ - من زواجه بزینب بعد طلاقها من  
زيد ، قد جعله الله - تعالى - سنة من سنته فى الأمم الماضية ، وكان أمر الله  
- تعالى - قدرا مقدورا . أى : واقعا لا محالة .

والقدر : إيجاد الله - تعالى - الأشياء على قدر مخصوص حسبما تقتضى حكمته .  
ويقابله القضاء : وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه .  
وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر . والظاهر أن قدر الله - تعالى - هنا  
بمعنى قضائه .

ولفظ « مقدورا ، وصف جىء به للتأكيد ، كما فى قولهم : ظل ظليل ،  
وإليل إليل . ثم مدح - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون دعوته  
دون أن يخشوا أحدا سواه فقال : « الذين يبلغون رسالات الله ، التى يكلفهم  
- سبحانه - بتبليغها . والموصول فى محل جر صفة « للذين خلوا ، .  
أو منصوب على المدح .

« ويخافونه ، أى : ويخافونه وحده ، ولا يخشون أحداً إلا الله - عز وجل - فى كل ما يأتون وما يذرون ، وما يقولون وما يفعلون .  
« وكفى بالله حسيباً ، أى : وكفى بالله - تعالى - محاسباً لعباده على نيات قلوبهم وأفعال جوارحهم ، وأقوال ألسنتهم .

ثم حدد - سبحانه - وظيفة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأثنى عليه بما هو أهله ، فقال - تعالى - : « ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ، أى : لم يكن محمد - صلى الله عليه وسلم - أباً لأحد من رجالكم أبوة حقيقية ، تقرب عليها آثارها وأحكامها من الإرث ، والنفقة ، والزواج . . . وزيد كذلك ليس ابنه - صلى الله عليه وسلم - فزواجه -  - زينب التى طلقها زيد لا حرج فيه ، ولا شبهة فى عدم صحته وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » استدراك لبيان وظيفته وفضله .

أى : لم يكن - صلى الله عليه وسلم - أباً لأحدكم على سبيل الحقيقة ، ولكنه كان رسولاً من عند الله - تعالى - ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وكان - أيضاً - خاتم النبيين ، بمعنى أنهم ختموا به ، فلا نبي بعده ، فهو كالخاتم والطابع لهم . ختم الله - تعالى - به الرسل والأنبياء ، فلا رسول ولا نبي بعده إلى قيام الساعة .

قال القرطبي : قرأ الجمهور « وخاتم » - بكسر التاء - بمعنى أنه ختمهم - أى : جاء آخرهم .

وقرأ عاصم « وخاتم » - بفتح التاء - بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم .

وقيل : الخاتم والخاتم - بالفتح والكسر - لغتان ، مثل طابع وطابع . . . وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : مثل ومثل الأنبياء من قبل ، كمثل رجل بنى داراً فاتمها واكملها ، إلا موضع

أبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ،  
هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - فأنا موضع اللبنة جئت  
فختمت الأنبياء ، (١) :

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه  
الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فضلت  
على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم  
وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت لى الخلق كافة . وختم لى  
النبىون . .

ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث فى  
هذا كثيرة فن رحمته الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد - ﷺ - لإيهم ،  
ثم من تشریفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ،  
وقد أخبر - تعالى - فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لا نبى  
بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ، دجال ضال  
مضل ، ولو تخرق وشعبه ، وأتى بأنواع المحر والطلاسم . . . (٢)

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : : وكان الله بكل شىء عليما .  
أى : وكان - عز وجل - وما زال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما  
ينفعهم ويضاهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم فى حاجة لإليه من تشريعات ،  
واختار رسالة نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - لتكون خاتمة الرسالات ،  
فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ، ليزيدكم - سبحانه - من فضله  
وإحسانه .

• • •

Made searchable using ScribeTools.com

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٩٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٤ .

ثم جاءت الايات المكرمة بعد ذلك لتؤكد هذا المعنى وتقرره ، فامرته  
المؤمنين بالإكثار من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتحميده وتكبيره ،  
فقال - سبحانه - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ  
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم  
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۖ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوُ  
سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۖ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا  
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۖ وَبَشِّرِ  
الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۖ وَلَا تَطْغِ الْكُفْرِيَّةُ  
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۖ  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ  
تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَتُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ  
مَرَّاحًا جَبِيلًا ۖ

والمقصود بذكر الله - تعالى - في قوله : : يا أيها الذين آمنوا اذكروا  
الله ذكرا كثيرا ، ما يشمل التهليل والتحميد والتكبير وغير ذلك من الأقوال  
والأفعال التي ترضيه - هو وجل - .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، أكثروا من التقرب إلى الله تعالى - بما يرضيه ، فى كل أوقانكم وأحوالكم فإن ذكر الله تعالى - هو طب النفوس ودوائها ، وهو عافية الأبدان وشفائها ، به تطمئن القلوب ، وتشرح الصدور . .

والتعبير بقوله : «أذكروا الله ذكرأ كثيرا» يشعر بأن من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ، أن يواظب على هذه الطاعة مواظبة تامة .

ومن الأحاديث التى وردت فى الحظ على الإكثار من ذكر الله ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله (ﷺ) : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق - أى : الفضة - ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ، قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله - عز وجل - .

وعن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن يسر يقول : جاء أعرابي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله .

وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، ففى أى أمر أتشبث به . قال : «لا يزال لسانك رطبا بذكر الله» .

وقال ابن عباس : لم يفرض الله تعالى - فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم حذر أهلها فى حال العذر ، خیر الذكر ، فإن الله تعالى - لم يجعل له حدا يفنى إليه ، ولم يعذر أحد فى تركه إلا مغلوبا على عقله ، وأمرهم به فى الأحوال كلها . فقال تعالى : «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم» .

Made searchable using ScribeTools.com  
جنوبكم . . . أى : بالليل وبالنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ،

والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلائية ، وعلى كل حال . (١)  
 وقوله : « وسبحوه بكرة وأصيلا » معطوف على « اذكروا » ، والتسبيح :  
 التنزيه . ماخوذ من السبح ، وهو المر السريع في الماء أو في الهواء . فالمسبح  
 مسرع في تنزيه الله وتبرئته من السوء ، والبكرة : أول النهار ، والأصيل :  
 آخره .

أى : اذكروا — أيها المؤمنون — من ذكر الله — تعالى — في كل  
 أحوالكم ، ونزهوه — سبحانه — عن كل ما لا يليق به ، في أول النهار  
 وفي آخره .

وتخصيص الأمر بالتسبيح في هذين الوقتين ، لبيان فضلهما ، ولزيادة  
 الثواب فيهما ، وهذا لا يمنع أن التسبيح في غير هذين الوقتين له ثوابه العظيم  
 عند الله — تعالى — .

— وأيضا — خمس — سبحانه — التسبيح بالذكر مع دخوله في  
 عموم الذكر ، للتنبيه على مزيد فضله وشرفه .

قال صاحب الكشف : « والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختصه تعالى  
 من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، لبيان فضله  
 على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات  
 والأفعال . . . (٢) » .

وقوله — سبحانه — : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته . . » استئناف  
 جار مجرى التعليل لما قبله ، من الأمر بالإكثار من الذكر ومن التسبيح .  
 والصلاة من الله — تعالى — على عباده معناها : الرحمة بهم ، والثناء .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٦

(٢) تفسير للكشاف ج ٢ ص ٤٥٥

عليهم . كما أن الصلاة من الملائكة على الناس معناها : الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة .

قال القرطبي : قوله — تعالى — : « هو الذى يصلى عليكم وملائكته .. » قال ابن عباس : لما نزل : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » . قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصة ، وليس لنا فيه شيء ، فانزل الله هذه الآية .

ثم قال القرطبي : قلت : وهذه نعمة من الله — تعالى — على هذه الأمة من أكرامهم ، ودليل على فضلها على سائر الأمم . وقد قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

والصلاة من الله على العبد هي رحمته له ، وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال — تعالى — : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمدهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » (١) .

وقوله : « لينزعكم من الظلمات إلى النور » متعلق بقوله « يصلح » أى : برحمكم — سبحانه — برحمته الواسعة ، ويسخر ملائكته للدعاء لكم ، لكي ينزعكم بفضله ومنته ، من ظلمات الضلال والكفر إلى نور الهداية والإيمان .

« وكان » — سبحانه — وما زال « بالمؤمنين رحيما » رحمة عظيمة واسعة ، تشمل الدنيا والآخرة .

أما رحمته لهم في الدنيا فنمظاهرها : هدايته إياهم إلى الصراط المستقيم وأما رحمته — سبحانه — لهم في الآخرة فنمظاهرها : أنهم يأمنون

من القرآن الكريم  
Made searchable using ScribeTools.com

وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها فأقصفت - إلى صدرها وأرضعته فقال : أترون هذه تلقى ولدها في النار وهي تقدر على ذلك ؟ قالوا : لا . قال : فوالله لله ارحم بعباده من هذه بولدها .

ثم بين - عز وجل - ما أعدّه للمؤمنين في الآخرة فقال : ونحيتهم يوم يلقونه سلام .

والنحية : أن يقول قائل للشخص : حياك الله ، أى : جعل لك حياة طيبة .

وهذه التحية للمؤمنين في الآخرة ، تشمل تحية الله - تعالى - لهم ، كافي قوله - سبحانه - : سلام قولا من رب رحيم ، (١) .

وتشمل تحية الملائكة لهم ، كما في قوله - تعالى - : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، (٢) .

كما تشمل تحية بعضهم ببعض كما في قوله - عز وجل - : دعواهم فيها سبحانه اللهم ونحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ، (٣) .

أى : تحية المؤمنين يوم يلقون الله - تعالى - في الآخرة ، أو عند قبض أرواحهم ، سلام وأمان لهم من كل ما يفرعهم أو يخيفهم أو يزعجهم . . .  
وأعد لهم ، - سبحانه - يوم القيامة أجرا كريما ، هو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

...

(١) سورة يس . الآية .

(٢) الرعد الآية ٢٢ ، ٢٣

(٣) يونس . الآية ١٠

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى ( صلى الله عليه وسلم ) حدد له فيه وظيفته ، وأمره بتبشير المؤمنين بما يسرهم ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً .  
وقوله : ( مبشراً ) من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر .

وقوله : ( ونذيراً ) من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف الذى يجتنب ويحذر .

والمعنى : يا أيها النبى الكريم ( لانا أرسلناك ) إلى الناس ( شاهداً ) أى : شاهداً لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغاً تاماً كاملاً .

( ومبشراً ) أى : ( ومبشراً المؤمنين منهم برضا الله - تعالى - .

( ونذيراً ) أى : ومنذراً للكافرين بسوء العاقبة ، بسبب إعراضهم عن الحق الذى جئتم به من عند الخالق - عز وجل - .

وقدم - سبحانه - التبشير على الإنذار ، تكريماً للمؤمنين المبشرين ، وإشعاراً بأن الأصل فى رسالته - صلى الله عليه وسلم - التبشير ، فقد أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .

وقوله : ( وداعياً إلى الله بإذنه ) أى : وأرسلناك - أيضاً - داعياً الناس إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وهذه الدعوة لهم منك كائنة بإذنه - سبحانه - وبأمره وبقيسه .

فالتقدم بقوله ( بإذنه ) لسان أنه - ﷺ - لم يدم الناس إلى مادعاهم

Made searchable using ScribeTools.com

دعاهم إلى ذلك بأمر الله - تعالى - وإذنه ومهيئته ، وللإشارة إلى أن هذه

الدعوة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا صاحبها إذن الله - تعالى -  
للنفوس بقبولها .

وقوله : « وسراجا منيرا ، معطوف على ما قبله . والسراج : المصباح  
الذى يستضاء به فى الظلمات .

أى : وأرسلناك - أيها الرسول الكريم - بالدين الحق ، لتكون  
كالسراج المنير الذى يهتدى به الضالون ، ويخرجون بصيبه من الظلمات  
إلى النور .

ووصف السراج بالإضاءة ، لأن من المصابيح ما لا يضيء إذا لم يوجد به  
ما يضيئه من زيت أو ما يشبهه .

قال صاحب الكشف : « جلى الله - تعالى - بنبيه - صلى الله عليه وسلم -  
ظلمات الشرك ، فاهتدى به الضالون ، كما يهتدى بالليل بالسراج المنير  
ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور  
الابصار . ووصفه بالإضاءة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه - أى :  
زيت - ودقت فتيلته . . . » (١) .

وبعد أن وصف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بهذه الصفات  
الكرامة ، أتبع ذلك بأمره بتبشير المؤمنين برضا الله عنهم ، وبنبيه عن طاعة  
الكافرين ، فقال - تعالى - : « وبشر المؤمنين . . . » أى : انظر - أيها الرسول  
الكريم - إلى أحوال الناس وإلى موقفهم من دعوتك . وبشر المؤمنين منهم  
« بأن لهم من الله » - تعالى - فضلا كبيرا ، أى : عطاء كبيرا ، وأجر عظيما ،  
ومنزلة سامية بين الأمم .

« ولا تطع الكافرين والمنافقين ، فيما يشيرون به عليك من ترك الناس وما يعبدون ، أو من عدم بيان مام عليه من باطل وجهل ، بل أثبت على ما أنت عليه من حق ، وامض فى تبليغ دعوتك دون أن تخشى أحدا إلا الله - تعالى - .

« ودع أذى ، أى : ولا تبالي بما ينزلونه بك من أذى ، بسبب دعوتك لإيادى إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، واصبر على ما يصيبك منهم حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل بينك وبينهم .

« وتوكل على الله ، فى كل أمورك » وكفى بالله - تعالى - وكيفا ، توكل إليه الأمور ، وترد إليه الشئون . . .

هذا ، ومن الأحاديث النبوية التى اشتملت على بعض المعانى التى اشتملت عليها هذه الآيات ، مارواه الإمام البخارى والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم فى التوراة ؟ قال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : « يأبى النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للمؤمنين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظا ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله - تعالى - حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، (١) .

• • •

حدثنا الشيخ العلامة - بعد هذا الحديث الجامع من وظيفة الرسول

Made searchable using ScribeTools.com

— صلى الله عليه وسلم — وعن فضله — إلى الحديث عن جانب من أحكام الزواج والطلاق ، فقال - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات والمراد بالنكاح هنا في قوله ( إذا نكحتم ) العقد ، لأن الحديث في حكم المرأة التي تم طلاقها قبل الدخول بها .

وهذا الحكم شامل للمؤمنات وغيرهن كالكنايات ، إلا أن الآية الكريمة خصت المؤمنات بالذكر ، للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخبرها للنطقة .

والعدة : هي الشيء المحدود . وعدة المرأة معناها : المدة التي بانقضائها يحل لها الزواج من شخص آخر ، غير الذي كان زوجها لها .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ( إذا نكحتم المؤمنات ) أى : إذا عقدتم عليهن عقد النكاح ، ولم يبق بينكم وبينهن سوى الدخول بهن .

( ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ) أى : ثم طلقتموهن من قبل أن تجمعهن .

قال الألومى : وفائدة المجيء بضم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على الفور كتبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة ، إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخى الطلاق ، له دخل في إيجاب العدة ، لاحتمال الملاقة والجماع سراً .. (١) .

أى : أن الحكم الذى اشتملت عليه الآية الكريمة ، ثابت سواء تم الطلاق بعد عقد الزواج مباشرة ، أم بعده بمدة طويلة .

وفى التعبير عن الجماع بالمس كناية لطيفة . من شأنها أن تربي في الإنسان حسن الادب ، وسلامة التعبير ، وتجنب النطق بالألفاظ التى تخدش الحياة

وقوله : « فإلحكم عليهن من عدة تعتدونها » جواب إذا ، وبيان للحكم  
المعرب على طلاق المرأة قبل الدخول بها .

أى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فلا عدة عليهن ، بل من  
حقهن أن يتزوجن بغيركم ، بعد طلاقكم لهن بدون التقيد بأية مدة  
من الزمان .

قال الجمل : وقوله : « تعتدونها » صفة لعدة . وتعتدونها تفتعلونها ، وإما من  
العدد ، وإما من الاعتداد ، أى : تحسبونها أو تستوفون عددها ، من قولك :  
عد فلان الدراهم فاعتدها ، أى : فاستوفى عددها . . . (١) .

فالْمَقْصُود من الآية الكريمة بيان أن المطلق قبل الدخول بها لا عدة عليها  
إطلاقاً بنص الكتاب وإجماع الأمة ، أما المطلقة بعد الدخول بها فعليها  
العدة إجماعاً .

وقوله - سبحانه - : « فتموهن وسرحوهن سراخاً جميلاً » بيان لما  
يجب على المؤمنين أن يفعلوه ، بالنسبة لمن طلقت قبل الدخول بها .

وأصل المتعة والمتاع ، ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير  
ذلك . ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند  
طلاقها منه ، لتنتفع به ، جبراً لحاظها ، وتعويضاً لها عما نالها بسبب  
هذا الفراق .

وأصل التسريح . أن ترعى الإبل للسرْح ، وهو شجر له ثمرة ، ثم  
أطلق على كل إرسال فى الرعى ، ثم على كل إرسال وإخراج .

والتسريح الجميل : هو الذى لا ضرر معه . وإنما معه الكلام الطيب ،  
والفعل الحسن .

والمعنى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فأعطوهن من المال ما يحوز  
خاطرهن ، وما يكون هوذا عن فراقهن . . . وأطلقوا مراحمهن ليستأنفن  
حياة جديدة مع غيركم ، وساعدوهن على ذلك إن استطعتم ، فإن من شأن  
العقلاء أن يعاشروا أزواجهن بالمعروف ، وأن يفارقوهن - أيضا - بالمعروف .

ومن العلماء من يرى أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل في حال مفارقتها  
قبل الدخول بها ، لأن الآية الكريمة قد أمرت بذلك ، والأمر يقتضى  
الوجوب .

وقد بينا ذلك بالتفصيل عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة البقرة :  
« لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة » ،  
ومتعوهن ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على  
المحسنين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة  
فنفصم ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفو  
أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ، (١) .

والملاحظ أن الآية الكريمة التى معنا ، قد أضافت حكما جديدا ، وهو أنه  
لا حدة على المطلقة قبل الدخول بها .

ومن مجموع هذه الآيات ، نرى أحكم التشريعات ، وأسهى التوجيهات .

• • •

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانيبا من مظاهر فضله عليه ، وتسكريمه له حيث خصه بأمور تتعلق بالنكاح لم يخص بها أحدا غيره . فقال - تعالى - :

يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي

ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ  
عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمِّمِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ  
مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبْتُ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ  
يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا  
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيَجْلِيَ لَكَ عَلَيْكَ حَرَجٌ  
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥١﴾ تُرْجَى مِنْ نِّسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُعْوَى إِلَيْكَ  
مِنْ نِّسَاءٍ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى  
أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٢﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ  
أَوْ لَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَتَّجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ  
وَوَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٣﴾

قال ابن كثير : يقول — تعالى — مخاطباً نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن ، وهى الأجور ها هنا . كما قاله مجاهد وغير واحد .

وقد كان مهره — صلى الله عليه وسلم — لنسائه : اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقية . الجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمرها هذه النجاشى — رحمه الله — بأربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيى فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها . وفى قوله : دأيت أجورهن ، إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملاً للمرأة دون إبقاء شيء منه ، هو الأكل والأفضل ، وأن تأخير شيء منه إنما هو أمر مستحدث ، لم يكن معروفاً عند السلف الصالح .

وأطلق على المهر أجر لمقابلته الاستمتاع الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما يقال الأجر بالمنفعة .

وقوله : وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، بيان لنوع آخر مما أحله الله — تعالى — لنبيه — صلى الله عليه وسلم — .

والمعنى : يأيها النبى إنا أحللنا لك . بفضلائنا على سبيل التكريم والشريف لك ، الاستمتاع بأزواجك الكائنات عنده ، واللاتي أعطيتهن مهورهن . كما نشه وحفصة وغيرهما . لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها . كما أحللنا لك التمتع بما ملكت يمينك من النساء اللاتي دخان فى ملكك عن طريق الغنيمة فى الحرب ، كصفية بنت حيى بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث .

ثم بين — سبحانه — نوعاً ثالثاً أحله — سبحانه — له فقال : وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك . .

أى : وأحللنا لك - أيضاً - الزواج بالنساء اللاتي تربطك بهن قرابة من جهة الأب ، أو قرابة من جهة الأم .

وقوله : « اللاني هاجر من معك ، إشارة إلى ما هو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر .

والمراد بالمعبية هنا . الاشتراك في الهجرة . لا المصاحبة فيها ، لما في قوله : - تعالى - حكاية عن ملكة سبأ : . قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت

قال بعض العلماء : وقد جاء في الآية الكريمة عدة قيود ، فأربدوا أحد - منها إلا التنبيه على الحالة السكرمة الفاضلة .

منها : وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) باللاتي آتى أجورهن ، فإنه تنبه على الحالة الكاملة ، فإن الأكل إبقاء المهر كاملا دون أن يتأخر منه شيء .

ومنها : أن تخصيص المملوكات بأن يكن من الفئ ، فإن المملوكة إذا كانت غنيمة من أهل الحرب كانت أحل وأطيب مما يشتري من الجلب، لأن المملوكة عن طريق الغنمة تكون معروفة الحال والنشأة .

ومنها : قيد الهجرة في قوله : « اللاتي هاجرن معك » ، ولا شك أن من هاجرت مع النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أولى بشرف زوجية النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من عداها ، ( ١ ) .

ثم بين - سبحانه - نوعاً رابعاً من النساء ، أحله انبياه ( صلى الله عليه وسلم ) فقال : « و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . . . »

وقد اشتمل هذه الجملة على شرطين ، الثاني منهما قيد للأول ، لأن هبتهما نفسها له ( صلى الله عليه وسلم ) لا توجب حملها له إلا بقبوله الزواج منها وقوله « يستكحما » بمعنى ينكحهما . يقال : فكح واستكح ، بمعنى عجل واستعجل ، ويجوز أن يكون بمعنى طلب النكاح .

وقوله : « خالصة » منصوب على الحال من فاعل « وهبت » أى : حال كونها خالصة لك دون غيرك . أوتعت لمصدر مقدر . أى : هبة خالصة .

والمعنى . وأحللنا لك كذلك امرأة مؤمنة ، إن ملكتك نفسها بدون مهر وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك ، وهذا الإحلال إنما هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين ، لأن غيرك من المؤمنين لا تحمل لهم من وهبت نفسها لواحد منهم إلا بولي ومهر .

وقد ذكروا عن وهب أنفسهن له ( صلى الله عليه وسلم ) : خولة بنت حكيم ، وأم شريك بنت جابر ، وليلي بنت الحطيم . .

وقد اختلف العلماء فى كونه ( صلى الله عليه وسلم ) قد تزوج بواحدة من هؤلاء الواهبات أنفسهن له أم لا .

والأرجح أنه ( صلى الله عليه وسلم ) لم يتزوج بواحدة منهن ، وإنما زوجهن لغيره . ويشهد لذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد السعدي أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندي إلا إزارى هذا . فقال ( صلى الله عليه وسلم ) : إن أعطيتها إزارك جلست لإزارك ، فالتبس شيئا فقال : لا أجد شيئا . فقال : التبس ولو خاتما من حديد ، فقام الرجل فلم يجد شيئا فقال له النبى ( صلى الله عليه وسلم ) : هل معك من القرآن شيء ؟ قال نعم .

سورة كذا وسورة كذا — لسور بسميها — ، فقال له رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : « زوجتكما بما معك من القرآن » (١) .

وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال فى الآية الكريمة : الإذن العام والتوسعة عليه ( صلى الله عليه وسلم ) فى الزواج من هذه الأصناف ، والإباحة له فى أن يختار ممن من تفتضى الحكمة للزواج منها ، واختصاصه ( صلى الله عليه وسلم ) بأمور تتعاق بالنكاح ، لا تحل لأحد سواه .

ولهذا قال — سبحانه — بعد ذلك : « قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم . . . » ، فإن هذه الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها ، من اختصاصه ( صلى الله عليه وسلم ) بأمور فى النكاح لا تحمل لغيره ، كحل زواجه بمن تبه نفسها بدون مهر ، إن قبل ذلك العرض منها .

أى : هذا الذى أحلناه لك — أيها الرسول الكريم — هو خاص بك ، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فلا يجوز لهم الإخلال به ، كما لا يجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله — تعالى — به ، على سبيل التوسعة عليك ، والتكريم لك ، فهم لا يجوز لهم الزواج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لا يجوز لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة .

وعلمنا — أيضاً — ما فرضناه عليهم بالنسبة لما ملكت أيمانهم ، من كونهم ممن يجوز سبيهم وحرره ، لا ممن لا يجوز سبيهم ، أو كان له عهد مع المسلمين وقوله : « لى لا يكون عليك حرج ، متعلق بقوله : « أحلناه وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون المعنى .

والواحدة نفسها لك ، لنـدفع عنك الضيق والخرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك بتبليغه .

وقيل : إنه متعلق بمخالصة ، أو بما ملها ، فيكون المعنى : خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكي لا يكون عليك حرج في البحث عنه . ويرى بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما يفنا من أحكام خاصة بك ، حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون ما نفهـله هو بوحى منا وليس من عند نفسك . ١

ثم ختم — سبحانه — الآية بقوله : وكان الله غفورا رحيما ، أى : وكان الله — تعالى — وما زال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وقوله — عز وجل — : « ترجى من تشاء ومنهن وتووى إليك من تشاء » شروع في بيان جانب آخر من التوسعة التي وسعها — سبحانه — لنبيه ( صلى الله عليه وسلم ) في معاشرة نسائه ، بعد بيان ما أحله له من النساء .

وقوله : « ترجى » من الإرجاء بمعنى التأخير والتنجية ، وقرئ مهموزا وغير مهموز ، تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ، ونحييته جانبا حتى يحين موعده المناسب .

وقوله : « وتووى » من الإيواء بمعنى الضم والتقريب ومنه قوله — تعالى — : « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . . . » أى : ضمه إليه وتقربه منه .

والضمير في قوله « منهن » يعود إلى زوجاته ( صلى الله عليه وسلم ) اللاتي كن في عصمته .

قال القرطبي ما ملخصه : واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها : التوسعة على النبي ( صلى الله عليه وسلم ) في ترك القسم ، فكان لا يجب عايه القسم بين زوجاته .

وهذا القول هو الذى يناسب ماضى، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح،  
 هن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنت أغار على اللأى وهن أنفسهن  
 لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وأقول : أوتب المرأة نفسها لرجل ؟  
 فلما أنزل الله - تعالى - : : ترجى من تشاء منهم . . . . .

قالت : قلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك .

قال ابن العربى : هذا الذى ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغي أن يعول  
 عليه . والمعنى المراد : هو أن النبى ( صلى الله عليه وسلم ) كان مخيراً فى أزواجه ،  
 إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك . لكنه كان يقسم من  
 جهة نفسه ، تطيباً لنفوس أزواجه .

وقيل كان القسم واجباً عليه ثم نسخ الوجوب بهذه الآية .

وقيل : الآية فى الطلاق . أى : تطلق من تشاء منهم وتقوى إليك من تشاء .

وقيل : المراد بالآية : الواهبات أنفسهن له ( صلى الله عليه وسلم ) .

ثم قال القرطبى : وعلى كل معنى ، فالآية معناها التوسعة على رسول  
 الله ( صلى الله عليه وسلم ) والاباحة ، وما اخترناه أصح والله أعلم ، ( ١ ) .

أى : لقد وسعنا عليك - أيها الرسول الكريم - فى معاشرتنا ،  
 فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهم ، وأن تضم إليك من شئت  
 منهم ، بدون التقيد بوجوب القسم بينهم ، كاهو الشأن بالنسبة لأتباعك ،  
 حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج فى البيوت وما يشبهها .

ومع هذا التكرم من الله - تعالى - لنبىه ، إلا أنه ( صلى الله عليه وسلم )  
 كان يقسم بينهم إلى أن لحق بربه ما عدا السيدة سودة ، فإنها قد  
 وهبت لملأها لعائشة .

أخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجي من تشاء منهم . . . ) .

فقيل لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلى فاني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً (١) .

وقوله - تعالى - : ( ومن ابتغيت من عزلتي فلا جناح عليك ) . زيادة في التوسعة عليه - صلى الله عليه وسلم - وفي ترك الأمر لإرادته وإختياره .

أي : أبخناك - أيها الرسول الكريم - أن تقسم بين نفسك ، وأن تفرك القسمة بينهم ، وأبخناك - أيضاً - أن تعود إلى طلب من إجتنبت مضاجعها إذ لا حرج عليك في كل ذلك ، بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيتك وإختيارك .

فلا ابتغاء بمعنى الطلب وعزلت بمعنى إجتنبت وإعزلت ولا تبعدت ( من ) شرطية ، وجوابها : ( فلا جناح عليك ) أي : فلا حرج ولا إثم عليك في عدم القسمة بين أزواجك ؛ وفي طلب إيواء من سبق لك أن إجتنبتها .

قال الشوكاني : والحاصل أن الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - كي يصنع مع زوجاته ما شاء ؛ من تقديم وتأخير ؛ وهزل وإمساك ، وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء في أمرهن فعل قوسمة عليه ، ونفياً للخرج عنه . . . ) (٢) .

ولاسم الإشارة في قوله : ( ذلك أدنى أن تقرأ عينهن ؛ ولا يحزنن وبرضين بما آتينهن كلن . . . ) يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وأدنى بمعنى أقرب . و ( تقرأ عينهن ) كفاية عن تقبل ما يفعله معهن برضا

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٣٧

(٢) تفسير فتح القدير ج ٦ ص ٢٩٣ .

حوار تياح نفس . يقال قرت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح لرؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون . .

وقوله : ( ولا يحزن ) معطوف على ( أن تقر ) وقوله ( ويرضين ) معطوف عليه — أيضاً — .

والمعنى ، ذلك الذي شرعناه لك من تفويض الأمر إليك في شأن أزواجك ، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن ، وأقرب إلى هدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحي من الله - تعالى - وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابعت نفوسهن سواء صويت بينهن في القسم والبيتوتة والمجاعة . . أم لم تسو .

قال القرطبي : قال قتادة وغيره : أى : ذلك التخيير الذي خيرناك في حجبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من همدنا - لا من عندك - ، لأنهن إذا علمن أن الفعل هو الله قرت أعينهن بذلك ورضين . .

وكان — عليه الصلاة والسلام — مع هذا يشدد على نفسه في رعاية النسوة بينهن ، تطيباً لقلوبهن ويقول : ( اللهم هذه قدرتي فيما أملك ، فلا تفتني فيما تملك ولا أملك ) (١) .

وقوله - سبحانه - : ( والله يعلم ما في قلوبكم ) خطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات وجمع يجمع الذكور للتغليب .

أى : والله - تعالى - يعلم ما في قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شيء ، ومن عدم الميل إلى شيء . آخر .

قال صاحب الكشف : وفي هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله - تعالى - من ذلك ، وبعت على تواطئ قلوبهن والتصافي بينهن ، والتوافق على طلب رضا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما فيه طيب نفسه (٢) .

( وكان الله ) - تعالى - ( عليما ) بكل ما تظهره القلوب وما تسمه  
 ( حليما ) حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم .  
 ثم كرم - سبحانه - أمهات المؤمنين ، بعد تكريمه لنبيه - صلى الله  
 عليه وسلم - فقال : ( لا يحل لك النساء من بعد . . ) .  
 أى : لا يحل لك ، أيها الرسول الكريم - أن تزوج بنساء أخريات من  
 بعد النسخ اللاتى فى عصمتك اليوم ، لأنهن قد اخترنك وآثرنك على زينة  
 الحياة الدنيا ، ورضين عن طيب نفس أن يعش معك وتحت رعايتك ، مهملة  
 كان فى حياتك معهن من شطف العيش ، والزهد فى متع الدنيا .  
 وقوله : ( ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت  
 يمينك ) معطوف على ما قبله .

أى : لا يحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن فى عصمتك ، كما لا يحل لك  
 - أيضاً - أن تطلق واحدة منهن وتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو أعجبك  
 جمال من تريد زواجها من غير نساءك اللاتى فى عصمتك عند نزول هذه الآية  
 فالآية الكريمة قد اشتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير  
 النسخ اللاتى كن فى عصمته عند تروها والثانى : حرمة تطليق واحدة منهن ،  
 للزواج بأخرى بدلها .

وقوله : ( بعد ) ظرف مبنى الضم الحذف المضاف إليه أى : من بعد  
 اليوم ، و ( أزواج ) مفعول به ، و ( من ) مزيدة لإستغراق الجنس . أى :  
 ولا أن تبدل بهن أزواجا أخريات مهما كان شأن هؤلاء الأخريات .  
 وجملة : ( ولو أعجبك حسنهن ) فى موضع الحال من الفاعل وهو الضمير  
 فى ( تبدل ) . أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ولا أن تبدل بهن أزواجا غيرهن  
 فى أية حالة من الأحوال ، حتى ولو فى حال إعجابك بغيرهن ، ويصح أن  
 تكون هذه الجملة شرطية ، وقد حذف جوابها لاهمها من الكلام ، ويكون  
 المعنى : ولو أعجبك حسنهن لا يحل لك نكاحهن .

وقوله : ( إلا ما ملكتم بينكم ) إستثناء من هذا الحكم . أى : لا يحل لك الزيادة عليهم ، ولا إستبدال غيرهم بهم ، ولكن يحل لك أن تضيف اليهم ما شئت من النساء اللاتي تملككن عن طريق النسي .

وهذا الذى سرنا عليه من أن الآية الكريمة فى شأن أزواجه - صلى الله عليه وسلم - هو الذى سار عليه جمهور المفسرين .

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء - كإبن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم - أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - ورضا الله عنهم على حسن صنيعهم ، فإختيارهم الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما تقدم ، فلما إختارهم رسول الله ، كان جزاؤهم أن قصره عليهم ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهم ، أو يستبدل بهم أزواجه غيرهم ، ولو أعجبه حسنهم ، إلا الإمام والسرار ، فلا حرج عليه فيهم .

ثم إنّه - سبحانه ، رفع عنه الحرج فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكنه لم يقع منه بعد ذلك زواج لغيرهم ، لتكون المنّة للرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم روى الإمام أحمد عن عائشة قالت ما مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أحل الله له النساء (١) .

ومن العلماء من يرى أن قوله - تعالى - ( من بعد ) المراد به : من بعد من أحلنا لك الزواج بهم ، وهن الأصناف الأربعة اللاتي سبق الحديث عنهم فى قوله - تعالى - يا أيها النبى إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك بما آفا الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك . . ) .

وهذا رأى الثانى وإن كان أشبه من سابقه ، إلا أننا نرجح أن الآية الكريمة مسوقة لتكريم أمهات المؤمنين اللاتي إختارهن الله ورسوله والدار

الآخرة على ما جاء فى الحديث

الريادة عليهم ، والإستبدال بهم ، هي : هانمة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية وصفية بنت حيي بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية للكرامة بقوله : د وكان الله على كل شيء رقيباً .

أى : وكان الله - تعالى - وما زال ، مطلعاً على كل شيء من أحوالكم - أيها الناس - فاحذروا أن تتجاوزوا ما حده الله - تعالى - لكم ، لأن هذا التجاوز يؤدي إلى عدم رضا الله - سبحانه - عنكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت ألواناً متعددة من مظاهر تكريم الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ومن توسعته عليه في شأن أزواجه ، وفي شأن ما أحله له من عدم التقيد في القسم بينهن ، وفي تقديم أو تأخير من شاء منهن . . .

كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريماً عظيماً ، لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

• • •

ثم ساقى السورة الكريمة بعد ذلك ألواناً من التشريعات الحكيمة ،  
والآداب الكريمة ، التى تتعلق بدخول بيوت النبى - صلى الله عليه وسلم -  
وبحقوق أزواجه - صلى الله عليه وسلم - فى حياته وبعد مماته ، وبوجوب  
احترامه وتوقيره - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا  
بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِظِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ  
إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثِ  
إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِىَّ فَيَسْتَحِىءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِىءُ مِنْ  
الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ  
لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا  
أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾  
تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهٖ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا  
بيوت النبى . . . روايات متعددة منها ، ما ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب  
أنه قال : وافقت رضى فى ثلاث . فقلت : يا رسول الله ، لو اتخفت من مقام

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ نِسَاءَكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْكَ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ . فَلَوْ حُجِبْتِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ . وَقُلْتُ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ( صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ) لِمَا تَمْلَأْنَ عَلَيْهِ فِي الْغَيْبَةِ ، عَسَى رَبُّهُ أَنْ يُلْقِيَكُمْ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ ، فَنَزَلَتْ كَذَلِكَ .

وروى البخاري عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : لما تزوج رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتميأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ( صلى الله عليه وسلم ) قام معه من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فالتقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله — تعالى — : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ... الآية .

قال ابن كثير : وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) زينب بنت جحش ، التي تولى الله — تعالى — تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة ، في قول قتادة والواقدي وغيرهما (١) .

والمراد ببُيُوتِ النَّبِيِّ : المساكن التي أعدها ( صلى الله عليه وسلم ) لسكنى أزواجه .

والإستثناء في قوله — تعالى — : « إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ

(١) راجع تفسير ابن كثير ٦ ص ٤٥٠ — ط دار الشعب

ناظرين إناؤه ، استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

وقوله : « غير ناظرين » حال من ضمير « تدخلوا » ، و « إناؤه » أى : فضجه وبأوغه الحد الذى يؤكل معه . يقال : أتى الطعام بأنى أنيا وإنى — كقلى بقلى — إذا فضج وكان معداً للأكل .

والمعنى : يا من آمنتم بالله — تعالى — حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوت النبى ( صلى الله عليه وسلم ) فى حال من الأحوال ، إلا فى حال الإذن لكم بدخولها ، من أجل حضور طعام قدعون إلى تناوله ، وليكن حضوركم فى الوقت المناسب لتناوله ، لا قبل ذلك بأن تدخلوا قبل إعداده بفترة طويلة ، منتظرين فضجه وتقديمه إليكم للأكل منه .

قالوا : وكان من عادة بعضهم فى الجاهلية أنهم يلهجون البيوت بدون استئذان ، فإذا وجدوا طعاماً يمد ، انتظروا حتى ينضج ليأكلوا منه .

فانتهى فى الآية الكريمة مخصوص بمن دخل من غير دعوة ، ومن دخل بدعوة ولكنه مكث منتظراً للطعام حتى ينضج ، دون أن تكون هناك حاجة لهذا الانتظار . أما إذا كان الدخول بدعوة ، أو لحضور طعام بدون انتظار مقصود لوقت نضجه ، فلا يتناوله النهى .

قال الألوسى : والآية على ما ذهب إليه جمع من المفسرين . خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى ( صلى الله عليه وسلم ) فيظلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، فهم مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم فى المستقبل . فالنهي مخصوص بمن دخل بغير دعوة ، وجلس منتظراً للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهى عن الدخول بإذن لغير طعام ، ولا عن الجلوس

وقوله - سبحانه - : ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، استدراك على ما فهم من النهى عن الدخول بغير إذن ، وفيه إشعار بأن الإذن متضمن معنى الدعوة .

أى : لا تدخلوا بدون إذن ، فإذا أذن لكم ودعيتم إلى الطعام فادخلوا لتناولوه وقوله - تعالى - : فإذا طعمتم فانتشروا ولا مسعا نسين لحديث ، بيان للون آخر من ألوان الآداب الحكيمة التى شرعها الإسلام فى تناول الطعام عند الغير .

أى : إذا دعيتم لحضور طعام فى بيت النبى ( صلى الله عليه وسلم ) فادخلوا ، فإذا ما انتهيتم من طعامكم عنده ، فتفرقوا ولا تمكثوا فى البيت مسعا نسين لحديث بضعكم مع بعض ، أو لحديثكم مع أهل البيت .

فقوله : مستأنسين ، مأخوذ من الأفس بمعنى السرور والارتياح للشئ . تقول : أنست ، لحديث فلان ، إذا مررت له ، وفرحت به .

وأطلق - سبحانه - تفى الاستئناس للحديث ، من غير بيان صاحب الحديث ، للإشعار بأن المسكك بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، ما دام ليس هناك من حاجة إلى هذا المكث . وهذا أدب عام لجميع المسلمين

واسم الإشارة فى قوله : : إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، يعود إلى الانتظار والاستئناس للحديث ، والدخول بغير إذن . والجملة بمثابة التعليل لما قبلها .

أى : إن ذلكم المذكور كان يؤذى النبى ( صلى الله عليه وسلم ) ويدخل الحزن على قلبه ، لأنه يتنافى مع الأدب الإسلامى الحكيم ، ولكنه ( صلى الله عليه وسلم ) كان يستحى أن يصرح لكم بذلك . لسمو خلقه ، وكأله

أدبه ، كما أنه ( صلى الله عليه وسلم ) كان يستحي أن يقول لكم كلاماً  
تدركون منه أنه يريد انصرافكم .

وقوله — تعالى — : « والله لا يستحي من الحق ، أى . والله — تعالى —  
لا يستحي من إظهار الحق ومن بيانه ، بل من شأنه — سبحانه — أن يقول  
الحق ، ولا يسكت عن ذلك .

وإذا كان الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) قد منعه حياؤه من أن يقول  
قولا تفهمون منه ضجره من بقاءكم في بيته بعد تناول طعامكم عنده ...  
فإن الله — تعالى — وهو خالقكم لا يمتنع عن بيان الحق في هذه الأمور  
وفي غيرها ، حتى تنادبوا بأدب دينه القويم . ثم ذكر — سبحانه —  
الآداب التي يجب عليهم أن يلزموها مع نساء نبيهم ( صلى الله عليه وسلم )  
فقال : « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر  
لقلوبكم وقلوبهن ... »

أى : وإذا طلبتم — أيها المؤمنون — من أزواج النبي ( صلى الله  
عليه وسلم ) شيئاً سوا ما كان هذا الشيء حسياً كالطعام أو معنوياً  
كعرفة بعض الأحكام الشرعية . . . إذا سألتموهن شيئاً من ذلك ، فليكن  
سؤالكم لهن من وراء حجاب ساتر بينكم وبينهن .

لأن سؤالكم إياهن بهذه الطريقة ، أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأبعد عن  
الوقوع في الهواجس الشيطانية التي قد تولد عن مشاهدةكم لهن ،  
ومشاهدتهن لكم .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : « وما كان لكم أن تؤذوا

أى : وما صح وما استقام لكم - أيها المؤمنون - أن تؤذوا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بأى لون من ألوان الأذى ، سواء أكان بدخول بيوته بغير إذنه ، أم بحضوركم إليها انتظاراً لنضج الطعام أم بجلوسكم بعد الأكل بدون مقتض لذلك ، أم بغير ذلك مما يتأذى به ( صلى الله عليه وسلم ) كما أنه لا يصح لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواجه من بعده ، أى : من بعد وفاته .

وإن ذلكم ، أى : إتيانه ونكاح أزواجه من بعده ، كان عند الله ، - تعالى - ذنباً عظيماً ، وإثماً جسيماً ، لا يقادر قدره .

ثم حذرهم - سبحانه - من مخالفة أمره ، بأن بين لهم بأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء ، من أمرهم ، فقال : « إن تبدوا شيئاً ، بأن تظهروه على أنفسكم أو تخفوه ، بأن تضمروه في قلوبكم ، فإنه في الحالين لا يعزب عن علمنا ، وسنحاسبكم عليه ، فإن الله ، - تعالى - « كان بكل شيء عليماً ، بحيث لا يخفى عليه شيء ، في الأرض ولا في السماء .

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة التي تسمى بآية الحجاب ، جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - وجوب الاستئذان عند دخول البيوت لتناول طعام ، ووجوب الخروج بعد تناوله إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو للبقاء . كما أن من الواجب الحضور إلى الطعام في الوقت المناسب له ، وليس قبله انتظاراً لنضجه وتقدمه .

٢ - حرمة الاختلاط بين الرجال والنساء سواء أكان ذلك في الطعام أم في غيره ، فقد أمر - سبحانه - المؤمنين ، إذا سألوا أزواج النبي

— صلى الله عليه وسلم — شيتا أن يسألوه من وراء حجاب ، وعل ذلك  
تبان سؤالهن بهذه الطريقة ، يؤدي إلى طهارة القلوب ، وعفة النفوس ،  
والبعد عن الريبة وخواطير السوء . . .

وحكم نساء المؤمنين في ذلك كحكم أمهات المؤمنين . لأن قوله - سبحانه -  
« فاكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » ، علة عامة تدل على تعميم الحكم . إذ جميع  
الرجال والنساء في كل زمان ومكان في حاجة إلى ما هو أطهر للقلوب ،  
وأعف للنفس . . .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : « فاكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن »  
قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من العقلاء ، إن غير  
أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - لا حاجة بهن إلى أطهرية قلوبهن ،  
وقلوب الرجال من الريبة منهن . . .

فالجملة الكريمة فيها الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في  
جميع النساء ، لا خاص بأمهات المؤمنين ، وإن كان أصل اللفظ خاصاً بهن ،  
لأن عموم هلته دليل على عموم الحكم فيه . . . (١) .

٣ — كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا يجوز للرجل الأجنبية أن  
يصافح امرأة أجنبية منه . ولا يجوز له أن يمسه . من بدنه شيئاً من بدنها .

واقته - تعالى - يقول : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . . . »  
فيلزمنا أن لا يصافح النساء الأجنيات اقتداء به صلى الله عليه وسلم - (٢) .

(١) راجع : أضواء البيان ، ٦٥ ص ٥٨٤ للشيخ محمد الأيد

الشفيع . . .

٤ - تـكـرـيـم الله تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم - ، ودفاعه عنه ،  
والإلام المؤمنين بالعمل على كل ما يرضيه ولا يؤذيه ، وعدم نكاح أزواجه  
من بعده أبدا . . .

\* \* \*

ثم استئنفت للسورة الكريمة بعض الأصناف الذين يجوز للمرأة أن تظهر  
أمامهم بدون حجاب ، وبينت سمو منزله رسول الله صلى الله عليه وسلم - ،  
وأكدت التحفير من إبدائه ، ومن إبداء المؤمنين والمؤمنات ، وأمرت النبي  
صلى الله عليه وسلم - أن يرشد أزواجه وبناته ونساء المؤمنين إلى وجوب  
الاحتشام في ملاسمن . . . فقال تعالى - :

لَا جُنَاحَ

عَلَيْهِمْ فِيءِ آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ  
وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَمْلَكَتٍ أَيْمَنُوهُمْ وَأَتَقِينَ اللَّهَ  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى  
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا  
مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا  
فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ  
وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى  
أَنْ يُعَرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٠﴾

قال القرطبي : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب  
لرسول الله صلى الله عليه وسلم - : ونحن أيضا نكلمهم من وراء حجاب؟  
فقلت هذه الآية : لا جناح عليهم في آباءهم ٠٠٠ (١) .

قَالَاةُ السَّكْرَةِ مَسْوُوقَةٌ لِمَا مِنْهَا لَا يَجِبُ عَلَى النِّسَاءِ أَنْ يَحْتَجِبْنَ مِنْهُ .

Made searchable using ScribeTools.com

أى : لا حرج ولا إثم على أمهات المؤمنين ولا على غيرهن من النساء ، في ترك الحجاب بالنسبة لآبائهن ، أو أبنائهن أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو نساءهن اللاتي تربطهن بهن رابطة قرابة أو صداقة ، أو ما ملكت أيمانهن من الذكور أو الإناث .

فمؤلا . يجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب ، وأن يظهروا أمامهم بدون ساتر ، وهذا لون من ألوان اليسر والمباحة في شريعة الإسلام .

ولم يذكر سبحانه - العم والحال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أبا ، كما في قوله تعالى - حكاية عن يعقوب : ( أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ، ونحن له مسلمون ) وإسماعيل كان عما ليعقوب لا أباه .

قال الجمل : وقوله : ( ولا نساقن ) أى : ولا جتأح على زوجات النبي صلى الله عليه وسلم - في عدم الاحتجاب عن نساتهن ، أى : عن النساء المسلمات وإضافتهن لهن من حيث المشاركة في الوصف ، وهو الإسلام ، وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبي الاحتجاب عنهن ، كما يجب على سائر المسلمات . أى : ما عدا ما يبدو هند الممثلة ، أما هو فلا يجب على المسلمات حجبهن وسترهن عن الكافرات ، ( ١ ) .

وشبيه هذه الآية قوله تعالى - في سورة النور : ( ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو أبناء بعولتهن . . . ) .

ثم عقب - سبحانه - هذا الترخيص والتيسير بقوله : ( وانقبن الله إن الله كان على كل شيء شهيدا ) .

والجلمة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : لقد أبحث لكن  
بامعشر النساء مخاطبة هؤلاء الأصناف بدون حجاب ، فامتثلن أمري ،  
واتقنن الله - تعالى - في كل أحوالكن ، واحرصن على العفاف والتستر  
والاحتشام ، لأن الله - تعالى - مطاع على كل ما يصدر عنكن . وسجazy  
كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم أثنى الله - تعالى - على نبيه ثناء كبير وأمر المؤمنين بأن يعظموه  
ويؤقروه فقال : ( إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا  
صلوا عليه وعلوا تسليما ) .

قال القرطبي ما ملخصه : هذه الآية شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم  
في حياته وموته ، وذكر منزلته منه ... والصلاة من الله رحمته ورضوانه ،  
ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره ...

والضمير في ( يصلون ) لله تعالى - وملائكته . وهذا قول من الله  
شرف به ملائكته ...

أو في الكلام حذف . والتقدير : إن الله صلى وملائكته يصلون ، (١) .

وقال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية الكريمة ، أن الله - تعالى -  
أخبر عباده بمنزلة عبده وأبيه عنده في الملأ الأعلى : بأنه يثنى عليه عند الملائكة  
ثم أمر الله أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه . ليجتمع الثناء عليه من  
أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا ، (٢) .

والمعنى : إن الله - تعالى - يثنى على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -

(١) نفسه القرطبي - ١٤ ص ٣٣٢ .

ويرضى عنه ، وإن الملائكة تنسى عليه - صلى الله عليه وسلم - وتدعوه بالظفر بأهل الدرجات وأسماها .

( يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ) أى : عظموه ووقروه وادعوا له بأرفع الدرجات ( وسلموا تسليما ) أى : وقولوا . السلام عليك أيها النبي : والسلام : مصدر بمعنى السلامة . أى : السلامة من النقائص والآفات ملازمة لك .

والتعبير بالجملة الاسمية في صدر الآية ، للإشعار بوجوب المداومة والاستمرار على ذلك .

وخمس المؤمنين بالتسليم ، لأن الآية وردت بعد التمسى عن إيذاء النبي - صلى الله عليه وسلم - والإيذاله - صلى الله عليه وسلم - إنما يكون من البشر .

وقد سلق المفسرون - وعلى رأسهم ابن كثير والقرطبي والالوسي - أحاديث متعددة في فضل الإكثار من الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وفي كيفية الصلاة عليه . . .

ومنها : ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن عامر بن ربيعة قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر ) .

ومنها ما رواه الشيخان وغيرهما عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت هذه الآية قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ، قال : قولوا : اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت

على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، (١) .

والآية الكريمة تدل على وجوب الصلاة والسلام على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، والمؤمنون للصادقون هم الذين يكفرون من ذلك .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واجبة أم مندوبة إليها ؟ قلت : بل واجبة ، وقد أختلفوا في حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره - صلى الله عليه وسلم - ومنهم من قال يجب في كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره .

ومنهم من أوجبها في العمر مرة ... والذي يقتضيه الاحتياط : الصلاة عليه عند كل ذكر ، لما ورد من الأخبار في ذلك .

ومنها : رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على (٢) .

ثم توعد - سبحانه - الذين يسيتون إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأى لوفى من ألوان الإساءة فقال : إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا .

والمراد بأذى الله ورسوله . ارتكاب ما يبعضان ويكرهان من الكفر والفسوق والمصيان ، ويشمل ذلك ما قاله اليهود : عزير ابن الله ، ويد الله مفلولة ، وما قاله النصارى : من أن المسيح ابن الله ، كما يشمل ما قاله الكافرون في الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أنه كاهن أو ساحر أو شاعر . .

وقيل : إن المقصود بالآية هنا : إبداء الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٤٨ وما بعدها إلى ص ٤٦٩ .

خاصة ، وذكر الله - تعالى - معه للتشريف ، وللإشارة إلى أن ما يؤذى الرسول يؤذى الله - تعالى - ، كما جعل طاعة الرسول ، طاعة لله .

قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من آذى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشئ . ، فإن من آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، ففي الحديث الشريف : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه ، (١) .

أى : إن الذين يؤذون الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - بارتكاب ما لا يرضاه من كفر أو شرك أو فسوق أو عصيان . . .

وقوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، أى : طرد الله - تعالى - هؤلاء الذين ارتكبوا الأذى من رحمته ، وأبعدهم من رضاه في الدنيا والآخرة .

« وأعد لهم » - سبحانه - في الآخرة « عذابا مهينا ، أى : عذابا يهينهم ، ويحجلهم محل الاحتقار والإزدراء من غيرهم .

وبعد هذا الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله ، جاء وعيد آخر لمن آذى المؤمنين والمؤمنات ، فقال - تعالى - : « الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » .

أى : والذين يرتكبون في حق المؤمنين والمؤمنات ما يؤذيهم في أعراضهم أو في أنفسهم أو في غير ذلك مما يتعلق بهم ، دون أن يكون المؤمنون أو المؤمنات قد فعلوا ما يوجب أذاهم . . .

« فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ، أي : فقد ارتكبوا إثما شنيعا ، وفعلوا قبيحا ، وذنبا ظاهرا بينا ، بسبب إيمانهم للمؤمنين والمؤمنات .

وقال - سبحانه - هنا : بهير ما اكتسبوا ، ولم يقل ذلك في الآية السابقة عليها ، لأن الناس بطبيعتهم يدفع بعضهم بعضا ، ويعتدي بعضهم على بعض ، ويؤذي بعضهم بعضا ، أما الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فلا يتصور منهما ذلك .

وجمع - سبحانه - في ذمهم بين البهتان والإثم المبين ، للدلالة على فظاعة ما ارتكبوه في حق المؤمنين والمؤمنات ، إذ البهتان هو الكذب الصريح الذي لا تقبله العقول ، بل يهجرها ويدعشها لعدته وبعده عن الحقيقة .

والإثم المبين : هو الذنب العظيم الظاهر البين ، الذي لا يخفى قبحه على أحد .

روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لأصحابه . أي الربا أربي عند الله ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أربي الربا عند الله ، استحلل عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين عامة ، بالاحتشام والتستر في ملابسهن فقال - تعالى - : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن . . . . . »

قال الألوسي : روى عن غير واحد أنه كانت الحرة والأمة ، تخرجان ليلاً اقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل ، من غير تمييز بين الحرائر والإماء وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء ، وربما تعرضوا للحرائر فإذا قيل لهم قالوا : حسبنا من إماء ، فأمر به الحرائر أن يخالفن الإماء في الزى والنسرة فلا يطمع فيهن . . . (١) .

وقوله : « يدنين » من الإدفاء بمعنى التقريب ، واتضمنه معنى السدل والإرخاء عدى يعلى . وهو جواب للأمر ، كما في قوله — تعالى — : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة . . . » .

والجلايب : جمع جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن ، قلبسه المرأة ، فوق ثيابها .

والمعنى : يا أيها النبى قل لأزواجك اللاتى في عصمتك ، وقل لبناتك اللاتى هن من نسلك ، وقل لنساء المؤمنين كافة ، قل لهن : إذا ما خرجن لاقضاء حاجتهن ، فعليهن أن يسدلن الجلايب عليهن ، حتى يستقرن أجسامهن سترأ تاماً ، من ردوسهن إلى أفدامهن ، زيادة في النستر والاحتشام ، وبعداً عن مكان النهمة والريبة .

قالت أم سلمة — رضى الله عنها — : لما نزلت هذه الآية ، خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها وقوله : « ذلك أدنى أن يعرفن » فلا يؤذين ، بيان للمحكمة من الأمر بالنستر والاحتشام .

أى : ذلك النستر والاحتشام والإدفاء عليهن من جلابيبهن يجعلهن أدنى وأقرب إلى أن يعرفن ويميزن عن غيرهن من الإماء ، فلا يؤذين من جهة من في قلوبهم مرض .

قال بعض العلماء : وقد يقال إن تأويل الآية على هذا الوجه ، وقصرها على الحرائر ، قد يفهم منه أن الشارع قد أهمل أمر الاماء ، ولم يبال بما ينالهن من الإيذاء عن ضعف إيمانهم ، مع أن في ذلك من الفتنة ما فيه ، فملا كان التصون والتستر وما في جميع النساء ؟

والجواب ، أن الاماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددن في الأسواق ، فإذا كلفن أن يتقنن ويلبسن الجلباب السابغ كلها خرجن ، كان في ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر فإنهن مأمورات بعدم الخروج من البيوت إلا لضرورة ومع ذلك فإن القرآن الكريم قد نهى عن إيذاء المؤمنات جميعاً ، سواء الحرائر والإماء ، وتوعد المؤذين بالمطاب المميين . . . والشارع - أيضاً - لم يحظر على الإماء التستر والتفتيح ولكنه لم يكلفهن بذلك دفعا للحرج والعسر ، فللأمانة أن تلبس الجلباب السابغ متى نيسر لها ذلك . . . (١) .

هذا ، ويرى الامام أبو حيان أن الأرجح أن المراد بنساء المؤمنين ، ما يشمل الحرائر والإماء وأن الأمر بالتستر يشمل الجميع ، وأن الحكمة من وراء هذا الأمر بإسدال الجلابيب عليهن ، درء التعرض لهن بسوء من ضعاف الإيمان .

فقد قال رحمه الله : وللظاهر أن قوله : « ونساء المؤمنين » يشمل الحرائر والاماء ، والفتنة بالاماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج لإخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح . . . ذلك أدنى أن يعرفن ، لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ، ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها (٢) .

(١) تفسير آيات الأحكام - ٤ ص ٣٥ للشيخ محمد علي السائس

Made searchable using ScribeTools.com

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٧ ص ٢٥٠

ويبدو لنا أن هذا الرأي الذي اتجه إليه أبو حيان - رحمه الله -  
أولى بالقبول من غيره ، لتشبهه مع شريعة الإسلام التي تدهو جميع النساء  
إلى التستر والعفاف .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : **وكان الله غفورا رحيمًا ، أي :**  
**كان الله - تعالى - وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه توبة**  
**صادقة بما وقع فيه من أخطاء وسيئات .**

. . .

ثم هــرد - سبحانه - المنافقين وأشباههم بسوء المصير ، إذ  
ما استمروا في إيذائهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين  
والمؤمنات ، وبين - عز وجل - أن وقت قيام الساعة مرد عليه لإيـسه  
وحده ، وأن الكافرين عند قيامها سيندمون ولكن ينفعهم الندم .

فقال - تعالى - :

لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ  
 الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ  
 لِنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٥﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا  
 تَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦٦﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ  
 وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٧﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا  
 عَلَيْهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٨﴾ إِنَّ اللَّهَ  
 لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ  
 وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا  
 أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٧١﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا  
 وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٧٢﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ  
 وَالْعَنُّهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٧٣﴾

والمنافقون : جمع منافق ، وهو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر .

والذين في قلوبهم مرض : هم قوم ضعاف الإيمان ، قليلو النباهة

Made searchable using ScribeTools.com

والمرجفون في المدينة : هم الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين

ويلقون الأكاذيب الضارة بهم ويذيعونها بين الناس . وأصل الإرجاف :  
الحريك الشديد للشيء . ، مأخوذ من الرجفة التي هي الزلولة . ووصف به  
الأخبار المكاذبة ، لكونها في ذاتها منزلة غير ثابتة ، أو لإحداثها  
الاضطراب في قلوب الناس .

وقد سار بعض المفسرين ، على أن هذه الأوصاف الثلاثة ، كل وصف  
منها لطائفة معينة ، وسار آخرون على أن هذه الأوصاف لطائفة واحدة  
هي طائفة المنافقين ، وأن العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات .

قال القرطبي : قوله : « الذين لم يثبتته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ،  
والمرجعون في المدينة » . . . أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء  
واحد . . . والواو مقحمة كما في قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم  
أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتبية .

وقيل : كان منهم قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للرغبة ، وقوم  
يشككون المسلمين . . . (١) .

وقد سار صاحب الكشف على أن هذه الأوصاف لطوائف متعددة  
من الفاسقين ، فقال : « والذين في قلوبهم مرض ، قوم كان فيهم ضعف  
إيمان ، وقلة ثبات عليه .

« والمرجعون في المدينة ، فاس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا  
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقولون : هزموا وقتلوا وجرى  
عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين .

والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عدائكم وكيدكم ، والفسقة عن فجورهم والمرجعون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم وتموءهم (١) .

وقوله : « لنغرينك بهم » جواب القسم . أى : لنسلطنك عليهم فنستأصلهم بالقتل والنشر يد ، يقال : أغرى فلان فلانا بكذا ، إذا حرصه على فعله .

وقوله : « ثم لا يحاورونك فيها إلا قليلا » معطوف على جواب القسم أى : لنغرينك بهم ثم لا يبقون بعد ذلك مجاورين لك فيها إلا زمانا قليلا يرتحلون بعده بعيداً عنكم ، لكي تبتعدوا عن شرورهم .

وجاء العطف بشم في قوله : « ثم لا يحاورونك » للإشارة إلى أن إجلادهم عن المدينة نعمة عظيمة بالنسبة للمؤمنين ، ونقمة كبيرة بالنسبة لهُؤلاء المنافقين وأشباههم ، وقوله : « ملعونين أينما ثقفوا » أى : مطرودين من رحمة الله — تعالى — ومن فضله ، أينما وجدوا وظفر بهم المؤمنون .

و « ملعونين » منصوب على الحال من فاعل « يحاورونك » و « ثقفوا » بمعنى وجدوا . تقول . ثقت الرجل في الحرب أثقفه ، إذا أدركته وظفرت به .

وقوله : « أخذوا وقتلوا ثقتيلا » بيان لما يحيق بهم من عقوبات عند الظفر بهم أى : هم ملعونون ومطرودون من رحمة الله بسبب سوء أفعالهم ، فإذا ما أدركوا وظفر بهم ، أخذوا أسارى أذلاء ، وقتلوا ثقتيلا شديداً ، وهذا حكم الله — تعالى — فيهم حتى يقلعوا عن تفاقمهم وإشاعتهم قالة السوء في المؤمنين ، وإيذائهم للمسلمين والمسلمات .

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد اقتضت تأديب الفجار والفسقة حتى

يقاموا عن فجورهم وفسقهم فقال : « سنة الله في الدين خلوا من قبل ، .. »  
 وقوله : « سنة ، منصوب على أنه مصدر مؤكد ، أى : سن الله - تعالى -  
 ذلك سنة ، في الأمم الماضية من قبلكم - أيها المؤمنون - بأن جعل  
 تأديب الذين يسعون في الأرض بالفساد ، ويؤذون أهل الحق ، سنة من  
 سنته التي لا تتخلف .

« ولن تجد ، - أيها الرسول الكريم - لسنة الله ، الماضية في خلقه  
 « عبديلا ، أو تحويلا ، لقيامها على الإرادة الحكيمة ، والعدالة القوية .

ثم بين - سبحانه - أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو فقال :  
 « يسألوك الناس عن الساعة ، قل إنما علمها عند الله ، وما يدريك لعل  
 الساعة تكون قريبا ، .

والسائلون هنا قيل هم اليهود ، وسؤالهم عنها كان بقصد التعنت  
 والإساءة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - .

أى : يسألك اليهود وأشباههم في الكفر والتفارق عن وقت قيام الساعة  
 على سبيل التعنت والإمتحان لك .

« قل ، لهم - أيها الرسول الكريم - « إنما ، علم وقت قيامها عند  
 الله - تعالى - وحده ، دون أى أحد سواه .

« وما يدريك ، أى : وما يعلمك « لعل الساعة تكون قريبا ، أى :  
 لعل قيامها وحصولها يتحقق في وقت قريب ، ولكن هذا الوقت مهما  
 قرب لا يعلمه إلا علام الغيوب - سبحانه - .

ولقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « بعثت أنا والساعة  
 كهاتين ، ويهير إلى أصبعيه السبابة والوسطى .

ثم بين - تعالى - ما أعدّه للكافرين من عقاب فقال : **« إن الله آمن بالكافرين ، بأن طردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته . »**  
**« وأعد لهم ، فوق ذلك في الآخرة سعيراً ، أى : ناراً شديدة الاشتعال حوالا تقاد . »**

**« خالدون فيها أبداً ، أى : خالدون فيها خلوداً أبدياً لا خروج لهم منها »**  
**« لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، أى لا يجدون من يحول بينهم وبين الدخول في هذه النار المسعرة ، كما لا يجدون من يخلصهم من عذابها سوى سعيهم . »**

ثم بين - سبحانه - حسراتهم عندما يحل بهم العذاب في الآخرة فقال :  
**« يوم تقلب وجوههم في النار ، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولاً . »**  
**« يوم ، ظرفه لعدم الوجدان لمن يدافع عنهم أو ينصرهم . أى : لا يجدون من يدفع عنهم العذاب ، يوم تقلب وجوههم في النار تارة إلى جهة ، وتارة إلى جهة أخرى ، كما يقلب اللحم عند شوائه . »**

**« حينئذ يقولون على سبيل التضرع والتفجع : يا ليتنا أطعنا الله - تعالى - فيما أمرنا به ، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من عند ربه . »**

قال صاحب الكشاف : وقوله : **« تقلب »** بمعنى تقلب ، ومعنى تقلبها : تصرّفها في الجهات ، كما ترى البيضة تدور في القدر إذا غلت ، فتراعى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو تغيرها عن أحوالها وتحولها عن هيئاتها ، أو طرحها في النار مقلوبة منكوسة .

وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجمله (١) .

وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا ، أى : وقال هؤلاء الكافرون - بعد هذا التحسر والتفجع - يا ربنا إنا أطعنا في الدنيا سادتنا وكبراءنا ، أى : ملوكنا ورؤسائنا وزعماءنا ، فجعلونا في ضلال من الصراط المستقيم ، وعن السبيل الحق .

« ربنا آتهم ضعفين من العذاب ، أى : يا ربنا أنزل بهؤلاء العادات والكبراء عذابا مضاعفا ، بسبب ضلالهم في أنفسهم ، وبسبب إضلالهم لغيرهم .

« والعنهم لعنا كبيرا ، أى وأطردهم من رحمتك ، وأبعدهم عن مغفرتك ، إبعادا شديدا عظيما ، فهم الذين كانوا سببا لنا في هذا العذاب المهيئ الذي نزل بنا ،

وهكذا نرى الآيات الكريمة ، تصور لنا أحوال الكافرين في الآخرة . هذا التصور المؤثر ، أيهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

...

وبعد أن فصلت السورة الكريمة ما فصلت من أحكام ، وأرشدت إلى ما أرشدت من آداب ، وقصت ما قصت من أحداث ... بعد كل ذلك وجهت في أواخرها نداءين إلى المؤمنين ، أمرتهم فيهما بتقوى الله تعالى - وبالاقتداء بالأخيار من عباده ، وباجتناب سلوك الأشرار ، كاذكرتهم بشغل الأمانة التي رضوا بعملها ، وبحسن طاعة الصالحين وسوء عاقبة المفسدين - قال - تعالى - :

يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيُؤْتِيَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ إِنَّهُمْ لَكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾  
 إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَدْعُكُمُ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٧﴾  
 يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيُؤْتِيَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ إِنَّهُمْ لَكَاذِبِينَ ﴿٦٨﴾  
 أَفَعَمَلِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٦٩﴾  
 إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ  
 كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٠﴾  
 لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ  
 وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧١﴾

والمراد بالذين آذوا موسى - عليه السلام - في قوله - تعالى - :  
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَذْكُرُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى... قومه الذين أرسله  
 الله إليهم .

فقد حكي القرآن الكريم ألوانا من إيذائهم له ، ومن ذلك قولهم له :  
 يَا هُوسَ أَهْمَلِ لَنَا إِلَٰهًا كَالِهَةِ... وقولهم : دَلَّيْ نَزَّاهُكَ حَتَّى

وقولهم : « ان نصبر على طعام واحد . . . » واتخاذهم للمجلدات من دون الله في غيبة نبيهم موسى . — عليه السلام — . . .

ومن إيذائهم له — عليه السلام — ما رواه الإمام البخاري والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ان موسى كان رجلاً حياً مستيراً لا يرى من جلده شيء ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، وقالوا : ما يستتر هذا السر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما آفة . وإن الله — تعالى — أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوماً وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل أهل ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بشوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملا بني إسرائيل ، فرأوه عرباناً أحسن ما خلق الله — تعالى — ، وأبرأه الله — تعالى — عما يقولون . . . فذلك قوله — تعالى — « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى . . . » (١) .

والمعنى : يا من آمنتم بالله — تعالى — حق الإيمان ، اتزموا الأدب والطاعة والاحترام لنبيكم — صلى الله عليه وسلم — ، واحذروا أن تسلكوا معه المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل مع نبيهم موسى — عليه السلام — حيث آذوه بشتى أنواع الأذى .

« فبرأه الله مما قالوا ، أي : فأظهر الله — تعالى — براءته من كل ما نسبوه إليه من سوء .

« وكان عند الله وحيداً ، أي : وكان عند الله — تعالى — ذا جاه

عظيم ، ومكافئة سامية ، ومنولة عالية ، حيث نصره — سبحانه — عليهم واصطفاه لخل رسالته . . .

يقال : وجه الرجل بوجه وجاهة فهو وجهه ، إذا كان ذا جاه وقدر .

ثم أمرهم — سبحانه — بمراقبته وبالخوف منه ، بعد أن نهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في إيدائهم لأنبيهم فقال : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ** وقولوا قولاً سديداً . . . .

والقول السديد : هو القول الصادق الصحيح الخالى من كل انحراف الحق والصواب ، مأخوذ من قولك : سدد فلان سهمه بسدده ، إذا وجهه بإحكام إلى المرمى الذى يقصده فأصابه . ومنه قولهم : سهم قاصد . إذا أصاب الهدف .

أى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ** وراقبوه وخافوه فى كل ما تأتون وما تذكرون ، وفى كل ما تقولون وما تفعلون ، وقولوا قولاً كله الصدق والصواب .

فإنكم إن فعلتم ذلك ، يصلح ، الله — تعالى — لكم أعمالكم . بأن يجعلها مقبولة عنده ، ويغفر لكم ذنوبكم ، التى فرطت منكم ، بأن يحوها عندكم ببركة استقامتكم فى أقوالكم وأفعالكم .

ومن بطع الله ورسوله ، فى كل الأقوال والأعمال ، فقد فاز ، فى الدارين

، فوزاً عظيماً ، لا يقادر قدره ، ولا يعلم أحد كنهه وعلو منزلته .

ثم بين — سبحانه — طخامة النعمة التى حلها الإنسان فقال : **وَلَا تُلَاحِظُوا**

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

Made searchable using ScribeTools.com

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

وأرجع الأقوال وأجمعها في المراد بالأمانة هنا : أيها التكاليـف  
والفرائض الشرعية التي كلف الله — تعالى — بها عباده ، من إخلاص في  
العبادة ، ومن أداء للمعاهدات ، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعاره  
وسننه .

وسمى — سبحانه — ما كلفنا به أمانة ، لأن هذه التكاليـف حقوق  
أمرنا — سبحانه — بها ، وأنمنا عليها ، وأرجب علينا مراعاتها والمحافظة  
عليها ، وأدائها بدون إخلال بشيء منها .

والمراد بالإنسان : آدم — عليه السلام — ، أو جنس الإنسان .

والمراد بحمله إياها : تقبله لحمل هذه التكاليـف والأوامر والنواهي مع  
ثقلها وضخامتها .

والعلماء في تفسير هذه الآية لإتجاهات ، فمنهم من يرى أن الكلام على  
حقيقته ، وأن — تعالى — قد عرض هذه التكاليـف الشرعية المعبر عنها  
بالأمانة ، على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، أثقلنا  
وضخامتها ، وأشفقن منها ، أي : وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لمن  
من ذلك ما يؤدي بهن إلى عذاب الله وسخطه بسبب التقصير في أداء  
ما كلفن بأدائه .

وحملها الإنسان ، أي : وقبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها  
عليه ، بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها ، وأشفقن منها .

وله أنه كان ظلوما جهولا ، أي : لأنه كان مفرطا في ظلمه لنفسه ومبالغا  
في الجهل ، لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعا بأداء ما كلفهم الله  
— تعالى — بأدائه ، وإنما منهم من أدامها على وجهها — وهم الآقون — ومنهم  
من لم يؤدها ، وإنما عصى ما أمر به ربه ، وخان الأمانة التي التزم بأدائها .

الضمير في قوله : إنه ، يعود على بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم  
تالذين لم يؤدوا حقوق هذه الأمانة التي التزموا بحملها .

قال الألوسي : : إنه كان ظلوما جمولا ، أى : بحسب غالب أفراد  
الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ، دون من عدام من الذين لم يبدلوا  
خطرة الله ويكفى في صدق المحكم على الجنس بشئ . وجوده في بعض  
أفراده ، فضلا عن وجوده في غالبها . . . . (١) .

وقال بعض العلماء : ورجوع للضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار للمعنى  
التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن .

وقد جاء فعلا في آية من كتاب الله ، وهي — تعالى — : وما يعمر  
من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب الله . . . ، لأن الضمير في  
قوله : ولا ينقص من عمره ، راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلي ،  
كما هو ظاهر .

وهذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة : هندی درم  
ونصفه . أى : ونصف درم آخر (٢) .

وأصحاب هذا الاتجاه يقولون : لا مانع إطلاقا من أن يخلق الله  
— تعالى — إدراكا ونطقا للسموات والأرض والجبال ، واسكن هذا  
الإدراك والنطق لا يعلمه إلا هو — سبحانه — .

وما يشهد لذلك قوله — تعالى — : تسبح له السموات السبع والأرض

ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ،  
إنه كان حليماً غفوراً ، (١) .

قال الجمل : وكان هذا العرض عليهن — أى على السموات والأرض  
والجبال تغييراً لا إلزاماً ، ولو أُرْمِنَ لم يمتنعن عن حملها ، والجمادات كلها  
خاضعة لله — تعالى — مطيعة لأمره ساجدة له .

قال بعض أهل العلم : ركب الله — تعالى — فيهن العقل والفهم حين  
عرض عليهن الأمانة ، حتى عقلن الخطاب ، وأجبن بما أجبن ، (٣) .

ويرى بعضهم أن العرض في الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل ،  
أو من قبيل المجاز .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : لما بين - تعالى - في هذه السورة من  
الأحكام ما بين ، أمر بالتزام أوامره ، والأمانة نعم جميع وظائف الدين ،  
على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور .

ويصح أن يكون عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال على  
سبيل الحقيقة . .

وقال القفال وغيره : العرض ، في هذه الآية ضرب مثل ، أى : أن  
السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجول  
على كتيفها ، لثقل عليها ثقل الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب .

أى : أن التكليف أمر حقه أن تعجز هذه السموات والأرض والجبال .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٥٨

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٤

وقد حله الإقصاف وهو ظلم جهول لو عقل ، وهذا كقوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيت خاشعا متصدعا من خشيته الله . . . »

وقال قوم : إن الآية من المجاز ؛ أى : أنا إذا قابلنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تسكنت لأبت وأشفت ، فعبّر عن هذا بعرض الأمانة . كما نقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد : قاومت قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه . . .

وقيل : « عرضنا » بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال ، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . . . (١) .

ويبدو لنا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول ، لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .

وما لا شك فيه أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تخلق في السموات والأرض والجبال إدراكا وتمييزا ونطقا لا يعطيه إلا هو - سبحانه - .

واللام في قوله - سبحانه - : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات . . . » متعلقة بقوله : « وحملها الإنسان . . . »

أى : وحملها الإنسان ليعذب الله - تعالى - بعض أفراد الذين لم يراعوها ولم يؤدوا ما التزموا بحمله وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركا . ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، أى : ويقبل الله

— تعالى — ثوبة المؤمنين والمؤمنات ، بأن يكفر عنهم سيئاتهم  
وخطاياهم .

«وكان، الله — تعالى — وما زال غفوراً رحيمًا، أى : واسع المغفرة  
والرحمة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم انتهى .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة ( الاحزاب ) تعالى الله — تعالى — أن  
يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة — مدينة نصر

كتبه للراجى عفوره

حصاء الخميس : ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ

محمد سيد طنطاوى

٦ - ٦ - ١٩٨٥ م

| رقم الآية | الآية المفسرة                     | رقم الصفحة |
|-----------|-----------------------------------|------------|
|           | المقدمة                           | ٥          |
| ١         | يأيها النبى اتق الله ...          | ١٣         |
| ٤         | ما جعل الله لرجل من قلبين ...     | ١٥         |
| ٦         | النبى أولى بالمؤمنين ...          | ٢٠         |
| ٧         | وإذا أخذنا من النبيين ...         | ٢٥         |
| ٩         | يأيها الذين آمنوا اذكروا ...      | ٢٨         |
| ١٦        | قل إن ينزعكم الفرار ...           | ٣٦         |
| ٢١        | لقد كان لكم فى رسول الله ...      | ٤٣         |
| ٢٨        | يأيها النبى قل لأزواجك ...        | ٥٣         |
| ٣٠        | يا نساء النبى من بات منكن ...     | ٥٧         |
| ٣٥        | إن المسلمين والمسلمات ...         | ٦٧         |
| ٣٦        | وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ...       | ٦٩         |
| ٤١        | يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ... | ٨٠         |
| ٤٥        | يأيها النبى إنا أرسلناك ...       | ٨٤         |
| ٤٩        | يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم ...   | ٨٧         |
| ٥٠        | يأيها النبى إنا أحلنا لك ...      | ٩٠         |
| ٥٣        | يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا ...   | ١٠٣        |
| ٥٥        | لا جراح عليهن فى آبائهن ...       | ١٠٨        |
| ٦٠        | لئن لم ينته المنافقون ...         | ١١٧        |
| ٦٩        | يأيها الذين آمنوا لا تكونوا ...   | ١٢٣        |



التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

تفسير  
سورة سكبأ

الدكتور  
محمد سيد طنطاوي  
مفتي الديار المصرية



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة وتمهيد.

١ - سورة « سبأ » ، هي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب المصحف ،  
أما في ترتيب النزول فهي السورة السابعة والخسون ، وكان نزولها بعد  
سورة « لقمان » .

٢ - وسورة « سبأ » ، من السور المسكية الخاصة ، وقيل هي مكية إلا  
الآية السادسة منها وهي قوله - تعالى - : « ويرى الذين أوتوا العلم الذي  
أنزل إليك من ربك هو الحق ..... » .

٣ - وعدد آياتها خمس وخمسون آية في المصحف الشامي ، وأربع  
وخمسون آية في غيره . وسميت بهذا الإسم ، لإشتغالها على قصة أدل سبأ ، وما  
أصابهم من نقم بسبب عدم شكرهم لنعم الله - تعالى - عليهم .

٤ - وتبدأ سورة « سبأ » ، بالثناء على الله - تعالى - : « الحمد لله الذي له  
ما في السموات وما في الأرض ، وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير  
يعلم ما يلج في الأرض وما يفرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها  
وهو الرحيم الغفور » .

ثم تحكي السورة الكريمة جانباً من أقوال الكافرين في تكذيبهم ليوم  
القيامة ، كما تحكي - أيضاً - بعض أقوالهم الباطلة التي قالوها في شأن النبي  
صلى الله عليه وسلم - ثم ترد عليهم بما يجرس ألسنتهم .

( م . س . ب )

• - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة داود وسليمان - عليهما السلام - ، فتحكي ما أقام الله - تعالى - لإياه من خير وقوة وكيف أنهما قابلا نعم الله - تعالى - بالشكر والطاعة ، فزادهما - سبحانه - من فضله وعظائه : « إعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور ، .

وكعادة القرآن الكريم في جمعه بين الترغيب والترهيب ، وبين بيان حسن عاقبة الشاكرين ، وسوء عاقبة الجاحدين . . . جاءت في أعقاب قصة داود وسليمان - عليهما السلام - قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلو نعم الله الوفيرة بالجحود والإعراض ، فحقها - سبحانه - من بين أيديهم ، كما قال - تعالى - : « ذلك جزيناكم بما كنتموا ، وهل نجازي إلا الكفور . . . . .

٦ - ثم ساقَت السورة بعد ذلك بأسلوب تلقيني ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى وجوب إخلاص العباد له .

نرى ذلك في قوله - تعالى - : « قل إلهوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . . .

وفي قوله - تعالى - : « قل من يرزقكم من السموات والأرض . . .

وفي قوله - عز وجل - : « قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ، كلا بل هو الله العزيز الحكيم ، .

٧ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا . . . . .

وعن أحوال الكافرين السيئة عندما يقفون أمام ربهم للحساب ، وكيف أن كل فريق منهم يلقي التبعة على غيره ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استكبروا الذين استكبروا

لولا أتم لكننا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أمن صدنا كم  
من الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين : . .

٨ - ثم نرد السورة الكريمة على أولئك المفرين ، الذين دعوا أن  
أموالهم وأولادهم ستنفقهم يوم القيامة . فتقرر أن ما ينفع يوم القيامة إنما  
هو الإيمان والعمل الصالح . وأن الله - تعالى - هو صاحب الاعطاء والمنع  
والاغناء والافقار .

قال - تعالى - : وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين  
قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ولكن أكثر الناس لا يعلمون .  
وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحا ،  
فأولئك لهم جوار الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون ، .

٩ - وبعد أن ساقّت السورة مساقّت من شبهات المشركين حول دعوة  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - وردت عليهم بما يزيد المؤمنين نباتا على  
نباتهم ، ويقينا على يقينهم ، أتبعّت ذلك بدعوة هؤلاء الكافرين إلى التفكير  
والتدبر على أفراد ، فى شأن دعوة هذا الرسول الكريم الذى يدعوهم الحق  
لعل هذا التفكير يهديهم إلى الرشـد .

قال - تعالى - : قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفردى  
ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب  
شديد . . . . .

ثم ختمت السورة الكريمة بتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى  
كفرهم وهنادهم ، وأنهم سيندمون - إذا ما استمروا على كفرهم - وأن  
ينفعهم الندم .

١٠ - وهكذا ترى سورة سجا قد سافت الخواص من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه . . . . كما أنها حكمت شجيات للبشر كين ، وردت عليهم بما يطلبها . والحمد لله حمد أكثر وأوصله الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة - مدينة نصر

مساء الخميس ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٧٥ / ٦ / ٦

قال الله تعالى :

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ  
 فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ  
 وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ  
 الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي  
 لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا  
 فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾  
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
 وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ  
 عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾

افتتحت سورة دسبأ ، بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين ، وهي أنه  
 المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .  
 والحمد : هو الثناء . باللسان على الجليل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .  
 ودال ، في الحمد للاستفراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، وإكافه

Made searchable using ScribeTools.com

ما يستحق أن يقابل بالثناء ، فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، هو في الحقيقة حمده - تعالى - ، لأنه - سبحانه - هو الذي وفقهم لذلك ، وأطعمهم عليه .

وقد اختار - سبحانه - افتتاح هذه السورة بصفة الحمد ، دون المدح أو الشكر ، لأنه وسط بينهما ، إذ المدح أعم من الحمد ، لأن المدح يكون للماثل وغيره ، فقد يمدح الإنسان لعقله ، وتمدح المؤلفوة بجلالها ، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للمماثل المختار على ما يصدر عنه من إحسان .

والحمد أخص من الشكر ، لأن الشكر يكون من أجل نعمة وصلت إليك أما الحمد فيكون من أجل نعمة وصلت إليك أو إلى غيرك (١) .

وفي القرآن الكريم خمس سور اشتركت في الافتتاح بقوله - تعالى : الحمد لله . وهي سورة الفاتحة ، والأنعام والكهف ، وسبا ، وقاطر .

ولكن لكل سورة من هذه السور ، منهج خاص في بيان أسباب أن الحمد لله - تعالى - وحده .

وقد أحسن القرطبي - رحمه الله - عند ما قال : فإن قيل : قد افتتح غيرها أي : سورة الأنعام - بالحمد لله ، فكان الاجتزاء بواحدة يقضى عن سائر ؟ فالجواب أن لكل واحدة منه معنى في موضعه ، لا يؤدي عن غيره ، من أجل عهده بالنعمة المختلفة ، و - أيضاً - فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون ، (٢) .

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٢٨

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٨٤ . وراجع تفسيرنا لسورة

الأنعام ص ٢٩

والمعنى : الحمد الكامل الشامل لله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذي له ما في السموات وما في الأرض ، خلقا وملكا ونصرا ، بحيث لا يخرج شيء فيهما من إرادته ومشئته .

وقوله : « وله الحمد في الآخرة » ، تنبيه إلى أن حمده - عز وجل - ليس مقصورا على الدنيا ، بل يشمل الدنيا والآخرة .

فالؤمنون يحمّدونه في الدنيا على ما وهبهم من نعم الإيمان والإحسان ، ويحمّدونه في الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السموات والأرض ، ويقولون : « الحمد لله الذي صدّقنا وعده » . وأوتينا الأرض نقبراً من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، (١) .

قال صاحب الكشاف : ولما قال - سبحانه - : « الحمد لله » ، ثم وصف ذاته بالإينعام بجميع النعم الدنيوية ، كان معناه : أنه المحمود على نعم الدنيا ؛ تقول أحمد أخاك الذي كساك وحملك : تريد : أحمدته على كسوته وحملانه . ولما قال : « وله الحمد في الآخرة » ، علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب ... ، (٢) .

وقال الألوسي : والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل ، أن الأول على نهج العبادة ، والثاني على وجه التلذذ والاختياط - وقد ورد في الخبر أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كل يلهمون النفس ، (٣) . وقال الجبل : فإن قلت : الحمد مدح للنفس ، ومدحها مستفتح فيما بين الخلق ، فما وجه ذلك ؟

فالجواب : أن هذا المدح دليل على أن حاله - تعالى - بخلاف حال

(١) سورة الزمر - الآية ٧٥ (٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٦١

للخلق ، وأنه يحسن منه ما يقيع من الخلق ، وذلك يدل على أنه — تعالى —  
مقدس أن تقاس أفعاله ، على أفعال العباد ... (٢) .

ثم ختم — سبحانه — الآية بقوله : « وهو الحكيم الخبير ، أى : وهو —  
تعالى — الذى أحكم أمور الدارين ، ودبرها بحكمته ، وهو العظيم بطواهـ  
عباده وبواطنهم ، لا يخفى عليه شئ من أحوالهم .

ثم فصل — سبحانه — بعض مظاهر علمه فقال : « يعلم ما يلج في  
الأرض ، والولوج الدخول . يقال : واج فلان منزله ، فهو يلجه ولجا  
ولوجا ، إذا دخله .

أى : أنه — سبحانه — يعلم ما يلج في الأرض وما يدخل فيها من ماء نازل من  
السماء ، ومن جواهر دفنت في طبيعتها ، ومن بذور ومعادن في جوفها ...  
ويعلم — أيضا — « ما يخرج منها ، من نبات وحبوب وكنوز وغير  
ذلك من أنواع الخيرات .

ويعلم كذلك « ما ينزل من السماء ، من أمطار ، وثلوج ، وبرد ،  
وصواعق ، وبركات ، من عنده — تعالى — لأهل الأرض .

« وما يهرح فيها ، أى : ويعلم ما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة ،  
كما قال — تعالى — : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرضه .

وهى العروج بنى لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعدى  
يالى قال — تعالى — يردعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره  
خمسين ألف سنة .

وقوله : « يعرج ، من العروج ، وهو الذهاب فى صعود ، والسماء : جهة  
العلو مطلقا .

« وهو الرحيم الغفور ، أى : وهو — سبحانه — صاحب الرحمة  
الواسعة والمغفرة العظيمة ، لمن يشاء من عباده .

وعنه الآية الكريمة - مع وجازة ألفاظها - تصور تصويرا بديعا معجرا ،  
مظاهر علم الله - تعالى - ، ولو أن أهل الأرض جميعا حاولوا إحصاء ،  
ما باج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يُعرج فيها ، لما  
استطاعوا أن يصلوا إلى إحصاء بعض تلك الحشود من خلق الله - تعالى -  
في أرضه أو سمائه .

ولكن هذه الحشود العجيبة في حركاتها ، وأحجامها ، وأنواعها وأجسامها  
وصورها ، وأحوالها .. قد أحصاها علم الله - تعالى - الذي لا يخفى عليه شيء .  
ثم حكى - سبحانه - ما قاله الكافرون في شأن يوم القيامة فقال - تعالى - :  
« وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ... » .

أى : وقال الذين كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لا تأتينا  
الساعة بهال من الأحوال ، وإنما نحن نموت ونحيا وما يملكننا إلا الدهر ،  
وإذا متنا فإن الأرض تأكل أجسادنا ، ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى .  
ومبروا عن إنكارهم لها بقولهم : « لا تأتينا الساعة ، مبالغة في نفيا نفيا  
كلها ، فكأنهم يقولون : لا تأتينا الساعة في حال من الأحوال ، لأننا ننكر  
وجودها أصلا ، فضلا عن إتيانها .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) أن يرد عليهم بما  
يؤكد وجودها وإتيانها تأكيداً قاطعاً فقال : « قل بلى وربى لتأتينكم ، .  
وبلى حرف جواب لرد النفي ، فتعيد لإثبات المنفى قبلها ، ثم أكد  
- سبحانه - ذلك بجملة القسم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المنكرين لإتيان الساعة  
ليس الأمر كما زعمتم ، بل هي متأتية بغير شك ، وحق ربى الذى أوجدنى وأوجدكم

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لمن أمر الله رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنه كره من أن يكره من أهل الكفر والعناد : فأحدا من في سورة يونس ، وهي قوله - تعالى - : « ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إني وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين » .

والثانية هذه الآية التي معنا . والثالثة في سورة التغابن وهي قوله - تعالى - : « وزعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربي لتبعثن » . (١) وقوله - تعالى - : « عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، تقوية لنا كيد إتيان الساعة .

قالوا : لأن تأكيد القسم بحمل لائل فعوت المقسم به يؤذن بغضامة شأن المقسم عليه ، وقوة إتيانه ، وصحته لما أن ذلك في حكم الاستعهاد على الأمر (٢) وقوله « يعزب » بمعنى يغيب ويخفي ، وفعله من باب « قتل وضرب » . يقال : عزب الشيء - يعزب - بضم الزاي وكسرهما - إذا غاب وبعد .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : كذبتم في إنكاركم وحق الله - تعالى - لنا نبيكم ، والذي أخبرني بذلك هو الله - تعالى - « عالم الغيب » أي : عالم ما غاب وخفي عن حاكم ، وهو سبحانه - لا يغيب عن علمه مقدار أو وزن مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك الممثقال . ولا أكبر منه . إلا وهو مثبت وكائن في علمه - تعالى - الذي لا يغيب عنه شيء . أوفى اللوح المحفوظ الذي فيه تسجل أحوال الخلائق وأقوالهم وأفعالهم .

(١) تفسير ابن كثير ٦ ص ٤٨٢

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٣ ص ٤٥٩

وقوله - سبحانه - : « عالم الغيب ، قرأه بعضهم بكسر الميم على أنه جمع لقوله : « ربى » .

أى : قل بلى وربى عالم الغيب لتأتينكم الساعة .

وقرأه آخرون بضم الميم على أنه مبتدأ ، وخبره جملة : « لا يعزب عنه » أو هو خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو عالم الغيب .

وقوله : « لا يعزب عنه مثقال ذرة » ، تمثيل لقلة الشيء ، ودقته . والمراد أنه لا يغيب عن علمه شيء ما ، مهما دق أو صغر ، إذ المثقال : مفعول من الثقل ويطلق على الشيء البالغ النهاية فى الصغر والذرة تطلق على النملة ، وعلى الغبار الذى يتطاير من التراب عند النفخ .

وفى قوله - سبحانه - : « ولا أصغر من ذلك » ، إعجاز علمى بليغ للقرآن الكريم ، إذ كان من المعروف إلى عهد قريب . أن الذرة أصغر الأجسام . فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم الذرة ، وتقسيمها إلى جزيئات .

قال الجمل : وقوله : « ولا أصغر من ذلك » ، العامة على رفع أصغر وأكبر . وفيه وجهان :

أحدهما الابتداء والخبر إلا فى كتاب . والثانى العطف على « مثقال » ، وعلى هذا فيكون قوله : « إلا فى كتاب » ، تأكيد للنفي فى « لا يعزب » ، كأنه قال : لكنه فى كتاب مبين ...

فإن قيل : فأى حاجة إلى ذكر الأكبر . فإن من علم ما هو أصغر من الذرة لابد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله - تعالى - أراد بيان إثبات الإيمان بالله تعالى ، وأما الأكبر فلا بد من ذكره ، فلا حاجة إلى إثباته .

فقال : الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الآيه مكتوب أيضاً ، (١) .  
واللام في قوله - تعالى - د ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات .  
متعلقة بقوله د لتأتينكم ، وهي للتعليل وليبيان الحكمة في إثباتها .  
أي : لتأتينكم الساعة أيها الكافرون ، والحكمة في ذلك ليجزى سبحانه -  
الذي آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذي يستحقونه .

د أولئك الموصوفون بصفتي الإيمان والعمل الصالح د لهم مغفرة ،  
عظيمة من ربهم لدنوبهم د ولهم ، كذلك د رزق كريم ، تشرح له صدورهم  
وتقر به عيونهم .

د والذين سعوا في آياتنا معاجزين ، أي : والذين سعوا في إبطال آياتنا  
وفي تكذيب رسلنا د معاجزين ، أي مسابقين لنا ، لتوهمهم أننا لا نقدر  
عليهم ، وأنهم يستطيعون الإفلات من عقابنا . يقال : عاجز فلان فلانا  
وأعجزه إذا غلبه وسبقه .

د أولئك ، الذين يفعلون ذلك د لهم عذاب من رجز أليم ، أي : لهم  
عذاب من أسوأ أنواع العذاب وأشدّه ألماً وإهانة .

وهكذا نرى الآيات الدكرية بعد ثنائها على الله - تعالى - بما هو أهله ،  
وبعد إثباتها لعلمه الفدي لا يعزب عنه شيء ، وبعد حكايتها لأقوال المشركين  
وردها عليهم . . .

بعد كل ذلك نصح بأن الحكمة من إثبات الساعة ، مجازاة الذين آمنوا  
وعملوا الصالحات بما يستحقون من ثواب ، ومجازاة الذين كفروا وسعوا  
في آيات الله بالقبح فيها وصد الناس عنها ، بما يستحقون من عقاب .

ثم يبيح - سبحانه - موقف أهل العلم النافع لما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، وموقف الكافرين من ذلك ، ورد - سبحانه - على هؤلاء الكافرين بما يشبه ضلالهم وجهلهم ، فقال - تعالى - :

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦٦﴾  
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٦٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٦٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَحْشِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٦٩﴾

والمراد بالزُّوْية في قوله - تعالى - : « وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ... » المعرفة والعلم واليقين ، والمراد بالذين أُوتُوا الْعِلْمَ : المؤمنون الصادقون الذين اتبعوا النبي - ﷺ - في كل ما جاءهم به من عند ربه ، سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم ، كزعمى أهل الكتاب من اليهود والنصارى .  
والجملة الكريمة مسيطة للبرح هؤلاء العلماء العقلاء على إيمانهم بالحق ،

والمراد بالذى أنزل إليك من ربك القرآن الكريم .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما يقوله الكافرون بشأنك ولما يفعلونه لإبطال دعوتك ، فإن للذين أتوا العلم وهم أتباعك الصادقون يعلمون ويعتقدون أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وهو الصدق الذي لا يشوبه كذب ، وهو الكتاب الذي يهدي من إتبعه وأطاع توجيهاته إلى دين الله - تعالى - العزيز ، الذي يقهر ولا يقهر . الحميد ، أي المحمود في جميع شئونه .

والمفعول الأول لهدى قوله : « الذي أنزل . . . » والمفعول الثاني « الحق » و « هو » ضمير فصل متوسط بين المفعولين و « يهدي » معطوف على المفعول الثاني من باب عطف الفعل على الاسم لتأويله به . أي : يرويه حقا وهاديا .

وعبر - سبحانه - عن إيمان أهل العلم بما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « ويرى » ، للاشعار بأنهم قد آمنوا بهذا الإيمان الجارم من إدراك ومشاهدة ويقين ، وأنهم قد صاروا لا يمشكون في كون هذا المنزل هاديا من ربه ، هو الحق الهادي إلى الصراط المستقيم .

وفي وصفهم بقوله : « أتوا العلم » ثناء عظيم عليهم ، لأنهم إتبعوا بعلمهم وسخروه لخدمة الحق ، وللشهادة له بأنه حق ، ويهدي إلى السعادة الدنيوية والديوية والأخروية .

وهكذا العلماء للعاملون بمقتضى هديهم النافع . يكونون أنصارا للحق والهدى في كل زمان ومكان .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أولئك الكافرون فيما بينهم ، على سبيل الإستهزاء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق . . . »

وتمزق الشيء : تخزيقه وجعله قطعا قطعا . يقال : ثوب ممزق ومزق .  
إذا كان مقطعا مخرقا . والمراد بالرجل : الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .  
أى : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض ، ألا تريدون أن ندلكم  
ونرشدكم إلى رجل ، هذا الرجل يخبركم ويحدثكم بأنكم إذا متم ،  
وفرت أجسامكم في الأرض كل فريق ، وصرتم رفانا وعظاما ، وأصبحتم  
طعاما في بطون الطيور والوحوش .

« إنكم لنبي خلق جديد ، أى : إنكم بعد هذا التزيق والتفريق ،  
تخلقون خلقا جديدا ، وتعودون إلى الحياة مرة أخرى ، للحساب على  
أعمالكم التي عملتموها في حياتكم .

وقالوا : « هل ندلكم على رجل ، وهو ( صلى الله عليه وسلم ) أشهر  
من ناز على علم بينهم ، لتجاهل أمره ، والاستخفاف بشأته ، والاستمراء  
بدعوته .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال : « فإن قلت : كان رسول الله  
( صلى الله عليه وسلم ) مشهورا علما في قريش ، وكان أنباؤه بالبعث شائعا  
بينهم . فما معنى قولهم : « هل ندلكم على رجل ينبئكم ، فنكروه لهم ،  
وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول ؟

قلت : كانوا يقصدون بذلك الطنز - أى : الاستخفاف - والسخرية -  
فأخرجوه منخرج التحلى ببعض الأحاجي التي يتعاجى بها للضعف والقابلية  
متجاهلين به وبأمره ، ( ١ ) .

وقال الألوسي - رحمه الله - : وقوله : « ينبئكم ، أى يحدثكم بأمر مستغرب  
عجيب ... وإذا في قوله : « إذا مررتم ... » ، شرطية ، وجوابها محذوف

الجمهور . وليلة الشرطية بتألفها معمولة لقوله : «نبئتكم» لأنه في معنى بقوله  
لكم إذا مزقتم كل ممزق تبشون . ثم أكد ذلك بقوله — تعالى — : «إنكم  
لن خلق جديد . . . .» (١) .

وقوله — سبحانه — بعد ذلك : «أفترى على الله كذباً أم به جنة . . .»  
حكاية لقول آخر من أقوالهم الباطلة ، التي قللوها بشأن ما جلد به النبي  
( صلى الله عليه وسلم ) .

والاستفهام لتعجبهم مما قاله ( صلى الله عليه وسلم ) ، لأن قوله لهم :  
إنكم ستبشون وتحاسبون يوم القيامة ، جعلهم لجهايم وانطماس عقولهم  
يستفكرون ذلك ، ويرجعون قوله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى أمرين : إما  
إقراء الكذب وإخلاقه على الله — تعالى — ، وإما إصابته بالجنون الذي  
جعله يقول قولاً لا يدري معناه .

وقد رد الله — تعالى — بما ينفي عن رسوله ( صلى الله عليه وسلم )  
ما اتهموه به ، وبما ثبت جهلهم وغياهم فقال : «بل الذين لا يؤمنون بالآخرة  
في العذاب والضلال البعيد . .»

أي : ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكافرون ، من أن الرسول ( صلى الله  
عليه وسلم ) الذي أخبرهم بأن هناك بمقاً وحساباً ، به جنة أو أفترى على الله  
كذباً ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من  
نواب وعقاب ، غازقون في العذاب الذي لا نهاية له ، وفي الضلال البعيد  
من الحق غابة البعد .

ثم هددهم — سبحانه — بسوء العقوبة ، إذا ما استمروا في ضلالهم  
وجمالاتهم وذكرهم بما يشاهدونه من عجائب قدرته فقال : «أفلم يروا  
إلى ما يبيع أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض . . .»

والاستفهام لتعجب من حالهم ، ومن ذهولهم عن التفكير والتدبر ،  
ظلمت على مقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : أحمى هؤلاء الكافرون فلم يعتبروا ولم يتعظوا بما يشاهدونه  
من مظاهر قدرته — هز وجل — المحيطة بهم من كل جانب والمنشرة في  
آفاق السموات وفي جوانب الأرض ؟

إن تأملهم في مظاهر قدرتنا الواضحة أمام أعينهم ، ومن شأنه أن  
يهديهم إلى الحق الذي جاءهم به رسولنا ( صلى الله عليه وسلم ) ، ومن شأنه  
أن يعلمهم يوقنون بأننا — إن نشأ فنجسف بهم الأرض ، كما فعلنا بقارون .  
و أو ، إن نشأ — نسقط عليهم كسفا من السماء — ولا كسف جمع كسفة  
بمعنى قطعة أى : لا يجوزنا أن نجسف بهم الأرض . كما لا يجوزنا — أيضا —  
أن ننزل عليهم قطعا من العذاب الكائن من السماء فتهلكهم ، كما أنزلناها على  
أصحاب الأيكة فأهلكتهم بسبب تكذيبهم وجمودهم .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : « إن في ذلك لآية لكل  
عبد منيب » .

أى : إن في ذلك الذى ذكرناه من مظاهر قدرتنا الواضحة بين أيديهم ،  
لآية بيّنة وعبرة ظاهرة ، لكل عبد منيب ، أى : راجع إلى الله — تعالى —  
بالتوبة الصادقة ، وباطاعة الخالصة لما جاء به نبينا ( صلى الله عليه وسلم )

\* \* \*

ثم ساق — سبحانه — نموذجين من الناس ، أولهما : أعطاه الله  
— تعالى — الكثير من نعمه وفضله وإحسانه ، فوقف من كل ذلك موقف  
المعترف بنعم الله للشاكر لفضله .

والثاني : أعطاه الله — تعالى — النعم فوقف منها موقف الجاحد

أما النموذج الأول فنراه في شخص النبيين الكريمين داود وسليمان - عليهما السلام - فقد قال - سبحانه - في شأنهما :

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَدْجِبَالٍ  
 أُوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرِ وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٥﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقْدَرُ  
 فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾ وَلَسْلَيْمَنْ  
 الْإِيجَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْفَطْرِ وَمِنْ الْجِنِّ  
 مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ  
 مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَمَنْشِيلٍ  
 وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَةٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ  
 مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكُورُ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ  
 مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ  
 لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٩﴾

وقوله - سبحانه - : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ، بيان لما من الله - تعالى - به على عبده داود - عليه السلام - من خير وبركة .  
 وهذا الفضل يشمل النبوة ، وإعطائه الزبور والملك ، وغير ذلك من  
 النعم العظيمة التي وهبها - سبحانه - لنبيه داود .

أى : ولقد آتينا عبدا داود فضلا عظيما ، وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا  
 بسبب إجابته لإيماننا ، وطاعته لنا .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : « يا جبال أوبي معه ،  
والتأويب الفريد والترجيع . يقال : أوب فلان تأويبا إذا رجع مع غيره  
ما يقوله .

والجمله مقوله لقول محذوف . أى : وقلنا يا جبال رددى ورجمى مع  
عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال - تعالى - :  
« إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » .

وقوله : « والطهر ، بالنصب عطفا على قوله « فضلا ، أى : وسخرنا  
له الطير لتسبح معه بحمدنا ، أو معطوف على عمل « يا جبال ، أى : ودهونا  
الجبال والطهر إلى التسبيح معه .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : يحبر - تعالى - عما أنعم به على عبده  
ورسوله داود عليه السلام مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة  
والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصورت  
العظيم ، الذى كان إذا سبح به ، تسبيح معه الجبال الراسيات . اللهم الشامتات  
وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات الرانحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفى الصحيح أن رسول الله ( ﷺ ) سمع صوت أبى موسى الأشعرى  
يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : « لقد أوتى هذا زمرا  
من زميره آل داود ، (١) .

وقال صاحب الكشف : فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن  
يقال : وآتينا داود منا فضلا ، تأويب للجبال معه والطير ؟

قلت : كم بينهما من الفرق ؟ ألا ترى إلى مافية من الفخامة التى لا تخفى ،  
من الدلالة على عزه ، وإلهيته ، وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت للجبال منزلة

مفرلة للعقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاهاوا وأذعنوا ، وإذا دناهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجاد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير متمنع على إرادته . . . (١) .

وقوله - تعالى - : « وألنا له الحديد » بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم الله بها - سبحانه - عليه .

أى : وصيرنا الحديد ليينا فى يده ، بحيث يصبح - مع صلابته وقوته - كالصين فى يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله فى نار ، أو أن يطرقة بمطرقة ،

فأجلة للكرامة معطوفة على قوله « آتينا » وهى من جملة الفضل الذى منحه - سبحانه - لنبيه داود - عليه السلام .

و « أن » فى قوله : « أن اعمل سابغات » مصدرية على حذف حرف الجر . وسابغات صفة لموصوف محذوف .

أى : ألنا له الحديد ، لىكى يعمل منه دروعا سابغات . والدرع السابغة هى الدرع الواسعة الثامة . يقال : سبغ الشيء سبوغا ، إذا كان واسعا تاما كاملا . ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة .

قال - تعالى - : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة . . . » (٢) .

وقوله : « وقد فى السرد » والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير فى عمل الشيء . « والسرد » نسج الدروع ونهيتها لوظيفتها .

أى : آتينا داود كل هذا الفضل الذى من جملة إلائة الحديد فى يده ،

(١) تفسير الكشاف ٢ ص ٥٧١

(٢) سورة لقمان : الآية ٢٠

وقلنا له يادادود : اصنع دروعا سابغات تامات ، وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون في أكل صوره ، وأقوى هيئة . .

وروى أن الدرع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولا تؤدى وظيفتها في الدفاع عن صاحبها ، فألهم الله - تعالى - داود - عليه السلام - أن يعملها بطريقة لا تثقل الجسم ولا تعبها ، وفي الوقت نفسه تكون محكمة أحكاما تاما بحيث لا تنفذ منها الرماح ، ولا تقطعها السيوف . وكان الأمر كله من باب الإلهام والتعليم من الله تعالى لعبده داود - عليه السلام -

ثم أمر - سبحانه - داود وأهله بالعمل الصالح فقال : « واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير » .

أي : واعملوا عملا صالحا يرضيني ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى تستحقونه .

قال القرطبي : وفي هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التعرف بها لا ينقص من مناصبهم . بل ذلك زيادة في فضائهم وفضائلهم ، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الحلال عن الامتنان . وفي الصحيح أن النبى ( صلى الله عليه وسلم ) قال : « إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » (١) .

هذا ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه داود من فضل ، أما نبيه سليمان ابن داود ، فقد أعطاه - سبحانه - أفضالا أخرى ، عبر عنها في قوله - تعالى - : « وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » . .

والغدوة والغداة : أول النهار إلى الزوال ، والرواح : من الزوال إلى الغروب

والمعنى : وسخر لنبيها سليمان بن داود — عليهما السلام — الريح ،  
تجرى بأمره في الغدوة الواحدة مسيرة شهر ، وتعود بأمره في الروحة  
الواحدة مسيرة شهر . أى : أنها تسرعها تقطع في مقدار الغدوة الواحدة  
ما يقطعه الفاس في شهر من الزمان ، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة  
وهي في كل مرة تسير بأمر سليمان ، ووفق لإرادته التي منحها الله - تعالى - إياها  
وعليه هذه الآية قوله - تعالى - : « وسليمان الريح عاصفة تجري  
بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها » . (١) .

وقوله - سبحانه - : « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث  
أصاب » . (٢) .

ثم بين - تعالى - نعمة ثانية من النعم التي أنعم بها على سليمان  
فقال : « وأسلنا له عيينة القطر » .

والقطر : هو للنحاس المذاب . مأخوذ من قطر الشيء . يقطر قطرا  
قطرانا ، إذا سالى .

أى : كما أنال داود الحديد ، أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مفلها ،  
فكان يستعمله في قضاء مصالحه ، كما يستعمل الماء ، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا

ثم بين - سبحانه - نعمة ثالثة أنعم بها على سليمان - عليه السلام -  
فقال : « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » . . .

أى : وسخرنا له من الجن من يكونون في خدمته ، ومن يعملون بين  
يديه ما يريد منهم ، وهذا كله بأمرنا ومهيئتنا وقدرتنا .

ومن يزغ منهم عن أمرنا ، أى : من ينحرف من هؤلاء الجن عما أمرناه به

من طاعة سليمان ، فذقه من عذاب السعير ، أى : فنزل به هذابنا الأليم ،  
الذى يذله ويخزيه فى الدنيا والآخرة .

ثم بين — سبحانه — بعض الأشياء التى كان اللجن يعملونها لسليمان  
— عليه السلام — فقال : « يعملون لى ما يشاء من محاريب وتماثيل ،  
وجفان كالجواب ، وقدرور راسيات ... » .

والمحاريب : جمع حراب . وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان  
الذى يقف فيه الإمام فى المسجد ، كما يطلق على الغرفة التى يصعد إليها ،  
وعلى أشرف أماكن البيوت .

قالوا والمراد بها : أماكن العبادة ، والقصور المرتفعة .

والتماثيل : جمع تمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غيره  
ذلك .

قال القرطبي ما ملخصه : والتماثيل جمع تمثال ، وهو كل ماصور على مثل  
صورة حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ،  
تماثيل أمياء ليست بحيوان .

وذكر أنها صورة الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليرأها  
الناس ، فيردادونا عبادة واجتهادا .

وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا فى زمانهم ، ونص ذلك بشرح محمد  
( صلى الله عليه وسلم ) ، ( ١ ) .

والجفان : جمع جفنة ، وهى الآنية الكبيرة ، والجواب : جمع جابية ،  
وهى الحوض الكبير الذى يصب فيه الماء ويجمع لتشرب منه الدواب .

والقدرور : جمع قدر ، وهى الآنية التى يطبخ فيها الطعام من نحاس أو غلار

وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة لا تتحرك .

أى : أن الجن يعملون لسلامان - عليه السلام - ما يشاء من مساجد وقصور ، ومن صور متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ومن قدور ثابتات على قواعدها ، بحيث لا تحرك لضخامتها وعظمتها .

وقوله - سبحانه - : **و اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ، مقول لقول محذوف .**

أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولآله : **اعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ، شكراً لله - تعالى - على فضله وعطائه ، وقليل من عبادى هو الذى يشكرنى شكراً خالصاً على نعمى وفضلى وإحسانى .**

وقوله **وشكراً** ، يجوز أن يكون مفعولاً لأجله . أى : **اعملوا من أجل الشكر ، أو مصدرأ واقعاً موقع الحال .** أى : **اعملوا شاكرين .**

و **قليل** ، خبر مقدم ، و **د من عبادى** ، صفة له ، و **الشكور** ، مبتدأ مؤخر ، وهكذا يختم القرآن هذه النعم بهذا التعقيب الذى يكشف عن طبيعة الناس فى كل زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذكر الله - تعالى - وشكره .

وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، وللثناء عليه لانعامه ، واستعمال نعمه - سبحانه - فيما خلقه له .

و **إنسان الشكور** : هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل قصارى جهده فى ذلك ، عن طريق قلبه ولسانه وجوارحه :

ثم ختم - سبحانه - النعم التى أنعم بها على داود وسليمان ، ببيان مشهد سليمان ، فقال : **فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته . . .**

والمراد بدابة الارض : قمل هى الارضية التى تأكل الخشب وتتغذى به .

يقال : أرضت الدابة الحشيش أرضاً - من باب ضرب - ، إذا أكلته بإضافته الدابة إلى الأرض - بمعنى الأكل والقطع - من إضافة الشيء إلى فعله .  
وه منسأته ، أى : عصاه التى كان مستنداً عليها . وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها الأغنام إذا تجاوزت مرعاها . من نسا البعير - كنع - إذا زجر وساقه ، أو إذا أخره ودفعه .

والمعنى : فلما حكمنا على سليمان - عليه السلام - بالموت ، وأنقذناه فيه ، وأوقفناه عليه ومادهم ، أى : للجن الذين كانوا فى خدمته ، على موته ، بعد أن مات وظل واقفاً متكئاً على عصاه ، إلا دابة الأرض فأكل من منسأته ، أى : أنهم لم يدركوا أنه مات ، واستمروا فى أعمالهم الشاقة التى كلفهم بها ، حتى جاءت الدابة التى تفعل الأرض - أى الأكل والقطع - فأكلت شيئاً من عصاه التى كان متكئاً عليها ، فسقط واقفاً بعد أن كان واقفاً .  
فلمّا خر ، أى : فلما سقط سليمان على الأرض ، تبيت للجن ، أى : ظهر لهم ظهوراً جلياً ، أن لو كانوا يعلمون الغيب ، كما يزعم بعضهم .  
والبشوا فى العذاب المبين ، أى : ما يقو فى الأعمال الشاقة التى كلفهم بها سليمان .  
وذلك أن الجن استمروا فيما كلفهم به سليمان من أعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ، حتى جاءت الأرض فأكلت شيئاً من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا أنه قد مات .

قال ابن كثير : يذكر - تعالى - فى هذه الآية كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمى الله موته عين الجن المسخرين له فى الأعمال الشاقة فإنه مكث متكئاً على عصاه ، - وهى منسأته - مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، - وهى الأرض - ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبيت الجن والإنس - أيضاً - أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتهمون به وهم من الناس ذلك ، (١) .

هذا هو النموذج الأول الذي ساقه الله - تعالى - للشاكرين ، متمثلاً في موقف هارودوسلحمان - عليهم السلام - مما أعطاها - سبحانه - من نعم جزيلة . أما النموذج الثاني - الذي جاء في أعقاب سابقة - فقد ساقه - سبحانه - لسوء عاقبة الجاحدين ، متمثلاً في قصة قبيلة سبا ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله بالبطر . فحقها - سبحانه - من بين أيديهم ، وفي شأنهم يقول - عز وجل - :

لَقَدْ كَانَ

لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَدْلًا طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا يَبْدُدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْنَلَيْسَ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾

و د سبأ ، في الأصل إسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن ...  
والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة بإسمه ، فيصرف على الأول ، ويترك حرفة على الثاني .

وكانوا يسكنون بمارب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء ، وكانت أرضهم محسبة ذات بساتين وأشجار متفوعة ، و زاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سدا ، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مارب ، ولما كنتم لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، فسلما - سبحانه - منهم .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التابعة منهم ، و يفتيس عنهم ، وكانوا في نعمه وغبطة ، وبحث الله عليهم الرسل فأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم أهرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال الليل والفتن في البلاد .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - بل هو رجل . كان له همزة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وسكن الشام منهم أربعة وهم : لحم ، وجذام ، وعاملة ، وعسان ...

ولما سمي سبأ ، لأنه أول من سبأ في العرب - أى : جمع العبايا - ، وكان يقال له الرائيش ، لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائيش ، والعرب تسمى المال - ريماء ورهاشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في زمانه المتقدم ... (١) .

والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ في مساكنهم التي يعيشون فيها دابة -  
بيننا واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدره الله - تعالى - وعلى فضله على خلقه  
وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عاقبة الجاحدين لهذه النعم .

فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته  
وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحذير من معصيته .

ثم وضع - سبحانه - هذه الآية فقال : « جنتان عن يمين وشمال » أي :  
كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنات : طائفة من يمين بلدهم ،  
وطائفة أخرى شماله .

وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار .

قالوا : كانت المرأة تمشي تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكنل  
فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تنساقط في مكنتها دون جهد منها .  
ولفظ « جنتان » مرفوع على البدل من « آية » ، أو على أنه مبتدأ ،  
وخبره قوله : « عن يمين وشمال » .

وقوله - تعالى - : « كلوا من رزق ربكم واشكروا له . . . » مقول  
لقول محذوف .

أي : وقلنا لهم هل السنة رسلنا ، وعلى السنة الصالحين منهم ، كلوا من  
الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التي أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له  
- سبحانه - هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه .  
وقوله : « بلدة طيبة ورب غفور » كلام مستأنف مسوق لبيان  
موجبات الشكر .

أي : هذه للبلدة التي تسكنونها بلدة طيبة لا اشتغالها على كل ما يحتاجونه منه

خيرات ، وربكم الذي أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأتاب ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه .

ثم بين - سبحانه - ما أصابهم بسبب جحودهم وبطهرهم فقال : فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوائى أكل خط ، وأذل وشيء من سدر قليل ، .

والعرم : اسم للراوى الذى كان يأتى منه السيل . وقيل : هو المطر الشديد الذى لا يطاق .

فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر . . .

ويرى بعضهم أن المراد بالعرم : السدود التى كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، يأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالتف والجمود تركوا العناية بإصلاح هذه السدود ، فتصدعت ، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها ، واكتسحت مساكنهم ، فتفرقوا عنها ، ومزقوا شرايق وضربت بهم الأمثال التى منها قولهم : تفرقوا أبهى سبأ . وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا اجتماع لهم معه .

وهذا ما حدث لقبيلة سبأ ، فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان . . .

وقوله : ذوائى أكل خمط ، الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله تعالى :-

ثم أكلوا من ثمره وما كان أبداً مثله .

Made searchable using ScribeTools.com

و ( الأثل ) هو نوع من الدجر يشبه شجر الطرقاء . أو هو نوع من

الشجر كثير الشوك و ( السدر ) هو ما يعرف بالنبق ، أو هو نوع من الثمار التى يقل الانتفاع بها .

والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا . . فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف ، الذى اجتاح أراضيمهم ، فأفسد مزارعهم ، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق . . وبدلناهم بالجفاف اليانعة التى كانوا يعيشون فيها ، بسائين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل ، وتناثرت فى أماكنهم الأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التى كانت تحمل لهم مالد وطاب ، وعظم نفعه . .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم . .  
ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله - تعالى - : ( ذلك جزاؤهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور ) .

أى : ذلك الذى فعلناه بهم من تبديل جنتهم ، بجنتين ذواتى كل خبط هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم فسوقهم عن أمرنا .  
وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لا نعاقب ولا نهزى هذا الجراء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا ، وكفر بآياتنا ، وآثر النقي على الرشد ، والعصيان على الطاعة .

فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذى تحدث عنه الآية السابقة . وهو المفعول الثانى لجزئناهم مقدم عليه . أى : جزئناهم ذلك التبديل لا غير . والمراد بالجزاء هنا : العقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله : ( وهل يجازى إلا الكفور ) بمعنى : وهل يعاقب -

وهو الوجه الصحيح ، وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، وللجزاء عام للدؤمن والكافر ، لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد الخاص وهو العقاب . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى أصابهم بسبب جهلهم وحقهم ، وكيف أن هذه النعمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال - تعالى - : وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالي وأياما آمنين ، .

أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا - بين أهل سبأ وبين القرى التي باركنا فيها ، كسكة في الجزيرة العربية ، وكبيت المقدس في بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، قرى ظاهرة ، أى : قرى متقاربة متواصلة بحيث يرى من فى إحداها غيرها . . .

« وقدرنا فيها السير ، أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرا محددا ، بحيث لا يتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل .  
وقالوا : كان المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها .

وقوله : « سيروا فيها ليالي وأياما آمنين » مقول لقول محذوف . أى : وقتنا لهم : سيروا فى تلك القرى المتقاربة العامرة بالخيرات ، والتي توصلكم إلى القرى المباركة . . . سيروا فيها ليالي وأياما آمنين من كل شر سواء سرنم بالليل أم بالنهار ، فإن الأمان فيها مستتب فى كل الأوقات ، وفى كل الأحوال .  
فالآية الكريمة تحكى نعمة عظيمة أخرى أنعم الله - الله - بها على أهل سبأ ، وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان

والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهي نعمة عظيمة لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر .

واكنهم لم يقدرُوا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحق والبطر ، أنهم دهروا الله - تعالى - بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا . . .

أى : مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكناهم منها وهي نعمة تيسير وسائل السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله . . . إلا أنهم - لشؤمهم وضيق تفكيرهم وبطورهم وشقاقهم - تضرعوا إلينا وقالوا : باربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاول وصهارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى الغامرة المتقاربة بهم - كما يقول صاحب الكشف - : بطروا النعمة ، وبشموا - أى : شموا - من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا السكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم ، مكان المن والسلوى ، (١) وفي هذه الجملة الكريمة قراءات متعددة ذكرها القرطبي فقال ما ملخصه : وقراءة العامة ، « ربنا ، - بالنصب - على أنه نداء مضاف . . . و باعد ، - بزنة فاعل - سألوا المابعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ربنا ، كذلك على الدعاء « بعد ، - بتشديد العين - من التباعد . . .

وقرأ يعقوب وغيره « ربنا ، - بالرفع - « باعد ، - بفتح العين ، والدال - على الخبر . أى : لقد باعد ربنا بين أسفارنا . . . » (٢)

وقوله : « وظلموا أنفسهم ، أى : قالوا ذلك القول الذى ، وظلموا أنفسهم بسببه ، حيث أجيب دعاؤهم ، فكان نعمة عليهم ، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف .

(١) تفسير الكشف ٣ ص ٥٧٧

(٢) راجع تفسير القرطبي ١٤ ص ٢٩٠

وقوله : « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » ، بيان لما آل إليه أمرهم .  
والأحاديث : جمع أحذوثة ، وهي ما يتحدث به الناس على سبيل التلميح  
والتعجب أى : قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا ما فعلوا من منكر ، فكانت نتيجة  
ذلك ، أن صير فاهم أحاديث يتلمى الناس بأخبارهم ، ويضربون بهم المثل ،  
فيقولون : تفرقوا أبدى سبأ ، ومزقناهم كل ممزق في البلاد المتعددة ، فمنهم  
من ذهب إلى الشام ، ومنهم من ذهب إلى العراق . . . بعد أن كانوا أمة  
متحدة . يظلمها الأمان والاطمئنان ، والغنى والجاه . . .

« إن في ذلك ، الذى فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطورهم ولايات ،  
واضحات بينات » لكل صبار ، على طاعة الله - تعالى - « شكور » له  
- سبحانه - على نعمه .

وخص - سبحانه - الصبار والشكور بالذكر ، لأنهما هما المنتفعان  
بآياته وعبره ومواعظه .

ثم بين - عز وجل - الأسباب التى أدت إلى جهودهم وفسوقهم فقال :  
« ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين » .  
ولفظ « صدق » قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة ، وقرأه  
البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد ، وقوله : « عليهم » متعلق بصدق ،  
وقوله « ظنه » مفعول به على قراءة التشديد ، ومنصوب بنزع الخافض  
على القراءة بالتخفيف ، وضمير الجمع في « عليهم » ، وفي « فاتبعوه » ، يعود إلى  
قوم سبأ .

والمعنى على القراءة بالتشديد : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه في قدرته على  
إغوائهم ، وحقق ما كان يريد منهم من الانصراف عن طاعة الله - تعالى -  
وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان ، بسبب انهماهم في الفسوق والعصيان ،  
إلا فريقا من المؤمنين ، لم يستطع إبليس إغواءهم ، لأنهم أخلصوا

عبادتهم لخالقهم - عز وجل - ، واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

والمعنى على القراءة بالتخفيف: ولقد صدق إبليس في ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه ، لأنه بمجرد أن دين لهم المعاصى ، أطاعوه ، إلا فريقاً من المؤمنين لم يطيعوه .

قال القرطبي ماملاً خصه : وقوله : « إلا فريقاً من المؤمنين » نصب على الاستثناء ، وفيه قولان : أحدهما : أنه يراد به بعض المؤمنين - فتكون من التبعيض - ، لأن كثيراً من المؤمنين يذنبون ويتقادون لإبليس في بعض المعاصى . أى : ما سلم من المؤمنين أيضاً إلا فريق ، وهو المقصود بقوله - تعالى - : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . . . » .

والثاني : أن المراد بهم جميع المؤمنين ، فمن أين عباس أنه قال : هم المؤمنون كلهم .

وعلى هذا تكون « منى » للبيان لا للتبعيض . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - أن إغواء الشيطان لأهل سبا ولاهباهم من بنى آدم ، لم يكن عن قسر ولا كراه ، وإنما كان عن اختيار منهم لتمييز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - : « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك . . . » .

والمراد بالسلطان هنا : التسلط بالقهر والغلبة والإكراه . والمراد بالعلم في قوله - تعالى - « إلا لنعلم » ، إظهار هذا العلم للناس لتمييز قوى الإيمان من غيره .

أى . وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه ، وإنما كان له عليهم الوسوسة التى يملكون صرفها ودفعها متى حسب عبادتهم بناءً .

ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لنبي آدم ، إلا لنظمر في عالم الواقع حاله من يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وحساب ، ولنميزه عن هو منها في شك وريب وإفكار . . .

قال الشوكاني - رحمه الله - : والاستثناء في قوله « إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة عن هو منها في شك ، منقطع أي : لا سلطان له عليهم ، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم .

وقيل : هو متصل مفرغ من أعم العلل . أي : ما كان له عليهم من تسلط بجمال من الأحوال ، ولا لعلة من العلل ، إلا لتمييز من يؤمن ومن لا يؤمن ، لأنه - سبحانه - قد علم ذلك علماً أزلياً . وقال الفراء : إلا لنعلم ذلك عندكم والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وربك على كل شيء حفيظ ، أي : وربك - أيها الرسول الكريم - على كل شيء رقيب وحفيظ ، بحيث لا يخرج شيء عن حفظه وهيمته وعلمه وقدرته .

وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين متعاقبتين ، إحداهما تدل على أن طاعة الله - تعالى - وشكره ، وإخلاص العبادة له ، وحسن الصلة به - سبحانه - ، كل ذلك يؤدي إلى المزيد من نعمه - تعالى - ، كما حدث لداود وسليمان - عليهما السلام - .

وأما الثانية فتدل على أن الجحود والبطر والانفاس في المعاصي والشهوات كل ذلك يؤدي إلى زوال النعم ، كما حدث لقبيلة سبا .

وصدق الله إذ يقول : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك الذين ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى

ورحمة لقوم يؤمنون ، (١) .

• • •

ثم نجد السورة للكرامة بعد ذلك ، تلقن النبي - صلى الله عليه وسلم -  
الحجج التي تؤيد ما هو عليه من حق وصدق ، ونزهق ما عليه أعداؤه من  
باطل وكذب ... فتقول :

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا  
لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ  
عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ  
رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ  
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ  
أَرُونِي الَّذِينَ ادَّعَوْتُمْ بِهٖ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

والامر بالدعاء في قوله - سبحانه - : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ  
الله ... للتوبيخ والتعجيز ، ومفعولاً زعمتم ، محذوفان .

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين على سبيل  
التفريع والتعجيز : هؤلاء آلهتكم الذين زعمتموهم آلهة ، من دون الله ، اطلبوا  
منهم أن ينفعوكم أو أن يرفعوا عنكم ضرأ نزل بكم ، إنهم بالقطع ان  
يستطيعوا شيئاً من ذلك .

ولذا جاء التأكيد على عجز هذه الآلهة المزهومة بعد ذلك في قوله  
- تعالى - : لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . . .

أى : هؤلاء الشركاء لا يملكون شيئاً ما قل أو كثر لا في السموات  
ولا في الأرض ، بل الذى يملك كل شيء ، هو الله - تعالى - وحده .

فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان حال هذه الآلهة ، وللكشف عن حقيقةها .  
والتعبير بعدم ملكيتهم لمثقال ذرة ، المقصود به أنهم لا يملكون شيئاً  
على الإطلاق ولأن مثقال الذرة أقل ما يتصور في الحقايرة والقلقة .

وذكر - سبحانه - السموات والأرض لقصد التعميم ، إذ هما محل  
الموجودات الخارجية .

أى : لا يملكون شيئاً ما في هذا الكون العلوى والسفلى .

وبعد أن نفي عن الشركاء الملكية الخالصة لأى شيء في هذا الكون ،  
أنبع ذلك بنفى ملكيتهم لأى شيء ولو على سبيل المشاركة ، فقال - تعالى - :  
وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير .

أى : أن هؤلاء الذين زعمتموهم شركاء لله - تعالى - في العبادة ،  
لا يملكون شيئاً ما في هذا الكون ملكية خاصة ، ولا يملكون شيئاً ما  
- أيضاً - على سبيل المشاركة لغيرهم ، وليس لله - تعالى - أحد يعينه

فانت ترى أن الآية الكريمة قد نفت عن تلك الآلهة المزعومة ، ملكية  
أى شيء فى هذا الكون ، سواء أكانت ملكية خالصة . أم ملكية على سبيل  
المشاركة ، وأثبتت أن المالك والمتصرف فى هذا الكون إنما هو الله تعالى -  
وحده ، دون أن يكون فى حاجة إلى عون من تلك الآلهة أم من غيرها .

ثم نرى - سبحانه - أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه  
- تعالى - فقال : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » .

والشفاعة : من الشفع الذى هو ضد الوتر - أى : الفرع - ومعناها :  
انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ما يمكن دفعه من ضرر .

أى : ولا تنفع الشفاعة عند الله - تعالى - من أحد لأحد ، إلا لمن  
أذن الله - تعالى - له فى ذلك .

قال الألوسى ما ملخصه : والمراد نفي شفاعة الأصنام لعبادها ، لكنه  
- سبحانه - ذكر ذلك على وجه عام ، ليكون طريقاً برهانياً . أى :  
لا تنفع الشفاعة فى حال من الأحوال ، أو كائناً من كانت ، إلا كائناً لشافع  
أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة . ومن  
البين أنهم لا يؤذن فى الشفاعة للكفار ، فقد قال - تعالى - : « لا يتكلمون  
إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » والشفاعة لهم بمعزل عن الصواب ،  
وعدم الإذن الأصنام أبين وأبين ، فبين حرمان هؤلاء الكفرة منها  
بالكلية ... (١) .

وقوله : حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ...  
بيان لما يكون عليه المنتظرون للشفاعة ، من لحظة وقلقى .

والضعيف في قوله ، فزع ، السلب . كما في قولهم : مرضت المريض إذا حملت على إزالة مرضه .

فمضى : « فزع من قلوبهم ، كشف الفزع عنها ، وهذات أحوالها بعد أن أصابها ما أصابها من هول وخوف في هذا اليوم الحديدي ، وهو يوم القيامة » و « حتى ، غاية لما فهم من الكلام قبلها ، من أن هناك تلها وتربا من الراجين للشفاعة ومن العفماء ، إذ الكل منتظر بقلق لما يؤول إليه أمره من قبول الشفاعة أو عدم قبولها .

والمعنى : ولا تقبل الشفاعة يوم القيامة من أحد إلا لمن أذن الله تعالى — له في ذلك ، وفي هذا اليوم الهائل الشديد ، يقف الناس في قاق ولهفة منتظرين قبول الشفاعة فيهم ، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بسبب إذن الله — تعالى — في قبولها من يشاء . ولمن يشاء ، واستبشر الناس وقال بعضهم لبعض ، أو قالوا للملائكة : « ماذا قال ربكم ، أي : ماذا قال ربكم في شأننا ومصيرنا ،

وهنا تقول لهم الملائكة ، أو يقول بعضهم لبعض : « قالوا الحق ، أي : يقولون قال ربنا القول الحق وهو الإذن في الشفاعة لمن ارتضى .

فلفظ « الحق » منصوب بفعل مضمر . أي : قالوا قال ربنا الحق أو صفة لموصوف محذوف . أي : قالوا : قال ربنا القول الحق .

« وهو ، — سبحانه — العلى ، أي : المنفرد بالعلو فوق خلقه . » « الكبير ، أي : المنفرد بالكبرياء والعظمة .

قال ربكم ، أي : ماذا قال ربكم في شأننا ومصيرنا ،

قلت : اتصل بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظار الإذن ، وتوقعا وتعملا وفرعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أولا؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان ، وطول القربص . . .

كانه قيل : ينتظرون ويتوقفون كليا فزعين وجلين ، حتى إذا كشف الفرع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن : نباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ماذا قال ربكم ، قالوا ، قال الحق ، أى : القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى . . . (١)

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ( ﷺ ) أن يسألهم للمرة الثانية على سبيل التنبيه والتوبيخ ، من الذى يملك أن يرزقهم ، فقال - سبحانه - :  
« قل من يرزقكم من السموات والأرض . . . »

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنباتات والمعادن وغير ذلك من المنافع .

وقوله - تعالى - : « قل الله ، جواب على هذا السؤال ، وهو جواب لا يمكن أن يكون إلا الاعتراف به : »

أى : قل لهم منبها ولافتا أنظارهم إلى ما هم فيه من جهل : الله وحده هو الذى يرزقكم بما لا يحصى من الأراق التى بعضها من السموات ، وبعضها من الأرض .

وقوله - سبحانه - : « ولنا أو لآياتكم على هدى أو فى ضلال مبين ، داخل فى حيز الأمر السابق ، ولكن بأسلوب فيه مافيه من الحكمة والتلطاف ومن حمل المخاطب على التذكر والتدبر حتى يعود إلى الرشد والصواب .

أى : وقل لهم - أيضاً - أيها الرسول الكريم لقد هلمتم - يامعشر للمشركين أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقكم ورزقكم من السموات والأرض ...

وإن أحدنا لا بد أن يكون على الهدى والآخر على الضلال ، وسنترك تهديد من هو المتهدى ومن هو الضال لعقوباتكم وضمازكم .

وستعلمون - هم اليقين - بعد التفكير والتدبر أننا نحن المسلمين على الحق ، وأنتم يامعشر المشركين على الباطل .

فأجلة الكريمة لون من ألوان الدعوة إلى الله - تعالى - بأسلوب مهذب حكيم ، من شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق ، إلى الاستسلام له ، والدخول فيه ...

قال القرطبي : وقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، هذا على وجه الانصاف فى الحجة ، كما يقول القائل لغيره : « أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق ، وأن صاحبه كاذب ، والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن ، والآخر ضال وهو أنتم ، فكذبهم بأحسن تصريح النكذيب .

والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالله الذى يرزقكم من السموات والأرض ... (١) ،

وقوله : « أو إياكم » ، معطوف على اسم إن ، وخبرها هو المفعول . وحذف خبر الثانى للدلالة عليه .

أى : وإنا على هدى أو فى ضلال مبين ، وإنكم على هدى أو فى ضلال مبين . ثم أتبع - سبحانه - هذا الكلام الحكيم فى الدعوة إلى الحق ، بكلام

لا يقل عنه حكمة وبلاغة فقال : « قل لا تسألوني عما أجرة منّا ولا تسألوني عما تعملون ، أئى : « قل لهم المرة الثالثة : أيها الرسول الكريم = أنتم - أيها المشركون - لا تسألون يوم القيامة عن إجراننا في حق أنفسنا - إن كنا قد أجرنا وأخطأنا في حقها - ، ونحن - أيضاً - لا يسألنا الله - تعالى - عن سبب بقائكم في الكفر وفي الأعمال السيئة ، لأننا قد بلغناكم رسالة ربكم - عز وجل - ، ونصحناكم بالإقلاع عن الشرك والمعاصي .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - ، « وإن كذبوك فقل لي عمل ولکم عملکم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون » (١) .

ثم أمره - سبحانه - أن يذكرهم بيوم القيامة وما فيه من حساب دقيق ، فقال : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » .

أئى : « قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن الله - تعالى - بقدرته سيجمعنا وإياكم يوم القيامة ، ثم يحكم بيننا جميعاً بحكمه العادل ، وهو - سبحانه - والفتاح العليم » أئى : إلّاكم في كل أمر بالحكم الحق المطلق على جميع أحوال عباده .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتوجيه رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يقول لهم قولاً يخرس به ألسنتهم ، ويبطل حججهم فقال : « قل أروني الذين الحقتم به شركاء » والرؤية هنا بصرية . ومفعولها الأول الياء ، ومفعولها الثاني الاسم الموصول ، ولفظ « شركاء » حال .

أئى : « قل لهم - أيضاً - للمرة الخامسة على سبيل إلزامهم بالحجة : أروني وأطلعوني على أصنامكم التي ألحقتموها بالله - تعالى - في العبادة ، واتخذتموها شركاء له في الطاعة ... إنها ما هي إلا أشياء لا تضر ولا تنفع ، وأنتم تعرفون ذلك عنها ، وما هي أمامكم واقعها وحالها ينبغي - بهجرها التام ، فكيف أشركتموها مع الله - تعالى - في العبادة والطاعة ؟

فالمقصود من الرؤية إظهارهم على عجزها ، ولبيكتهم على جهالاتهم ،  
وحضهم على نية الشركاء ، وإخلاص العبادة لله الواحد القهار .  
ويحتمل أن تكون الرؤية هنا علمية ، فيكون لفظ « شركاء » هو  
المفعول الثالث .

أى : هرفوف الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله - تعالى -  
فى العبادة .

ثم زجرهم - سبحانه - عن هذا الضلال فقال : « كلا بل هو الله العزيز  
الحكيم ، أى : كلا ليس الأمر كما زعمتم من أن الله - تعالى - شركاء ، بل هو  
- سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد أفضت للنبي - صلى الله عليه وسلم - الحجج  
التي يرد بها على المشركين ، والتي من شأنها أن تجعلهم على اعتناق الحق ،  
واجتناب الباطل ، لو كانوا يعقلون .

ثم بين - سبحانه - وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورد  
على شبهات المشركين فقال :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَ مِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمِلَ لَهُ أَثْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

قال الألوسي : المتبادر أن كافة ، حال من الناس ، قدم لإلا عليه الاهتمام ؛ وأصله من الكف بمعنى المنع ، وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج ، واشتهر في ذلك حتى قطع فيه النظر عن معنى المنع بالكلية . فعنى جاء الناس كافة : جاءوا جميعا . . .

قال ابن عباس : أرسله الله - تعالى - محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله - تعالى - أطوعهم له . . . (١) .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا إلى الناس جميعاً ، لتبشر المؤمنين منهم بحسن الثواب ، وتنذر من أعرض عن الحق الذى جئت به بسوء العقاب : ولـكـيـن أكثر الناس لا يعلمون ، هذه الحقيقة ، وهى هموم رسالتك وكونك بشيراً ونذيراً . .

ويقولون ، أى : المشركون على سبيل الاستهزاء بما جئتم به ومتى هذا الوعد ، اسى تهددونا به وهو قيام الساعة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

أخبرونا عنه - أيها المؤمنون - إن كنتم صادقين ، فيما تهددونا عنه ، وفيما تهددونا إليه من إيمان .

وهنا أمر الله - تعالى - رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) أن يرد عليهم رداً فيه كل معانى التهديد والوعيد فقال : دقل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ، و د ميعاد ، يجوز أن يكون مصدراً مراداً به الوعد ، وأن يكون اسم زمان ، والإضافة للبيان .

والمراد بالساعة الوقت الذى هو فى نهاية الغلة . وليس ما اصطلاح عليه للناس من كونها ستين دقيقة .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لا تتعجلوا - أيها الكافرون - ما أخبرتكم منه من أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، ومن أن العقابة الطيبة ستكون لنا لا لكم ؛ فإن اسكنم ميقاتاً محدداً ، وموعداً معلوماً ، عند ما ياذن

الله - تعالى - بحلوله وبانتها. حياتكم وبعثكم . . .

« لا تستأخرون عنه ساعة ، من الزمان ، ولا تستقدمون عنه ساعة ،  
كما قال - تعالى - : « إن أجل الله إذا جاء . لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، (١) .  
وكما قال - سبحانه - : « وما يؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأتي  
لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد ، (٢) .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأقوال الباطلة التي قالها المشركون في  
شان القرآن الكريم ، وصور أحوالهم السيئة يوم العرض والحساب ،  
وكيف أن كل فريق منهم صار يلقى التبعة على ضيئه ، قال - تعالى - :  
وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن .

والمراد بالذى بين يديه في قوله - تعالى - : « وقال الذين كفروا لن  
تؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه . . . » : الكتك السماوية السابقة  
كالنوراة والإنجيل .

قالوا : وذلك لأن المشركين سألوا بعض أهل الكتاب ، عن الرسول  
( صلى الله عليه وسلم ) فأخبرهم بأن صفاته في التوراة والإنجيل ، ففطروا  
وقالوا ما قالوا (٣) .

أى : وقال الذين كفر بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق : قالوا

(١) سورة نوح الآية ٤

(٢) سورة هود الآية ١٠٤ - ١٠٥

(٣) تفسير الألوسى ٢٢ ص ١٤٤

لن يؤمن بهذا القرآن الذى جئت به يا محمد ( ﷺ ) — من عند ربك ،  
ولا يؤمن — أيضا — بالكتب السماوية الاخرى التى تؤيد انك رسول  
من عند الله — تعالى — . فالآية الكريمة تحكى ما جيل عليه هؤلاء الكافرون  
من تصميم على الباطل ، ومن نبل للحق مهما تعددت مصادره .

قال الإمام الرازى : لما بين — سبحانه — الأمور الثلاثة من التوحيد  
والرسالة والحشر ، وكانوا بكل كافرين بين كفرهم العام بقوله : وقال الذين  
كفروا لن يؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه ، وقوله : ولا بالذى بين  
يديه ، المقصود أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا ،  
المفسر كون المنكرون للنبيات والحشر .

وبحتمل أن يكون المعنى لن يؤمن بهذا القرآن ، ولا بما فيه من الاخبار  
والآيات والدلائل فيكون المراد بالذى بين يديه ما اشتمل عليه من أخبار  
وأحكام ، ويكون المراد بالذين كفروا عموم الكافرين بما فيهم أهل الكتاب  
لأن الجميع لا يؤمن بالقرآن ولا بما اشتمل عليه . ( ١ ) .

وقوله — تعالى — : د ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ،  
ترجع بعضهم إلى بعض القول ، بيان لأحوالهم السيئة يوم القيامة ،  
ولإصرارهم على الكفر .

ود لو ، شرطية ، وجوابها محذوف كما أن مفعول د ترى ، محذوف  
أيضا ود موقوفون ، أى محبوسون للحساب يوم القيامة .

يقال : وقفت الرجل عن فعل هذا الشيء . إذا منعه وحجزته عن  
فعله .

أى ولو ترى - أيها المخاطب - حال الظالمين وقت احتباسهم عند ربهم يوم القيامة ، وهم يتجادلون ويتجادلون فيما بينهم بالأقوال السيئة وكل فريق ، يلقى التبعة على غيره .

لو ترى ذلك لرأيت أمراً عجبياً ، وحالاً فظيعة ، تنفطر لها القلوب ، وترتعد من هولها النفوس .

وللتعبير بقوله - سبحانه - : « ولو ترى ، يشعر بفاتهم وبؤسهم ، فهم محبوسون للحساب على غير إرادة منهم ، كما يحبس المجرم في سجنه لانتظاراً لمصيره السيء .

وقوله : « عند ربهم » ، تبكي وتوبخ لهم ، على ما كانوا يفعلونه في الدنيا من إنكار اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وحساب .

وقوله - سبحانه - : « يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنكم لكنا مؤمنين ، تفصيل الجانب من محاوراتهم فيما بينهم ، ولما كانوا يرجعون فيه القول بعضهم مع بعض .

والمراد بالذين استضعفوا . الاتباع والعامة من الناس ، والمراد بالذين استكبروا : الزعماء والقادة والرؤساء .

أى : يقول الاتباع من الكافرين لقاداتهم ورؤسائهم بغيظ وحسرة : لولا أنتم منعتمونا عن إتباع الحق لكنا مؤمنين به ، ومتبعين لما جاء به الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .

لأنهم يقولون لهم في موقف الحساب يوم القيامة ، ما كانوا هاجزين من قوله في الدنيا ، عند ما كانوا مستغلين لهم ، وخاضعين لسلطانهم :

وهنا يرد الزعماء باستنكار وضيق ، ويحكى ذلك القرآن فيقول : « قال الذين استكبروا للذين استضعفوا ، على سبيل التوبيخ والتفريع .

« نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، كلا ، إنما ما فعلنا ذلك ، ولأننا نحن الذين حللنا بينكم وبين أتباع الحق .

« بل ، أنتم الذين « كنتم مجرمين ، في حق أنفسكم ، حيث اتبعتمونا بإختياركم ، ورضيتم عن طواعية منكم أن تتبعوا غيركم بدون تفكير أو تدبر للأمر .

ولم يقتنع الأتباع بما رده عليهم السادة والسكهاء ، بل حكى القرآن للمرة الثانية ردهم عليهم فقال : « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ، في الرد عليهم بحسرة وألم : « بل مكر الليل والنهار ، أى قالوا لهم أقم لستم صادقين في قواكم لنا : لأنكم لم تصدرونا عن أتباع الهدى بعد إذ جاءنا بل إن مكركم بنا الليل والنهار ، وإغراءكم بنا بالبقاء على الكفر وتهديدكم إيانا بالقتل أو التعذيب إذا ما خالفناكم وأمركم لنا بأن « تكفر باقية — تعالى — ونجعل له أندادا ، أى شركاء في العبادة والطاعة .

كل ذلك هو الذى أحال بيننا وبين إتباع الحق الذى جاءنا به الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .

والمكر : هو الاحتيال والخديعة . يقال مكر فلان بفلان ، إذا خدعه أو أراد به شراً .

وهو هنا فاعل لفعل محذوف والتقدير : بل الذى صدنا عن الإيمان

وقوله : « إذ تأمرونا . . . » ظرف للمكر . أى : بل مكركم الدئم بنا وقت أمركم لنا بأن نكفر بالله ونجعل له أشباها ونظراء نعبدها من دونه — تعالى — هو الذي حال بيننا وبين أتباع الحق والهدى .

قال الجمل : وقوله « بل مكر الليل والنهار » يجوز رفع « مكر » من ثلاثة أوجه : أحدها : على الفاعلية بتقدير : بل صدنا مكركم في هذين الوقتين الثاني : أن يكون مبتدأ خبره محذوف . أى : مكر الليل صدنا عنه أتباع الحق الثالث : العكس . أى : سبب كفرنا مكركم ، وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازى كقولهم : ليل ماكر ، فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه وإما على الإنساع في الظرف ، فجعل كالمفعول به فيكون مضافا منصوبه . (١) :

والضمير المرفوع في قوله — سبحانه — : « وأسروا الندامة لما رأوا القهاب يعود على الأتباع والزعماء » ، وأسروا من الإسرار بمعنى الستر والإخفاء .

أى : وأضر الذين استعصموا والمستكبرون الندامة والحسرة حين شاهدوا العذاب المعد لهم جميعا ، وذلك لأنهم بهتوا وشدهوا حين عاينوه ودفنت الكلمات في صدورهم فلم يتمكنوا من النطق بها وأصابهم ما أصابهم من السكمد الذي يعمل الشفاء لا تحرك ، والألسنة لا تنطق .

فالمرصود من أسرار الندامة : بيان عجزهم الشديد عن النطق بما يريدون النطق به لفظة ما شاهدوه من عذاب غليظ قد أعد لهم .

وقيل إن «أسروا الندامة» بمعنى أظهروها ، لأن لفظ أمر من الأضداد

قال الألوسي ما ملخصه : « وأسرؤا ، أى : أضر المظلومون من الفريقين  
 « الندامة » على ما كان منهم في الدنيا . . . . لما رأوا العذاب ، لأنهم بهتوا لما  
 هابنوه فلم يقدرؤا على النطق .

وقيل : أسرؤا الندامة . بمعنى أظروها ، فإن لفظ « أسر » من الأضداد ،  
 إذا الهمزة تصاح للإنيات وللإسب ، فعنى أمره : جعله سره ، أو أزال  
 سره . . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فقال : « وجعلنا  
 الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يحزؤون إلا ما كانوا يعملون » .

والأغلال ، جمع غل وهي القيود التي يقيد بها المجرمون .

أى : وجعلنا القيود في أعناق الذين كفروا جميعا ، سواء منهم من كان  
 تابعا أم متبوعا ، وما جزيتناهم بهذا الجزاء المبين إلا بسبب أعمالهم  
 السيئة ، وأفوالهم القبيحة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور لنا تصورا مؤثرا بديعا ، ما يكون  
 عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم ، ومن عداوة وبغضاء ، ومن ثم  
 يلقيها كل فريق على الآخر ، بدون إحترام من المستضعفين لزعمائهم الذين  
 كانوا يذلونهم في الدنيا ، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التي كان الزعماء  
 يحيطون بها أنفسهم في الحياة الدنيا ، وأصبح الجميع يوم الحساب في الذلة  
 سواء ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا . .

• • •

ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك جانبها من الأقوال للرافعة ، الذى كان  
المفرون ينذرون بها للبقاء على كفرهم ، ومن الإجابات التى لقنها  
[ - سبحانه - لنبيه - صلى عليه وسلم - لى يخرس بها أسلقتهم ، ويذل بها  
شبهاتهم قال - تعالى - :

وَمَا

أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ  
كَاْفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾  
قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا  
زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ أَضْعَفُ بِمَا  
عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا  
مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ  
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ء وَيَقْدِرُ لَهُ ء وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ  
فَهُوَ يَخْلِفُهُ ء وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

قال صاحب الكشاف عند تفسيره اقوله - تعالى - : : وما أرسلنا في قرية  
من نذير إلا قاله متترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ... : هذه تسلية لرسول  
الله - صلى الله عليه وسلم - بما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به ،

والمناخسة بكثرة الأموال والأولاد ، والتفكر بذلك على المؤمنين . . . وأنه - سبحانه - لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير ، إلا قالوا له مثل ما قال أهل مكة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - . . . (١)

والمعنى : وما أرسلنا في قرية ، من القرى ، من نذير ، ينذر أهلها بسوء العقوبة إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم .

« إلا قال مترفوها ، أى : أى إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها وجبارتها المتسرفون في النعم فيها ، لمن جاءوا لإنقاذهم وهدايتهم إلى الحق .

« إنا بما أرسلتم به ، من الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - ، كافرون ، وبما نحن عليه من شرك وتقليد للآباء مؤمنون .

فالآية الكريمة تحكى موقف المترفين في كل أمة ، من الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ، وأن هؤلاء المترفين في كل زمان ومكان ، كانوا أعداء الأنبياء والمصلحين ، لكن الترف من شأنه أن يفسد الفطرة ، ويبعث على الغرور والتطاول ، ويحول بين الإنسان وبين التمسك بالفضائل والقيم العليا ، ويهدى إلى الانغماس في الرذائل والشهوات الدنيا .

— ثم يحكى القرآن الكريم أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا بإعلان كفرهم ، وتكذيبهم الأنبياء والمصلحين ، بل أضافوا إلى ذلك التبعج والتعالى على المؤمنين ، فقال - تعالى - : « وقالوا ، أى المترفون الذين أبطرتهم النعمة للمؤمنين الفقراء ، نحن أكثر أموالاً وأولاداً منكم - أيها المؤمنون - ، إذ أموالنا من أموالكم ، وأولادنا أكثر من أولادكم ، ولولا أننا أفضل عند الله منكم ، لما أعطانا ما لا يعطيكم .

فنحن نعيش حياتنا في أمان وإطمئنان وما نحن بمعذبين ، بشئ من

Made searchable using ScribeTools.com

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : افتخر المتفرون - بكثرة الاموال والاولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم ، وإعنتائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعفيهم في الآخرة ، وهيات لهم ذلك . قال - تعالى - : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، وترهق أنفسهم وهم كافرون ، (١) . ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يصحح هؤلاء المتفرفين خطاهم ، وأن يكشف لهم عن جهلهم ، وأن يبين لهم أن مسألة الغنى والفقر بيد الله - تعالى - وحده ، وأن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى أو الفقر ، وإنما يتبعان الإيمان أو الكفر ، فقال - تعالى - : قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وبسط الرزق : سعته وكثرته ، وتقديره : تقليله وتضييقه .

أى . قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاهلين « إن ربي ، وحده هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ، أن يبسطه له ، ويقدر ، أى : ويقتر الرزق ويضيقة على من يشاء أن يضيقة عليه . والامر فى كلتا الحالتين مرده إلى الله - تعالى - وحده ، على حسب ما تقتضيه حكمته فى خلقه ...

وربما يوسع رزق العاصى ويضيق رزق المطيع ، أو العكس وربما يوسع على شخص فى وقت ويضيق عليه فى وقت آخر ، ولا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب ، لأن مناطهما الطاعة وعدمها .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، هذه الحقيقة التى لاقتضتها حكمة الله - تعالى - وإرادته ، فزعموا أن بسط الرزق دليل الشرف والقرامة ، وأن ضيق الرزق دليل الهوان والذل ، ولم يدركوا - لجهلهم وإضطهادهم بصائرهم - أن بسط الرزق قد يكون للاستدراج ، وأن تضييقه قد يكون للاهتلاء والاختبار ، ليميز قوى الإيمان من ضعيفة ...

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٦٩٠ .

ثم زاد - سبحانه - هذه القضية توضيحاً وتبييناً فقال : وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى . . . . .

الزلفى مصدر كالقربى ، وإلتصابه على المصدرية من معنى العامل . أى ليست كثرة أموالكم ، ولا كثرة أولادكم بالتي من شأنها أن تقرّبكم اليقاربى لأن هذه الكثرة ليست دليل محبة منّا لكم ، ولا تكريم منّا لكم ، وإنما الذى يقرّبكم منّا هو الإيمان والعمل الصالح .

كما وضح - سبحانه - هذه الحقيقة في قوله بعد ذلك : وإلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفان آمنون . . . . .  
أى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المتزفون - من أكثر الأموال والأولاد ستجيبكم من العذاب ولكن الحق والصدق أن الذى ينجيكم من ذلك ويقرّبكم منّا ، هو الإيمان والعمل الصالح ، فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم عند الله - تعالى - الجزاء الحسن المضاعف ، وهم في غرفات الجنات آمنون مطمئنون .

قال الشوكاني ما ملخصه : قوله : وإلا من آمن وعمل صالحاً ، هو إستثناء منقطع فيكون محله النصب ، أى : لكن من آمن وعمل صالحاً . . . . . والإشارة بقوله : فأولئك ، إلى من ، والجمع بإعتبار المعنى ، وهو مبتدأ ، وخبره : لهم جزاء الضعف ، أى : فأولئك يجازيهم الله الضعف ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول . أو فأولئك لهم الجزاء المضاعف فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة . . . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المصيرين على كفرهم فقال : والذين يسمعون فى آياتنا معاجزين ، أولئك فى العذاب محضرون . . . . .

أى : والفين يسمون في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

« معاجزين » .

أى . زاعمين سبقهم لنا ، وعدم قدرتنا عليهم « أولئك ، الذين يفعلون ذلك » في العذاب محضرون ، أى : في عذاب جهنم مخلدون ، حيث يحضرهم ملائكة العذاب بدون شفقة أو رحمة ، وتلقى بهم فيها .

وقوله - سبحانه - : « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له » ، تأكيد وتقرير لتلك الحقيقة التي سبق الحديث عنها ، وهى أن التوسيع والتضييق في الرزق بيد الله - تعالى - وحده .

والضمير في قوله - تعالى - له ، يعود إلى الشخص الموسع عليه أو المضيق عليه في رزقه . أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المترفين على سبيل التأكيد وإزالة ما هم عليه من جهل : لا لله رب - عز وجل - يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيق هذا الرزق على من يشاء أن يضيقه منهم . وليس في ذلك ما يدل على السعادة أو الشقاوة ، لأن هذه الأمور خاضعة لحكمته في خلقه - سبحانه - .

« وما أنفقتم ، أيها المؤمنون ، من شئ » ، في سبيل الله - تعالى - وفى أوجه طاعته وفهر ، - سبحانه - بخلفه ، أى : يعوضه لكم بما هو خير منه يقال : فلان أخلفه لفلان وأخلفه عليه ، إذا أعطاه العوض والبدل .

« وهو خير الرازقين » ، أى : وهو - سبحانه - خير رازق لعباده لأن كل رزق يصل إلى الناس إنما هو - بتقديره وإرادته ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يزيد الأسخياء من فضله وكرمه .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا ملأ مكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت جانباً من شبهات المشركين، ومن أقوالهم الباطلة، وردت عليهم بما يردق باطلهم، ويمحو شجاعتهم، لكي يرداه المؤمنون إيماناً على إيمانهم.

ثم بين - سبحانه - حال أولئك المشركين يوم القيامة، وكيف أن الملائكة يكذبونهم في مزاحهم، فقال - تعالى - .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ  
لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ بِإِيَّائِمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ  
وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾  
فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا  
اذْهَبُوا إِلَى النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ  
آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصَدَّكُمْ عَمَّا كَانَ  
إِيعْبُدَ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٤﴾ وَمَا أَتَيْنَهُمْ مِنْ  
كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٥﴾ وَكَذَّبَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا أَتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ

أى : واذا ذكر — أيها العاقل — لتعجب وتتعظ ، يوم يحشرهم جميعا ،  
 أى : يجمع الله — سبحانه — الكافرين جميعا — الذين استضعفوا في  
 الدنيا والذين استكبروا — .

ثم يقول ، — عز وجل — : للملائكة ، هلى سبيل التبيكيت والتفريع  
 للمشركين ، أهؤلاء ، الكافرون كانوا إياكم يعبدون ، أى : أهؤلاء كانوا  
 يعبدونكم في الدنيا ، وأنتم رضيتم بذلك .

و أهؤلاء ، مبتدأ . وخبره : كانوا يعبدون ، و إياكم ، مفعول  
 يعبدون .

وتخصيص الملائكة بالخطاب مع أن الكفار من كان يعبدون الأصنام ،  
 ومن كان يعبد غيرها ، لأن المتصود من الخطاب حكاية ما يقول الملائكة  
 في الرد عليهم .

قال صاحب الكشف : هذا الكلام خطاب الملائكة ، وتقريع للكفار  
 وارد على المثل السائر : إياك أعنى واسمعى بإجاره ، ونحوه قوله — تعالى —  
 لعيسى : أنت قلت للناس إتخذوني وأمى إلهين من دون الله . . . ، وقد علم  
 — سبحانه — كون الملائكة وعيسى ، منزهين برآء عما وجه عليهم من السؤال ،  
 والترض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون التقريع للمشركين  
 أشد ، والتعيير أبلغ ، وهو أنهم ألزم ، ، (١) .

وقوله — تعالى — : قالوا سبحانه أنت وإينا من دوزهم . . .  
 حكاية لأقوال الملائكة .

أى : قال الملائكة فى الإجابة على سؤال خالقهم . « سبحانه ، أى : نزهك ونقدسك عن أن يكون لك شريك فى عبادتك وطاعتك أنت ولينا عن دونهم ، أى : أنت الذى نواليك ونتقرب إليك وحدك بالعبادة ، وليس بيننا وبين هؤلاء المشركين أى موالاة أو قرب ، ولا دخل لنا فى عبادتهم لغيرك .

ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه فى الدنيا فقالوا : « بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » .

أى : إن هؤلاء المشركين لا علم لنا بأنهم كانوا يعبدوننا ، ونبرأ من ذلك إن كانوا قد عبدونا ، هم إنما كانوا يعبدون فى الدنيا الجن ، أى الشياطين ، وكان أكثر هؤلاء المشركين يؤمنون بعبادة الشياطين ، ويطيعونهم فيما يأمرونهم به ، أو ينهونهم عنه .

فقوله - تعالى - « بل كانوا يعبدون الجن » إضراب إلتقالي ، لبيان السبب فى شرك هؤلاء المشركين ، وتصحیح بمن كانوا يعبدونهم فى الدنيا .

قال الجمل : فإن قيل جميعهم كانوا متابعين للشياطين ، فما وجه قوله - تعالى - « أكثرهم بهم مؤمنون » فإنه يدل على أن بعضهم لم يؤمن بالجن ولم يطعهم ؟

فالجواب من وجهين : أحدهما : أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم ، فقالوا أكثرهم ، لأن الذين رأوهم وأطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ، ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة على حاله من الكفار .

والثاني . « أن العبادة عمل ظاهر ، والإيمان عمل باطن ، فقالوا : بل

كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون .

عند عمل القلب ، لنلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب ، فإن القلب لا يطالع على ما فيه إلا الله . . . (١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الملك في يوم الحساب له وحده فقال :-  
 قال يوم لا املك بحكم ابعض نفعا ولا ضرا .

أى : قال يوم لا يملك أحد من المعبودين أن ينفع أحدا من العابدين ،  
أو أن يضره ، بل الذي يملك كل ذلك هو الله - تعالى - وحده ،

فالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيَانُ أَنَّ مَرَدَّ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ فِي هَذَا الْيَوْمِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى وَحْدَهُ ، فَالْعَابِدُونَ لَا يَعْصِيكَونَ شَيْئًا ، وَالْمُعْبُودُونَ كَذَلِكَ لَا يَعْصِيكَونَ شَيْئًا .

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ، أَمْ :  
وَنَقُولُ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمَآئِلِ الْهَدِيدِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَمُوا الْحَقَّ بِعِبَادَتِهِمْ  
لَاغِيْرًا ، نَقُولُ لَهُمْ ، ذُوقُوا ، عَذَابَ النَّارِ وَشِدَّةَ عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ تَكْذِبُونَ بِهَا .  
فِي الدُّنْيَا ، وَتَنْكُرُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ بَعْثٌ أَوْ حِسَابٌ ، أَوْ ثَوَابٌ أَوْ عِقَابٌ .

• • •

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من أقوال هؤلاء المشركين .  
 في شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي شأن القرآن الكريم ، ونهتددم  
 بسوء المصير إذا استمعوا في طغيانهم وجهلهم فنقول :

• وإذا أتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل :

وقوله : « تَتْلَى » من التلاوة ، وهى قراءة الشئ ، بالتدبر وتفهم .

أى : وإذا ما تليت آياتنا الدالة دلالة واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق رسولنا ( ﷺ ) فيما يبلغه عنا .

« قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، أى : قالوا على سبيل الإنكار والاستهزاء ، ما هذا التنالى لتلك الآيات إلا رجل يريد أن يمنعكم عن عبادة الآلهة التى يعبدها آباؤكم الأقدمون .

ويعنون بقولهم « ما هذا إلا رجل » : الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، ويقصدون بالإشارة إليه ، الاستخفاف به ، والتحقير من شأنه ( صلى الله عليه وسلم ) .

وقالوا : « يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، لإثارة حية الجماهير فيهم فكانهم يقولون لهم : احذروا اتباع هذا الرجل ، لأنه يريد أن يجعلكم من أتباعه ، وأن يقطع الروابط التى تربط بينكم وبين آباءكم الذين أنتم قطعة منهم .

ولم يكتفوا بالتشكيك فى صدق الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) بل أضافوا إلى ذلك التكذيب للقرآن الكريم ، ويهكى - سبحانه - ذلك فيقول : « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ، .

أى : « وقالوا فى شأن القرآن الكريم : ما هذا الذى يتلوه محمد ( صلى الله عليه وسلم ) علينا ، إلا إفك ، أى : كلام مصروف عن وجهه ، وكذب فى ذاته ، مفترى ، أى : مختلف على الله - تعالى - من حيث نسبته إليه .

فقوله « مفترى » ، صفة أخرى وصفوا بها القرآن الكريم ، فكانهم يقولون : « ما هذا القرآن إلا كذب فو نفسه ، ونسبه إلى الله .

ثم أضافوا إلى تكذيبهم للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وللقرآن ،  
تسكيباً تاماً لكل ما جاء به الرسول من حق فقالوا - كما حكى القرآن  
عنهم - : « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ، إن هذا إلا سحر مبين » .

أى : وقال الكافرون فى شأن كل حق جاءهم به الرسول ( صلى الله  
عليه وسلم ) : ما هذا الذى جئنا به إلا سحر واضح .

ومكذباً نراهم - لعنادهم وجهلهم - قد كذبوا الرسول ( صلى الله عليه وسلم )  
وكذبوا القرآن . وكذبوا كل توجيه قويم ، وإرشاد حكيم ، أرشدهم إليه  
( صلى الله عليه وسلم ) ، إذ اسم الإشارة الأول يعود إلى الرسول ( صلى الله  
عليه وسلم ) والثانى يعود إلى القرآن ، والثالث يعود إلى تعاليم الإسلام كلها .

ثم بين - سبحانه - أن أقوالهم هذه لا تستند إلى دليل أو ما يهيه الدليل ،  
ولما هم يعرفون بما لا يعرفون ، فقال - تعالى - : « وما آتيناهم من كتب  
يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نكير » .

أى : أن هؤلاء الذين قالوا ما قالوا من باطل وزور ، لم نأثمهم بكتب  
يدرسونها ويقرونها ليعرفوا منها أن الشرك حق ، فيكون لهم عذرهم فى  
التمسك به ، وكذلك لم نرسل إليهم قبلك - أيها الرسول الكريم - نذيراً  
يدعهم إلى عبادة الأصنام ، ويخوفهم من ترك عبادتها .

وما دام الأمر كذلك ، فمن أين أتوا بهذا التصميم على شركهم ، وبهذا  
الإنكار للحق الذى جاءهم ؟ إن أمرهم هذا هو فى غاية الغرابة والعجب .

فالمتصور من الآية الكريمة تجهيلهم والتمسك بهم ، ونفى أن يكون عندهم  
حتى ما يشبه الدليل على صحة ما هم فيه من شرك .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فانفروا بكلام

بما كانوا به يشركون ، وقوله - عز وجل - : « أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون » .

ثم بين لهم - سبحانه - يعد ذلك هو أن أمرهم ، وتفاهة شأنهم بالنسبة لمن سبقهم ، فقال : « وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلنا ، فكيف كان نكير » .

والمعشار بمعنى العشر وهو لغة فيه . تقول : عندي عشر دينار ومعشار دينار قال أبو حيان : والمعشار مفعال من العشر ، ولم يكن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المربع ، ومعناها : العشر والرابع . . . (١) .

والضمير في قوله « وما بلغوا » يعود لكفار مكة ، وقوله : « ما آتيناهم » وفي قوله : « فكذبوا رسلنا » يعود إلى الأمم السابقة .

والنكير : مصدر كالإنكار ، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فاعيل .

والمعنى : لا تهزن - أيها الرسول الكريم - لتكذيب قومك لك ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلكم ، وإن قومك لم يبلغوا من القوة والغنى والكثرة . . . عشر ما كان عليه سابقوهم ، ولكن لما كذب أولئك السابقون أنبياءهم ، أخذتم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم جميعاً .

والاستفهام في قوله - تعالى - « فكيف كان نكير » ، للتوبيخ ، والجملة النكيرية معطوفة على مقدر ، والمعنى : نحن نتمادوا في تكذيب رسلنا ، جاءهم إنكارى بالندمير ، فكيف كان إنكارى عليهم بالندمير والإهلاك ؟ لقد كان شيئاً هائلاً فظيماً تركهم في ديارهم جائعين لم يغفوا فيها ، فعلى قومك أن يحذروا منه أن يصيبهم مثله .

وجعل — سبحانه — التدمير إنكاراً ، تنزيلاً للفعل منزلة القول ، كما  
في قول بعضهم : ونشتتم بالافعال لا بالتكلم .

ويرى بعضهم أن الضمير في قوله « وما بلغوا » يعود على الذين من  
قبلهم ، وفي قوله « آتيناهم » يعود إلى كفار مكة .

وقد رجح الإمام الرازي هذا الرأي فقال ما ملخصه . قال المفسرون :  
معنى الآية ، وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين . . . .  
ثم إن الله أخذ هؤلاء المتقدمين ، دون أن تنفعهم قوتهم ، لما كذبوا  
رسولهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء — وهم قومك — .

ثم قال — رحمه الله — : وعندى وجه آخر في معنى الآية ، وهو أن  
يقال : وكذب الذين من قبلهم ، وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، أى :  
الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قومك من البياض والبرهان ،  
وذلك لأن كتابك — يا محمد — أكل من سائر الكتب .

فإذا كنت قد أنكرت على المتقدمين لما كذبوا رسولهم — مع أنهم  
لم يؤتوا معشار ما أوتى قومك من البيان — ، فكيف لا أنكر على  
قومك بعد تمكذيبهم لأوضح الكتب ، وأفصح الرسل . . . (١) .

ويبدو لنا أن المعنى الأول الذى عبر عنه الإمام الرازي بقوله : قال  
المفسرون ، هو الأرجح لأنه هو المتبادر من معنى الآية المكريمة ، ولأنه  
يفيد التقليل من شأن مشركى مكة ، بالنسبة لمن سبقهم من الأمم ، من ناحية  
القوة والغنى .

وفي القرآن الكريم آيات متعددة تؤيد هذا المعنى ، منها قوله  
 — تعالى — : « أولم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين  
 من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأنفذوا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها  
 وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم  
 يظلمون » (١) .

\* \* \*

وبعد هذا الحديث عن أقوال المشركين في شأن الرسول ( صلى الله  
 عليه وسلم ) وفي شأن القرآن . . . . . وبعد هذا الرد الملزم لهم ، والمحقق  
 لمبطلهم . بعد كل ذلك لقن الله — تعالى — نبيه ( صلى الله عليه وسلم )  
 بالحجج الساطعة ، والأقوال الحكيمة ، التي تهدي إلى الرشيد بأبلغ أسلوب ،  
 وأصدق بيان ، فقال تعالى :

(١) سورة الروم : الآية ٩

قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِ  
 وَفُرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ  
 بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ  
 أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ  
 بِالْحَقِّ عَلَماً الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلُ وَمَا  
 يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا  
 يُرْشِدُنِي إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَافَوْتَ  
 وَأَخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ؕ وَأَنَّى لَهُمُ  
 اتِّنَاوُسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ؕ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ  
 بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا  
 فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

وقوله - تعالى - : أعظمكم ، من الوعظ ، وهو تذكير الغير بالخير  
 والبر بكلام مؤثر رقيق . يقال : وعظه وعظاه وعظاه ، إذا أمره  
 بالطاعة ووصاه بها .

وقوله : بواحدة ، صفة لموصوف واحد .

والتقدير : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين الذين قالوا الكذب في شأنك وفي شأن ما جئت به ، قل لهم : إنما أعظكم وأمركم وأوصيكم بكلمة واحدة أو بمخلة واحدة .

ثم فسر - سبحانه - هذه الكلمة بقوله : « إن تقوموا لله مثنى وفرادى ، والمراد بالقيام هنا : التعمير عن ساعد الجد ، وتلقى ما جاءهم به الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) بقلب مفتوح ، وعقل واع ، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكوف على التقليد .

« مثنى وفرادى ، أى : متفرقين إثنين لإثنين ، وواحدًا واحدًا ، وهما منصوبان على الحال .

« ثم تفكروا » بعد ذلك في أمر هذا الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وفي أمر رسالته ، وفي أمر ما جاء به من عنده ، فعند ذلك ترون أنه على الحق ، وأنه قد جاءكم بما يسعدكم .

فالآية الكريمة تأمرهم أن يفكر كل إثنين بموضوعية وإنصاف في أمر الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ثم يعرض كل واحد منهما حصيلة تفكيره على صاحبه ، وأن يفكر كل واحد منهم على انفراد - أيضاً - في شأن هذا الرسول ، من غير تعصب أو هووى .

وقدم الإثنين في القيام على المنفرد ، لأن تفكير الإثنين في الأمور بإخلاص واجتهاد وتدبر ، أجدى في الوصول إلى الحق من تفكير الشخص الواحد ولم يأمرهم بأن يتفكروا في جماعة ؛ لأن العقلية الجماعية كثيراً ما تتبع الانفعال الطارىء ، ولما تقربت في الحكم على الأمور .

إنما أعظم بواحدة إن فعلتموها ، أصبتم الحق ، وتخلصتم - من الباطل - .  
وهي : أن تفروا الوجه الله خالصاً ، متفرقين إثنين إثنين ، وواحد واحد  
ثم تفكروا ، في أمر محمد ( ﷺ ) وما جاء به .

أما الإثنان : فيفكران ويمرض كل واحد منهما بحصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين متنافسين ، لا يميل بهما أتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح على جادة الحق .

وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها ، ويمرض فكره على عقله وفهمه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ويهاري أحوالهم .

والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى ، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمي البصائر ، ويمنع من الروية ، ويغلط القول ، ومع ذلك : يقل الانصاف ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « ما يصاحبكم من جنة ، كلام مستأنف جنى به لتنزيه ساحته ( ﷻ ) » مما افتراه عليه المفترون من كونه قد أصيب بالجنون

أى : اجتمعوا إثنين إثنين ، أو واحد واحد ، ثم تفكروا يا خلاص وروية ، فسترون بكل تأكيد أن محمداً ( ﷺ ) ليس به شيء من الجنون ، وإنما هو أرجح الناس عقلاً ، وأصدقهم قولاً ، وأفضلهم علماً ، وأحسنهم حملاً ، وأزكاهم نفساً ، وأنقاهم قلباً ، وأجمعهم لكل كمال بشري .

وقوله - تعالى - : « وإن هو إلا ففر لكم بين يدي عذاب شديد ، وإن

لوظيفته ( ﷺ ) أي : ليس به ( صلى الله عليه وسلم ) من جنون ، وإنما هو نذير لكم ، يحذركم ويخوفكم من العذاب الشديد الذي سينزل بكم يوم القيامة ، إذا ما بقيتم على شرككم وكفركم ، وهذا العذاب ليس بعيداً عنكم

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثني عبد الله بن ربيعة عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يوماً ، فنادى ثلاث مرات فقال : « إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم خافوا عدواً بأنفسهم . فبعثوا رجلاً يترأى لهم ، فينبا هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه وقال وقال : « أيها الناس أوتيتم ، أيها الناس أوتيتم . »

وبهذا الإسناد قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : « بعثت أنا ولساعة جميعاً ، إن كادت لتسبقني ، ( ١ ) . »

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية أن يصارحهم بأنه لا يريد منهم أجراً على دعوته إليهم إلى ما يسعدهم فقال : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد . »

أي : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - بعد أن دعوتهم إلى التفكيك الهادي ، الثاني في أمرك : إني ما طلبت منكم أجراً على دعوتي إليكم إلى الحق والخير ، وإذا فرض وطلبت فهو مردود عليكم ، لأن لا ألتبس أجرى إلا من الله - تعالى - وحده ، وهو - سبحانه - على كل شيء شهيد وريب ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

قال الألوسي قوله : « قل ما سألتكم من أجر ، أي : مهما سألتكم من

نفع على تبليغ الرسالة ، فهو لكم ، والمراد نفي السؤال رأساً ، كقولك لصاحبك إن أعطيتني شيئاً فخذ ، وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئاً : فإشراطية ، مفعول ، سأنتكم ، وقوله : فهو لكم ، الجواب - .

وقيل هي موصولة ، والعايد محذوف ، ومن للبيان ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط . أى : الذى سألتكموه من الأجر فهو لكم ، وثمرته تعود إليكم . . . (١) .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثالثة ، أن يبين لهم أنهم لا قدرة لهم على مجادلته أو محاربته ، لأن الله - تعالى - قد سلحه بما ينصره عليهم فقال : **قل ربى يقذف بالحق علام الغيوب** . .

وأصل القذف : الرمى بقوة وشدة والمراد به هنا : ما يوحى الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن ، ومن توجيهات وإلهامات . . . والباء في قوله : **بالحق** ، السببية .

أى . قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن ربى يلقى الوحى إلى وإلى أنبيائه ، بسبب الحق الذى كلهم بقبليخه إلى الناس ، وهو - سبحانه - وحده علام الغيوب .

قال الجمل : ما ملخصه قوله : **يقذف بالحق** ، يجوز أن يكون مفعوله محذوفاً ، لأن القذف في الأصل الرمى ، وعبر به هنا عن الإلقاء . أى : يلقى الوحى إلى أنبيائه بالحق ، أى : بسبب الحق ، أو متلبساً بالحق .

وجوز أن يكون التقدير : **يقذف الباطل بالحق** ، كما قال - تعالى - **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه** .

وجوز أن يكون المعنى : **قل إن ربى يقضى ويحكم بالحق** ، بتضمين

« يقذف » معنى يقضى ويحكم ، (١) .

ثم أمره — عز وجل — للمرة الرابعة أن يبين لهم أن باطلهم سيؤول  
للا محالة وسينتهى أمره لإنهاء لن تقوم له بعد قائمة فقال — تعالى — :  
« قل جاء الحق وما يبدى للباطل وما يعيد » .

والإبداء : هو فعل الأمر إبتداء . والإعادة : فعله مرة أخرى ولا يخلو  
الحق عنهما ، فقد مهما كناية عن هلاكه ، كما يقول : فلان يأكل ولا يشرب  
كناية عن هلاكه .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين ، لقد جاء للحق المتمثل في دين  
الإسلام الذى أرسلتني به إليكم ربى ، وما دام الإسلام قد جاء ، فإن  
الباطل المتمثل فى الكفر الذى أتم عليه ، قد آل له أن يذهب وأن يزول ،  
وأن لا يبقى له إبداء أو إعادة ، فقد إندثر وأهبل عليه بالقراب إلى  
غير رجعه .

ثم أمره — سبحانه — للمرة الخامسة أن يهادرهم بأنه مسئول أمام  
الله عما يرشدهم إليه ، وأنهم ليسوا مسئولين عن هدايته أو ضلاله ، فقال  
— تعالى — : « قل إن ضللت فإنا أضل على نفسى ، وإن إهتديت فيما  
يوحى إلى ربى » .

أى : قل لهم — أيها الرسول الكريم — على سبيل الإرشاد والتنبيه ،  
إني إن ضللت عن الصراط المستقيم ، وعن أتباع الحق ، فإنا لائم ضلالى  
على نفسى وحدها لا عليكم ، وإن إهتديت إلى طريق الحق والصواب ،  
فإهتدأت بسبب ما يوحى الله — تعالى — إلى من توجيهات حكيمة ،

وإرشادات قوية ، إنه - سبحانه - سميع ، لـ كل شيء - قريب -  
منى ومنكم :

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة قد أمرت الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
خمس مرات ، أن يخاطب المشركين بما يقطع عليهم كل طريق للشك في  
شان دعوته ، وبما يوصلهم إلى طريق الهداية والسعادة لو كانوا يعقلون :

وأخيراً نرى سورة سبا ، تختتم بهذه الآيات ، التي تصور تصورياً  
مؤثراً ، حالة الكافرين عندما يخرجون من قبورهم للبعث والحساب ، يملوهم  
الهلح والفرع ، ويحال بينهم وبين ما يشتهون ، لأن توبتهم جاءت في غير  
أوانها ... قال - تعالى - :

« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب .

وجواب « لو » محذوف . وكذلك مفعول « ترى » . والفرع : حالة من  
الخوف والرعب تعتري الإنسان عندما يشعر بما يزعجه ويخيفه . والفوت  
النجاة والمهرب .

وهذا الفرع للكافرين يكون عند خروجهم من قبورهم للبعث والحساب ،  
أو عند قبض أرواحهم .

أى : « ولو ترى - أيها العاقل - حال الكافرين ، وقت خروجهم  
من قبورهم للحساب ، وقد اعتراهم الفرع والهلح ... لرأيت شيئاً هائلاً ،  
وأمرأ عظيماً ... »

وقوله « فلا فوت » ، أى : فلا مهرب لهم ولا نجاة يومئذ من الوقوف بين  
يذى الله - تعالى - للحساب ، ولما قبضتهم على كفرهم وجحودهم ...

وقوله : « وأخذوا من مكان قريب » ، معطوف على « فزعوا » ، أى :  
فزعوا دون أن ينفسهم هذا الفرع ، وأخذوا ليلقوا مصيرهم السيئ من مكان  
قريب من موقف الحساب .

قالوا الأوصى : والمراد به ذكر قرب المكان ، سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكمهم ، إلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله - عز وجل - . (١) .

« وقالوا آمنا به ، أى : وقال هؤلاء الكافرون عند ما رأوا العذاب الممد لهم فى الآخرة : آمنا بالله - تعالى - وبأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لا معبود محيى سواه ، وآمنّا بهذا الدين الذى جاءنا به رسوله محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .

وقوله - سبحانه - : « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ، بيا ن لعدم انتفاعهم بما قالوه من إظهار الإيمان فى هذا الوقت .

والتناوش : التناول . يقال : فلاح الشيء ينوشه نوشاً إذا تناوله ومثله قولهم : تناوشوا بالرمح ، أى : تناول بعضهم بعضاً بها .

أى : لقد قال بعد البعث آمناً بهذا الدين ، ومن أين لهم فى الآخرة تناول الإيمان والتوبة من الكفر ، وكان ذلك قريباً منهم فى الدنيا فضيحوا وكيف يظفرون به فى الآخرة وهى بعيدة عن دار الدنيا التى هى محل قبول الإيمان .

فأجلة الكريمة تمثل لحالهم فى طلب الخلاص بعد أن فات أوانه ، وأن هذا الطلب فى نهاية الاستبعاد كما يدل عليه لفظ « أنى » .

قال صاحب الكشف : والتناوش والتناول أخوان . إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب .

وهذا تمثيل لطبيعتهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى هذا الوقت

كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا . مثلث حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة - أى : من مكان بعيد - ، كما يتناول الآخر من قيس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه . ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « وقد كفروا به من قبل ، أى : قالوا آمنا بأن يوم القيامة حق ، والحال أنهم قد كفروا به من قبل في الدنيا ، عند ما دعاهم إلى الإيمان به رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) . »

وقوله - تعالى - : « ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ، بيان لما كانوا عليه في الدنيا من صفاه في القول ، وجرأة في النطق بالباطل ، وفيما لا علم لهم به . »

والعرب تقول لكل من تكلم فيما لا يعلمه : « هو يقذف ويرجم بالغيب والجملة الكريمة معطوفة على قوله : « وقد كفروا به من قبل ، . »

أى : لقد كفروا بهذا الدين بالدنيا ، وكانوا ينطقون بأقوال لا علم لهم بها وبينها وبين الحق والصدق مسافات بعيدة . فقد نسبوا إلى الله - تعالى - اللوثة والشريك ، ويقولون في الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) إنه ساحر . ، وفي شأن البعث : إنه لأحققة له ، وفي شأن القرآن : إنه أساطير الأولين .

فالمقصود بالآية تقريرهم وتجهيلهم ، على ما كانوا يتفوهون به من كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة .

ثم ختم - سبحانه - السورة للكرامة ببيان حرمانهم التام بما يشتهونه فقال : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل لأنهم كانوا في شك مربب . »

وقوله : حيل ، فعل مبنى للمجهول مأخوذ من الحول بمعنى المنع والحجز .  
تقول حال الموج بينى وبين فلان . أى : بمعنى من الوصول إليه ، ومنه  
قوله - تعالى - : : وحال بينهما الموج فكان من المفرقين ، .

أى : وحجز وفصل بين هؤلاء المشركين يوم القيامة ، وبين ما يشتهون ،  
ويتمنون من قبول إيمانهم في هذا اليوم ، أو من العفو عنهم في هذا اليوم ،  
أو من العفو عنهم ورجوعهم إلى الدنيا ... حيل بينهم وبين كل ذلك ، كما  
فعل بأشياءهم من قبل ، أى : كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم ونظرائهم الذين  
سبقهم في الكفر .

«إنهم كانوا ، جميعاً على نمط واحد ، في شك ، من أمر هذا الدين  
«مريب ، أى : موقع في الريبة .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة «سبا ، نسأل الله - تعالى - أن  
يجعله خالصاً أوجهه ، ونافعاً لعباده ، والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات  
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

القاهرة - مدينة نصر      كتبه الفقير إلى عفو ربه  
مساء الأحد ٢٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ      د . محمد سيد طنطاوى

١٦ - - ١٩٨٥ م



| رقم الآية | الآية المفسرة                      | رقم الصفحة |
|-----------|------------------------------------|------------|
|           | المقدمة ..                         | ١٣٧        |
| ١         | الحمد لله الذى له ما فى السموات .. | ١٤٩        |
| ٦         | ويرى الذين أوتوا العلم ..          | ١٥٧        |
| ١٠        | واقعد آتينا داود منا فضلا ..       | ١٦٢        |
| ١٥        | لقد كان لسبأ فى مسكنهم ..          | ١٧٠        |
| ٢٣        | قل ادعوا الذين زعمتم ..            | ١٨٠        |
| ٢٨        | وما أرسلناك إلا كافة ..            | ١٨٨        |
| ٣١        | وقال الدين كفروا لن تؤمن ..        | ١٨١        |
| ٣٤        | وما أرسلنا فى قرية من نذير ..      | ١٩٦        |
| ٤٠        | ويوم يحشرهم جميعا ..               | ٢٠١        |
| ٤١        | وإذا تتلى عليهم آياتنا ..          | ٢٠١        |
| ٤٦        | قل إنما أعظكم بواحدة ..            | ٢١٠        |
| ٥٦        | ولو ترى اذ فوهوا ..                | ٢١٠        |



التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

تفسير  
سُورَةُ فَاطِمَةَ

الدكتور  
محمد سيد طنطاوي  
مفتي الديار المصرية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة وتمهيد

١ - سورة فاطر هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف، وكان نزولها بعد سورة الفرقان - كما ذكر صاحب الإنقان - (١) .

وهي من السور المسكية الخالصة، وتسمى أيضاً - بسورة الملائكة، قال القرطبي؛ هي مكية في قول الجميع، وهي خمس وأربعون آية، (٢)

٢ - سورة فاطر هي آخر السور التي افتتحت بقوله - تعالى - الحمد لله، وقد سبقها في هذا الإفتتاح سور : الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبا .

قال - سبحانه - في إفتتاح سورة فاطر : الحمد لله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً أولاً جنحة مننًى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير .

٣ - ثم تحدث - سبحانه - بعد ذلك عن مظاهر نعمه على عباده، ورحمته بهم، فقال : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يسلك لها، وما يمسك فلا يربط له من بعده، وهو العزيز الحكيم . . .

٤ - ثم توجه السورة الكريمة نداءً إلى الناس، تأمرهم في أولها بشكر الله - تعالى - على نعمه، ونهاهم في ثانيهما عن الاغترار بزينة الحياة الدنيا وعن إلتباع خطوات الشيطان .

قال - سبحانه - : يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض . . .

يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تفرنكم الحياة الدنيا ، ولا يفرنكم بآله الغرور .

هـ - وبعد أن تسلي السورة الكريمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه ، تأخذ في بيان مظاهر قدرة الله - تعالى - في خلقه ، فتذكر قدرته - سبحانه - في إرسال الرياح والسحب ، وفي خلقه للإنسان من تراب ، وفي إيجاده للبحرين : أحدهما عذب فرات سائغ شرابه ، والثاني : ملح أجاج ، وفي إدخاله الليل في النهار والنهار في الليل ، وفي تسخير الشمس والقمر . .

قال - تعالى - : وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحاظريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذاكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير . .

٦ - ثم وجه - سبحانه - نداء ثالثا إلى الناس ، بين لهم فيه : إفتقارهم إليه - تعالى - وحاجتهم إلى عونه وعطائه ، وتحمل كل إنسان لمسئوليته ولنتائج أعماله . .

كما بين لهم - سبحانه - أن الفرقان بين الهدى والضلال ، كالفرق بين الإبصار والعمى ، وبين النور والظلمات ، وبين الحياة والموت ، وبين الظل والحرور .

قال - تعالى - : وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور

ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور . .

٧ - ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، ومن الثواب العظيم الذي أهده - سبحانه - لمن يتلون كتابه وللمن يحافظون على فرائضه ، وعن عقابه الأليم للكافرين الجاحدين لنعمه . . قال - تعالى - : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما نخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور . إن الذين يتلون كتاب الله وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور .

ثم قال - سبحانه - : « والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . . »

٨ - ثم انتقلت السورة الكريمة في أواخرها إلى الحديث عن سمات المشركين ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، وعن مكرهم السيئ الذي لا يحقق إلا بأهله ، وعن نقضهم لعهودهم حيث أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان سعة رحمته بالناس فقال : « ولويؤاخذ الله الناس بما كسبوا ، مترك على ظهورهم من دابة ، وإكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا . »

٩ - وهكذا نرى سورة « فاطر » قد طوفت بالنفس الإنسانية في أرجاء هذا الكون ، وأقامت الآلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، عن طريق

الشمس وفي القمر ، وفي الرياح وفي السحب ، وفي البر وفي البحر . وفي غيب  
ذلك من النعم التي سخرها - سبحانه - لعباده .

كما نراها قد حددت وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وسأقتله  
ما يسأيه ويزيده ثباتا على ثباته ، وما يرشد كل عاقل إلى حسن عاقبة الاعتيان  
وسوء عاقبة الأشرار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٩

د . محمد سيد طنطاوي

القاهرة : مدينة نصر - الثلاثاء ٨ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ

٢٥ / ٦ / ١٩٨٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَىٰ  
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا  
وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ أذكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَنِي تُؤَفَّكُونَ ﴿٣﴾

افتتح سورة فاطر ، - كما سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لسورة نساء ،  
بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين ، وهي أنه المستحق للحمد المطلق ،  
والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجليل الصادر عن اختيار من نعمة  
وغيرها .

ود ال ، في الحمد للاستعراق . بمعنى أن المسبح لجميع الحماد ، ولكافة  
ألوان الثناء هو الله - تعالى - (١) .

وقوله : « قاطر السموات والأرض ، أى خالقهما وموجدهما على غير مثال يحتذى ، إذ المراد بالاطر هنا : الابداء والاختراع للشيء الذى لم يوجد ما يشبهه من قبل .

قال القرطبي : والاطر : الخالق ، والاطر - بفتح الفاء - : الشئ من الشئ . يقال : فطرته فاطر ، ومنه : فطر ناب البعير ، أى : طلع ، وتطر الشئ ، أى : تشيى .

والاطر : الابداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدري ما « قاطر السموات والأرض » حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرته ، أى : أنا ابتدأتها .

والمراد بذكر السموات والأرض : العالم كله ، ونبه بهذا على أن من قدر على الابداء ، قادر على الإعادة ، (١) .

والمعنى : الحمد المطلق ، والثناء التام الكامل لله - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - الخالق للسموات والأرض ، المكون بأسره ، دون أن يسبقه إلى ذلك سابق ، أو يشاركه فيما خلق وأوجد مشارك .

وقوله - تعالى - : « جعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - تعالى - التى لا يعجزها شئ . والملائكة : جمع ملك ، والفاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملاك ، وهم جنود من خلق الله - تعالى - وقد وصفهم - سبحانه - بصفات متعددة ، منها : أنهم « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » ، وأنهم « عباد مكرمون » .

لا يعصون الله ما أمروا ، ويفعلون ما يؤمرون .

قال الجمل : وقوله : « جاعل الملائكة ، أى : بعضهم ، إذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم ، وقوله : « أولى أجنحة ، نعت لقوله « رسلا » ، وهو جيد لفظاً لتوافقهما تفكيراً . أو هو نعت للملائكة ، وهو جيد معنى إذ قل الملائكة لها أجنحة ، فهى صفة كاشفة . » (١) .

وقوله : « مثنى وثلاث ورباع ، أسماء معدول بها عن إثنين وإثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وهى متنوعة من الصرف ، لوصفية والعدل من المكرر وهى صفة لأجنحة .

أى : الحمد لله الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، والذى جعل الملائكة رسلا إلى أنبيائه ، وإلى من يشاء من عباده ، ليبلغوهم ما يأمرهم — سبحانه — بتبليغه إليهم .

وهؤلاء الملائكة المكرمون ، ذوى أجنحة عديدة . منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ؛ لأن المراد بهذا الوصف ، بيان كثرة الأجنحة لا حصرها .

قال الآلوسى ما ملخصه قواه : « جاعل الملائكة رسلا . . . » معناه : جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه الصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسائهم بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثا وقدرته وصنعه ، كالأمطار والرياح وغيرهما .

وقوله : « مثنى وثلاث ورباع ، معناه : أن من الملائكة من له جناحان

ومنهم من له ثلاث ، ومنهم من له أربعة ، ولا دلالة في الآية على نفي الإلهية ، وما ذكر من عدد للدلالة على التكثير والتفاوت ، لا لتعيين ولا لنفي النقصان من اثنين .

فقد أخرج الشيخان عن ابن مسعود في قوله — تعالى — : لقد رأى من آيات ربه الكبرى وأن الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) رأى جبريل وله ستائة جناح (١) .

وقوله — تعالى — : يزيد في الخلق ما يشاء ، إستئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من كمال قدرته ، ونفاذ إرادته .

أى : يزيد - سبحانه - في خلق كل ما يريد خلقه ما يشاء أن يزيد من الأمور التي لا يحيط بها الوصف ، ومن ذلك أجنحة الملائكة فيزيد فيها ما يشاء ، وكذلك ينقص في الخلق ما يشاء ، والكل جوار على مقتضى الحكمة والتقدير .

قال صاحب الكشاف : قوله : يزيد في الخلق ما يشاء ، أى : يزيد في خلق الأجنحة ، وفي غيره ما يقتضيه مشيئته وحكمته .

والآية مطابقة لتناول كل زيادة في الخلق : من طول قامته ، واعتدال صورة وتام الأضواء ، وقوة في البطش ، وحصانة العقل ، وجرالة في الرأى ، وجرلة في القلب ، وسماحة في النفس ، وخلاقة في اللسان ، ولياقة في التكلم ، وحصن ثمان في مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف . . . (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ٢٢ ص ٩٦١

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٩٥

ثم ختم - سبحانه - الآية بالذكر بقوله : « إن الله على كل شيء قدير » أى : إن الله - تعالى - لا يعجزه شيء يريد ، لأنه قدير على فعل كل شيء . فالجملة السكريمة تعليل لما قبلها ، من كونه - سبحانه - يريد في الخلق ما يشاء ، وينقص منه ما يشاء .

وقوله - تعالى - : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . . » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته وفضله على عباده .

والمراد بالفتح هنا : الإطلاق والإرسال على سبيل المجاز . بعلاقة السببية لأن فتح الشيء المخلق ، سبب لإطلاق ما فيه وإرساله .

أى : ما يرسل الله - تعالى - بفضله وإحسانه للناس من رحمة متمثلة في الأمطار ، وفي الأرزاق ، وفي الصحة . . وفي غير ذلك ؛ فلا أحد يقدر على منعها عنهم .

« ما يمسك فلا يرسل له من بعده ، أى : وما يمسك من شيء لا يريد إعطائه لهم ، فلا أحد من الخلق يستطيع إرساله لهم . بعد أن منعه الله - تعالى - عنهم .

« وهو » - سبحانه - « العزيز » الذى لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أقواله وأفعاله .

وعبر - سبحانه - فى جانب الرحمة بالفتح ، الإشعار بأن رحمة - سبحانه - من أعظم النعم وأعلامها ، حتى لسكانها بمنزلة الخزائن المليئة بالخيرات والننى متى فتحت أصاب الناس منها ما أطابوا من تقع وبر .

« ما يمسك فلا يرسل له من بعده ، أى : وما يمسك من شيء لا يريد إعطائه لهم ، فلا أحد من الخلق يستطيع إرساله لهم . بعد أن منعه الله - تعالى - عنهم .

وجاء مذكراً في قوله : فلا يرسل له ، لأنه تشملها ويشمل غيرها ، أى : وما يمسك من رحمة أو غيرها من عبادته فلا يستطيع أحد أن يرسل ما أمسكه - سبحانه - .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بغير فلا راد لفضله . . (١) .

وقوله - سبحانه - : وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بغير فهو على كل شيء قدير ، (٢) .

قال ابن كثير : وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري . أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعده . . . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك ، (٣) - أى : ولا ينفع صاحب الغنى غناه وإنما الذى ينفعه من عمله الصالح .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بذكره وشكره فقال : يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض . . .

والمراد من ذكر النعمة : ذكرها باللسان وبالقلب ، وشكر الله - تعالى - عليها ، واستعمالها فيما خلقت له .

(١) سورة يونس الآية ١٠٧

(٢) سورة الأنعام الآية ١٧

(٣) نفسه ابن كثير ج ٦ ص ٥٢٠

والمراد بالنعمة هنا : النعم الكثيرة التي أنعم بها - سبحانه - على الناس ، كنعمة خلقهم ، ورزقهم ، وتسخير كثير من الكائنات لهم .

والاستفهام في قوله : هل من خالق غير الله يرزقكم ، للنفي والإنكار ، أى : يا أيها الناس اذكروا بالستكم وفلوبيكم ، نعم الله - تعالى - عليكم ، واشكروه عليها ، واستعملوها في الوجوه التي أمركم باستعمالها فيها ، واعلموا أنه لا خالق غير الله - تعالى - يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنبات والزرع والثمار وما يشبه ذلك من الأرزاق التي فيها حياتكم وبقاؤكم .

وقوله - تعالى - : لا إله إلا هو ، جملة مستأنفة لتقرير النفي المستفاد مما قبله ، أى : لا إله مستحق للعبادة والطاعة إلا الله - تعالى - ، إذ هو الخالق لكم ، وهو الذي أعطاكم النعم التي لا تعد ولا تحصى .

فأني تؤفكون ، أى : وما دام الأمر كذلك : فكيف تصرفون عن إخلاص العبادة لخالقكم ورازقكم ، إلى الشرك في عبادته .

فقوله : تؤفكون ، من الأفك - بالفتح - بمعنى الصرف والقلب ، يقال : أفك عن الشيء ، إذا صرفه عنه ، ومنه قوله - تعالى - : قالوا أجنبتنا لنافكنا عما وجدنا عليه آباءنا ، أى : لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا .

• • •

وبعد هذا البيان المعجز لمظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، هيئته على شئون خلقه . . أخذت السورة الكريمة في تسليية النبي (ﷺ)

في بيان مصير

وَإِنْ يَكْذِبُوكَ

فَقَدْ كَذَبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٦﴾ يٰٓأَيُّهَا  
النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ  
الْغُرُورُ ﴿٧﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكِرَّ عَدُوٍّ فَآخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ  
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٨﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٩﴾ أَقْسَنُ زِينَةٍ  
لَّهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ  
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿١٠﴾

قال الألوسي : قوله : « وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ » ،  
تسليية له (صلى الله عليه وسلم) بعموم البلية والوعد له (صلى الله عليه وسلم)  
والوعيد لأعدائه .

والمعنى : « وَإِنْ اسْتَمَرُوا عَلَى أَنْ يَكْذِبُوكَ فِيمَا بَلَغْتَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ  
الْمَبِينِ » ، فأناس بأولئك الرسل في الصبر ، فقد كذبهم قومهم فصيروا على  
تكذيبهم . الجملة « فَقَدْ كَذَبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ » ، قاتمة مقام جواب الشرط ،  
والجواب في الحقيقة ناس ، وأقيمت تلك الجملة مقامه ، اكتفاء بذكر السبب  
من ذكر السبب ... (١) .

وجاء لفظ الرسل بصيغته التثنية ، للإشعار بكثرة عددهم ، وسمو منزلتهم .  
 أى : وإن يكذبك - أيها الرسول الكريم - قومك ، فلا تعجزن ولا تيئسن ،  
 فإن إخوانك من الأنبياء ، الذين سبقوك ، قد كذبهم أقوامهم ، فأنت لست  
 بدعا في ذلك .

ومن الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : : ما يقال لك  
 إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . . (١) .

وقوله - عز وجل - : : ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا  
 وأؤذوا حتى أتاهم نصرنا . ولا مبدل لأكلمات الله . . (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يريد في تسليته - صلى الله عليه  
 وسلم - فقال : : وإلى الله ترجع الأمور . .

أى : وإلى الله - تعالى - وجده ترجع أمور الناس وأحوالهم وأعمالهم  
 وأقوالهم ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى  
 الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - فداء ثانيا إلى الناس ، بين لهم فيه أن البعث حق ،  
 وأن من الواجب عليهم أن يستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل  
 الصالح ، فقال - تعالى - : : يا أيها الناس إن وعد الله حق . . .

أى : إن ما وعدكم الله - تعالى - به من البعث والحساب والثواب والعقاب  
 حق لا ريب فيه ، وما دام الأمر كذلك فلا تغربكم الحياة الدنيا ، أى :  
 فلا تخذعنكم بمتعتها ، وشهواتها ، ولذائذها ، فأبها إلى زوال وفناء ، ولا تشغلنكم  
 بهذه الحياة الدنيا عن أداء ما كفكمكم - سبحانه - بأدائه من فرائض وتكاليف

« ولا يغرنكم بالله الغرور ، أى : ولا يخدعنكم عن طاعة ربكم ،  
ومالك أمركم ، الغرور ، » .

أى : الشيطان المبالغ فى خداعكم ، وفى صرفكم عن كل ما هو  
خير وير .

فالمراد بالغرور هنا : الشيطان الذى أقسم بالإيمان المغلظة ، بأنه لن  
يكف أبداً عن إغواء بنى آدم ، وعن تزيين الشرور والآثام لهم .

فالقصد بالآية الكريمة تذكير الناس بيوم القيامة وما فيه من أهوال  
وتحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

ثم أكد — سبحانه — هذا التحذير بقوله : « إن الشيطان لكم عدو ،  
يا بنى آدم ، عداوة قديمة وباقية إلى يوم القيامة . »

وما دام الأمر كذلك ، فانخذوه عدوا ، أى : فانخذوه أنتم عدوا لكم  
فى عقائدكم . وفى عبادتكم ، وفى كل أحوالكم ، بأن تخالفوا وسوسته  
وممزاته وخطواته . .

وقوله : « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، تقرير ونأكد  
لهذه العداوة . »

أى : اتخذوا — يا بنى آدم — الشيطان عدوا لكم ، لأنه لا يدعو  
أتباعه ومن هم من حزبه إلى خير أبداً ، وإنما يدعوهم إلى العقائد الباطلة ،  
والأفوال الفاسدة ، والأفعال القبيحة التى تجعلهم يوم القيامة من أهل النار  
الهديدة الاشتعال . .

ثم بين — سبحانه — أقسام الناس يوم القيامة فقال : « الذين كفروا ،

هكل ما يجب الإيمان به ، لهم عذاب شديد ، بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر خالقهم — عز وجل — ، واتباعهم للشيطان . .

والذين آمنوا وعملوا ، الأعمال ، الصالحات لهم ، من ربهم ، مغفرة ، عظيمة ، واجر كبير ، لا يعلم مقداره إلا الله — تعالى — .

ثم بين — سبحانه — الفرق الشاسع بين المؤمنين والكافر ، والطيع ، والعاصي ، فقال : « أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا . . »

والاستفهام للإنكار ، و « من » ، موصولة في موضع رفع على الابتداء . والجملة بعدها صلتها ، والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه ، و « زين » من التزيين بمعنى التحسين ، وقوله « سوء عمله » أى : عمله السيئ ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .

والمعنى : أفن زين له الشيطان عمله السيئ ، فرآه حسنا ، كن ليس كذلك ؟ كلا إنهما لا يستويان في عرف أى قائل ، فإن الشخص الذى ارتكب الأفعال القبيحة التى زينها له الشيطان ، أو نفسه الأماراة بالسوء ، أو هو . . مصيره إلى الشقاء والتعاسة .

أما الشخص الذى خالف الشيطان ، والنفس الأماراة بالسوء ، والهوى المردى . . فصيره إلى السعادة والفلاح .

وقد صرح — سبحانه — بالأمرين في آيات منها قوله — تعالى — « أفن كان على بيته من ربه ، كن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ، ؟ »

وجملة « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » تعليل لسببية التزيين

أى : هؤلاء الذين يعملون الأعمال السيئة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لا قدرة لك على هدايتهم - أيها الرسول الكريم - فإن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يضل من يشاء لإضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته .

والفاء فى قوله - تعالى - « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، للتفريع . والحسرات جمع حسرة ، وهى أشد ما يعترى الإنسان من ندم على أمر قد مضى وانتهى والجار والمجرور ، عليهم ، متعلق بقوله « حسرات » .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فامض فى طريقك وبلغ رساله ربك ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا تهلك نفسك هما وغما وحزنا من أجل هؤلاء الذين أعزها على الحق ، واعتنقوا الباطل ، وظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا . .

ثم ختم - سبحانه - الآية المكرمة بما يزيد فى تسليمة الرسول ﷺ - فقال - تعالى - : « وإن الله هليم بما يصنعون » .

أى : إن الله - تعالى - لا يغنى عليه شئ مما يفعله هؤلاء الجاهلون من أفعال قبيحة ، وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقونه من عقاب . وشبهه بهذه الآية قوم - تعالى - : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (١) .

وقوله - سبحانه - : « فاعلمك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٢) .

. . .

(١) سورة الشعراء . الآية ٢

(٢) سورة البكف . الآية ٦

وبعد هذه التلمية من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وبعد هذا التحذير من وسوسة الشيطان ومن خداعه ، وبعد هذا البيان لسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، بعد كل ذلك . . . ساقط السورة السكرية ألوانا من نعم الله - تعالى - على عباده ، ومن رحمته بهم ، نرى ذلك في الرياح وفي السحب ، وفي البحار والأنهار ، وفي الليل والنهار ، وفي الشمس والقمر . . . وفي غير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة في هذا لاكون .

قال - تعالى - :

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُهْبِتُهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْنُشُورُ ﴿١﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلِّهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ

كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ  
 فِيهِ مَوَاحِرَ تَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي  
 النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ  
 مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا  
 يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا  
 مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْبِيئُكَ مِثْلُ  
 نَخِيرٍ ﴿١٤﴾

قال أبو حيان - رحمه الله - : لما ذكر - سبحانه - أشياء من  
 الأمور السماوية ، وإرسال الملائكة ، أتبع ذلك بذكر أشياء من الأمور  
 الأرضية كالرياح وإرسالها ، وفي هذا احتجاج على منكري البعث ، دلهم  
 على المثال الذي يعاينونه ، وهو وإحياء الموتى سيان ، وفي الحديث أنه قيل  
 لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في  
 خلقه ؟ فقال : هل مررت بوادي آهلا محلا - أي مجد بالانبياء فيه - ، ثم  
 مررت به يئز حضرا : فقالوا : نعم فقال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك  
 آيته في خلقه ( ١ ) .

فقوله - تعالى - : والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا وبيان لمظهر  
 آخر من مظاهر قدرته - هو وجل - ومن سعة رحمته بعباده .

وقوله : «فتنهم» من الإنارة بمعنى التهييج والتحريك من حال إلى حال .

( ١ ) تفسير البحر المحيط ج ٧ ص ٢٠٧ لابي حيان

أى : والله - تعالى - وحده ، هو الذى أرسل الرياح ، فجعلها بقدرة  
للتناغذة تحرك السحب من مكان إلى مكان ، فتذهب بها تارة إلى جهة الشمال ،  
وتارة إلى جهة الجنوب ، وتارة إلى غير ذلك .

وقوله : فسقناه إلى بلد ميت ، بيان للحكمة من هذه الإثارة ، والمراد  
بالبلد الميت : والأرض الجدياء التى لا نبات فيها ، والضمير فى « فسقناه »  
يعود إلى السحاب .

وقوله : فأحيينا به الأرض بعد موتها ، أى : فأحيينا بالمطر النازل  
من السحاب الأرض الجدياء ، فامتزت وربت وأنبثت من كل زوج بهيج ،  
فالضمير فى قوله « به » ، يعود إلى المطر ؛ لأن السحاب يدل عليه لما بينهما  
من تلازم ، ويصبح أن يعود إلى السحاب لأنه سبب نزول الأمطار .  
وقال - سبحانه - « فتثير » بصيغة المضارع ، استحضارا لتلك الصورة  
البديعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ، والتى من شأنها أن تغرس العظام  
والعبر فى النفوس .

وقال - سبحانه - « فسقناه » ، فأحيينا ، بنون العظة ، وبها الفعل الماضى ،  
للدلالة على تحقق قدرته ورحمته بعباده .  
قال صاحب الكشف ما ملخصه : فإن قلت : لم جاء « فتثير » على  
المضارع دون ما قبله ، ما بعده ؟

قلت : ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة للرياح للسحاب ، وتستحضر  
تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بكل ما فعل  
فيه نوع تمييز وخصوصية .

ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد  
موتها ، من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما  
عن لفظ الغيبة ، إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه . (١) .  
والكاف فى قوله - تعالى - : « كذلك النشور » ، بمعنى مثل ، وهو على

رفع على للخبرية ، أى : مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه للأرض بعد نزول المطر عليها ، يكون لإحياء الأموات منكم .

قال الإمام الرازى : فإن قيل ما روجه التشبيه بقوله : كذلك للنشور ؟ فالجواب من وجوه :

أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللاتمة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة .

ثانيها : كما أن للريح يجمع القطع السحابية ، كذلك يجمع - سبحانه - بين أجزاء الأعضاء .

ثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت ، كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت (١) .

والنشور : الإحياء والبعث بعد الموت . يقال : أنشرك الله - تعالى - الموتى ونشركم ، إذا أحياهم بعد موتهم . ونشر الراعى غنمه ، إذا بنها بعد أن أواها ثم بين - سبحانه - أن العزة الكاملة إنما هى لله - تعالى - وحده فقال : من كان يريد العزة فلله العزة جميعا .

والمراد بالعزة : الشرف والمنعة والاستعلاء ، من قولهم : أرض عزاز أى : صلبة قوية ، ومنه ، شرطية ، وجواب الشرط محذوف ، وقوله : فله العزة جميعا ، تعليل للجواب المحذوف .

والمعنى من كان من الناس يريد العزة التى لازمة معها . فليطمع الله وليعتمد عليه وحده فله - تعالى - العزة كلها فى الدنيا والآخرة وليس لغيره منها شئ . وفى هذا رد على المشركين وغيرهم ممن يطلبون العزة من الأصنام أو من غيرها من المخلوقات قال - تعالى - : واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونوا عليهم ضدا ، (٢) .

(١) تفهيم الفخر الرازى ج ٧ ص ٢٢

(٢) سورة مريم الآية ٨١ ، ٨٢

وقال - سبحانه - : الذين يتخذون للكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتنون عذرم العزة . فإن العزة لله جميعاً (١) .

قال القرطبي ما ملخصه : يريد - سبحانه - في هذه الآية ، أن ينبه ذوي الأنداد والهمم ، من أين تنال العزة ومن أين تستحق . فن طلب العزة من الله - تعالى - وجدها عنده . - إن شاء الله - ، غير ممنوعة ولا محجوبة عنه . ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده ، وقال ( ﷺ ) مفسراً لهذه الآية : من أراد عز الدارين فليطع العزيز ، ولقد أمن القائل وإذا تذلل الرقاب مواضعاً : منا إليك فعزها في ذلكا .

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، فليعتز بالله - تعالى - فإن من اعتر بغير الله ، أذله الله ، ومن اعتر به - سبحانه - أعزه ، (٢) .

ولا تنافي بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : و لله العزة و لرسوله وللمؤمنين ، لأن العزة الكاملة لله - تعالى - وحده وأما عزة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فمستمدة من قربته من الله - تعالى - ، كما أن عزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - ورسوله ( صلى الله عليه وسلم ) .

والخلاصة أن هذه الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى الطريق الذي يوصلهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية ، ألا وهو طاعة الله - تعالى - ، والاعتماد عليه والاعتزاز به .

وقوله - سبحانه - : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . يحض المؤمنين على النطق بالكلام الحسن ، وعلى الإكثار من العمل الصالح

و . يصعد ، من الصعود بمعنى الإرتفاع إلى أعلى والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع . يقال صعد في السلم وصعد صعودا ؛ إذا إرتقام وإرتفع فيه .

و . السكلم ، اسم جنس بمعنى واحدة كلمة .

والمراد بالكلم الطيب : كل كلام يرضى الله - تعالى - من تسبيح وتحميد وتكبير ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، وغير ذلك من الأقوال الحسنة .

والمراد بصعوده . قبوله عند الله - تعالى - ورضاه عن صاحبه ، أو صعود صحائف هذه الأقوال الطيبة .

والمعنى : إليه - تعالى - وحده ، لا إلى غيره يصعد السكلم الطيب ، أى : يقبل عنده ، ويكون مرضيا لديه ، أو إليه - وحده - ترفع صحائف أعمال عباد الصادقين فيجازيهم بما يستحقون من ثواب ، والعمل الصالح الصادر من عباده المؤمنين يرفعه الله - تعالى - إليه ، ويقبله منهم ، ويكافئهم عليه .  
فالفاعل لقوله : يرفعه ، ضمير يعود على الله - تعالى - ، والضمير المنصوب يعود إلى العمل الصالح أى : يرفع الله - تعالى - العمل الصالح إليه ، ويقبله من أصحابه .

ومنه من يرى أن الفاعل لقوله يرفعه ، هو العمل الصالح ، والضمير المنصوب يعود إلى السكلم الطيب . أى : أن العمل الصالح هو الذى يرفع السكلم الطيب ، بأن يجعله مقبولا عند الله - تعالى - .

ومنه من يرى العكس ، أى : أن السكلم الطيب هو الذى يرفع العمل الصالح .

قال الشوكاني ماملخصه : ومعنى : « والعمل الصالح يرفعه » ، أن العمل الصالح يرفع السكلم الطيب . كما قال الحسن وغيره ، ووجه أنه لا يقبل الكلم

الطيب إلا مع العمل الصالح وقيل : إن فاعل ، يرفعه ، وهو الكلم الطيب ، ومفعوله الصالح ، ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل : إن فاعل ، يرفعه ، ضمير يعود إلى الله - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ؛ لأن العمل يحقق الكلام ، وقيل : والعمل الصالح هو الذي يرفع صاحبه . (١) .

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال ، أن يكون الفاعل لقوله ، يرفعه ، هو الله - تعالى - ، وأن الضمير المنصوب عائد إلى العمل الصالح ؛ لأن الله - تعالى - هو الذي يقبل الأقوال الطيبة ، وهو - سبحانه - الذي يرفع الأعمال الصالحة ويقبأها هذه من عباده المؤمنين .

ثم بين - تعالى - بعد ذلك سوء عاقبة الذين يمكرون السوء فقال : والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور .

والمكر : التدبير المحكم ، أو صرف غيرك عما يريد به بحيلة ، وهو مذموم إن تحرى به صاحبه الشر والسوء - كما في الآية الكريمة ، ومحمود إن تحرى به صاحبه الخير والنفع و «السيئات» جمع سيئة وهي صفة الموصوف محذوف .

وقوله «يبور» أي : يبطل ويفسد ، من البوار ، يقال : بل المتاع بواراً إذا كسد وصار في حكم الهالك .

أي : والذين يمكرون المسكرات السيئات من المشركين والمنافقين وأشباههم ، لهم عذاب شديد من الله - تعالى - ، ومكر أولئك الماكرون المفسدين ، ومصيره إلى الفساد ، والخراب ؛ لأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله .

و يدخل في هذا المكر المسمى ما فعله المشركون مع الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) في دار الندوة ، حيث بدتوا قتله ، ولكن الله - تعالى نجاه من ضرورهم ، كما يدخل فيه غير ذلك من أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، ونياتهم الخبيثة .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك دليلا آخر على صحة البعث والنشور ، وعلى كمال قدرته - تعالى - فقال : « والله خلقكم من تراب ، أى : خلقكم لإبتداء في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب » ثم من نطفة ، وأصلها الماء الصافي أو الماء القليل الذى يبقى في الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف ، يقال : نظفت القربة إذا أقطرت .

والمراد بها هنا : المني الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة .

« ثم جعلكم أزواجا ، أى : أصنافا ذكرانا وإناثا ، كما قال - تعالى - : « أوزوهم ذكرا وإناثا » ، أو المراد : ثم جعلكم تتزاجون ، فالرجل يتزوج المرأة ، والمرأة تتزوج الرجل . ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، أى : لا يحصل من الأنثى حمل ، كما لا يحصل منها وضع لما في بطنها إلا والله - تعالى - عالم به علما تاما لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء .

« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب » والمراد بالمعمر الشخص الذى يطيل الله - تعالى - عمره .

والضمير في قوله « ومن معمر » يعود إلى شخص آخر ، فيكون المعنى : ما بعد - سبحانه - في عمر أحد من الناس ، ولا ينقص من عمر أحد آخر ، إلا وكل ذلك كائن وثابت في كتاب عنده - تعالى - ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ ، أو صحائف أعمال العباد ، أو علم الله الأزل .

ومنهم من يرى أن في قوله « ومن عمر » يعود إلى الشخص ذاته وهو المعمر

فيكون المعنى ، وما يمد الله - تعالى - في عمر إنسان ، ولا ينقص من عمره بمعنى أيام حياته ، إلا وكل ذلك ثابت في علمه - سبحانه - .

قال بعض العلماء : وقد أطال بعضهم الكلام في ذلك ، ومحصلة : إنه اختلف في معنى « معمر » فقيل : هو المزداد عمره : بدليل ما يقابله من قوله « ولا ينقص » وقيل : المراد بقوله « معمر » من يجعل له عمر ، وهل هو شخص واحد أو شخصان ؟

فعلى رأى من قال بأن المعمر ، هو من يجعل له عمر يكون شخصا واحدا بمعنى أنه يكتب عمره مائة سنة - مثلا - ، ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا . فكتابة الأصل هي التعمير ، والكتابة بعد ذلك هو النقص كما قيل :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منها انتقصت به جزءا

والضمير حينئذ راجع إلى المذكور ، والمعمر هذا هو الذي جعل الله - تعالى - له عمرا طال هذا العمر أو قصر .

وعلى رأى من قال بأن المعمر هو من يزداد في عمره ، يكون من ينقص في عمره غير الذي يزداد في عمره فهما شخصان ، والضمير في « عمره » على هذا الرأى يعود إلى شخص آخر ، إذ لا يكون الموزد من عمره منقوصا من عمره ... (١) .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - الرأى الأول ، وهو أن الضمير في قوله « من عمره » يعود إلى شخص آخر . فقال : وأولى التأويلين في ذلك عندي باصواب ، التأويل الأول ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنيين وأشبههما بظاهر التنزيل (٧) .

واسم الإشارة في قوله : إن ذلك على الله يسره ، يعود إلى الخلق من تراب وما بعده .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم من تراب ، ثم من نقطة .. يسروه بين على الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يعجزه شئ على الإطلاق . ثم ذكر - سبحانه - نوعاً آخر من أنواع بديع صنعه ، وعجيب قدرته ، فقال : وما يستوى البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج . . . والماء العذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة ، وهو ماء الأنهار ، وسمى فراتاً لأنه يفرغ المعطش ، أى : يقطعه ويريله ويكسره .

والماء المالح الأجاج : هو شديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سعى أجاجاً من الأجاج وهو قلب النار ، لأنه شربه يزيد العطشان عطشاً وتعباً قالوا : والآية الكريمة مثل للمؤمن والكافر ، فالبحر العذب : مثل للمؤمن ، والبحر المالح : مثل للكافر .

فكما أن للبحرين اللذين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه ، والآخر ملح أجاج . لا يتساويان في طعمهما ومذاقهما ، - وإن اشتركا في بعض الفوائد - فكذلك المؤمن الكافر ، لا يتساويان في الخاصية العظمى التى خلقا من أجلها ، وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، - وإن اشتركا في بعض الصفات الأخرى كالسقاء والشجاعة - لأن المؤمن استجاب لفطرته فأمن بالحق ، أما الكافر فقد عاند فطرته ، فأصر على الكفر .

وقوله : : ومن كل ثأ كلون لحاً طرياً ، بيان لبعض النعم التى وهبها - سبحانه - لعباده من وجود البحرين .

أى : ومن كل واحد منهما ثأ كلون لحاً طرياً ، أى : غصناً شهيئاً مفيداً لأجسادكم ، عن طريق ما تصطادونه منهما من أسماك وما يشبههما .

قال بعض العلماء ، وفي وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرح إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر المأكولات فسيحان الخبير بثنون خلقه .

وفيه - أيضا - إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - حيث أوجد هذا اللحم الطرى النافع في الماء المالح الأجاج الذى لا يشرب .

وقد ذكره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حنف أنفه في الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر بن عبد الله ، عن النبي ( ﷺ ) أنه قال : « ما نضب عنه الماء فكلوه ، وما لفظه الماء فكلوه ، وما طفا - على وجه الماء - فلا تأكلوه » .

فلتراد من ميتة البحر في حديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ، وما لفظه البحر لا مامات فيه من غير أخذ ، (١) .

وقوله - تعالى - : « وتستخرجون حلية تلبسونها ، بيان لنعمة ثانية من النعم التي تصل إلى الناس عن طريق البحرين .

والحلية - بكسر الحاء - : اسم لما يتحلى به الناس ، ويتزينون بلبسه ، وجمع حليته : حلى وحلى - بكسر الحاء وضمها - يقال : تحلت المرأة إذا لبست الحلى .

أى : ومن النعم التي تصل إليكم عن طريق البحرين ، استخراجكم منهما ما ينفعكم ، وما تتحلى - نساؤكم ، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما .

والتعبير بقوله : « وتستخرجون » إلى كثرة الإخراج ، فالسفن والتاء هنا كيد . كما يشير بأن من الواجب على المسلمين ، أن يباشروا بأنفسهم

استخراج ما في البحرين من كنوز نافعة ، وأن لا يتركوا ذلك لأعدائهم .  
 وأسند — مبيحانه — لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور ، فقال  
 « تلبسونها ، على سبيل للتغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء في الأمم  
 الأغلب من الأحوال .

قال الألوسي ما ملخصه ، وقوله : « تلبسونها ، أى : تلبسها نساؤكم  
 وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهم ، وكونهم متبوعين ،  
 أو لأنهم سبب لتزيينهم ، فإن النساء يتزين — في الغالب — ليحسن في  
 أعين الرجال . . . (١) .

وقال بعض العلماء : وفي الآية دليل قرآني واضح على بطلان دعوى  
 بعض العلماء من أن اللؤلؤ والمرجان ، لا يستخرجان إلا من البحر المالح  
 خاصة ، (٢) .

وقوله — تعالى — « وترى ذلك فيه مواخر ، بيان لنعمة ثالثة من  
 نعمه — تعالى — من طريق وجود البحار في الأرض .

وأصل المخر : الشق . يقال مخزت السفينة البحر إذا شقته وسارت بين  
 أمواجه ومخر الماء الأرض إذا شقها .

أى : وترى — أيها العاقل — يهرك السفن في كل من البحرين «مواخر»  
 أى تشق الماء بمقدماتها ، وتسرع السير فيه من جهة إلى جهة .

والضمير في قوله «فيه» ، يعود إلى البحر المالح ، لأن أمر الفلك فيه أعظم  
 من أمرها في البحر العذب ، وإن كانت السفن تجري في البحرين .

ويحوز أن يكون الضمير في قوله «فيه» ، يعود إلى جنس البحر ، أى :  
 وترى السفن تشق كل بحر ، لتسير فيه من مكان إلى مكان .

(١) تفسير الألوسي ج ١٤ ص ١١٣

(٢) أضواء البيان ج ٦ ص ٦٤٠ الشيخ الشنقيطي — رحمه الله — .

واللام في قوله - تعالى - : لنبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، متعلقة بحذوف دل عليه الكلام السابق .

أى : أوجدنا البحرين ، وسخرناهما لمنفعتكم ، لتطلبوا أرزاقكم فيهما ، وهذه الأرزاق هي من فضل الله - تعالى - عليكم ، ومن رحمته بكم ، وعلكم بعد ذلك تشكرونا على آلائنا ونعمنا ، فإن من شكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا .

ثم بين - سبحانه - نعماً أخرى تتجلى في الليل وفي النهار ، وفي الشمس والقمر ، فقال : « يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، . . »

أى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه أوجد لكم الليل والنهار بهذا النظام البديع ، بأن أدخل أحدهما في الآخر ، وجعلهما متعاقبين مع زيادة أحدهما عن الآخر في الزمان ، على حسب اختلاف المطالع ، والمغارب وأوجد - أيضاً - فضله ورحمته الشمس والقمر لمنفعتكم ، وكل واحد منهما يسير بنظام بديع محكم ، إلى الأجل والوقت الذي حدده الله - تعالى - لانتهاء عمر هذه الدنيا . .

والإشارة في قوله : « ذلكم الله ربكم له الملك . . » ، تعود إلى الخالق والموجد لتلك المكانات العجيبة البديعة ، وهو الله - عز وجل - .

أى : ذلكم الذى أوجد كل هذه المخلوقات لمنفعتكم ، هو الله - تعالى - ربكم وهو وحده الذى له ملك هذا الكون ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه في ملكيته منازع ، والذين تدعون من دونه ، أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - ، وتصفونهم بأنهم آلهة .

« ما يملكون من قطمير ، والقطمير : القشرة البههاء الرقيقة الملتفة

على النواة .

أى : ولذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - لا يملكون معه - سبحانه - شيئا ، ولو كان هذا الشيء فى نهاية القله والحفازة والصفر ، كالنقطة التى تكون فى ظهر الذواة .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى وقرره فقال : « إن تدعوم لا يسمعون دعاءكم ... »

أى : إن هذه المعبودات الباطلة لا تملك من شىء مع الله - تعالى - ، بدليل أنكم إن تدعوم لتفعلكم ، إن يسمعون دعاءكم ، وإن تستغثوا بهم عند المصائب والنوائب ، إن يلبوا استغاثتكم ...

« ولو سمعوا ، على سبيل الفرض والتقدير ، ما استجابوا لكم ، لأنهم لا قدرة لهم على هذه الاستجابة لمجزهم عن ذلك .

« ويوم القيامة ، الذى تتجلى فيه الحقائق ، وتتكشف الأمور ، يكفرون بشركم ... »

أى : يتبرهون من عبادتكم لهم ، ومن إشرأكم إياهم العبادة مع الله - تعالى - ، فضلا عن عدم إستجابتهم لكم إذا دعوتهم لنصرتكم .

« ولا ينبتك ، أى : ولا يخبرك بهذه الحقائق التى لا تقبل العكس أو الريب .

« مثل خبير ، أى : مثل من هو خبير بحوال النفوس وبظواهرها وببواطنها . وهو الله - عز وجل - ، فإنه - سبحانه - هو الذى يعلم السر وأخفى .

وهذا نرى الآيات الكريمة ، قد طوفت بنا فى أرجاء هذا الكون ، وسأقت لنا ألوانا من نعم الله - تعالى - على الناس ، كالرياح ، والسحاب ، والأمطار والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ... وهى نعم تدل على وحدانيه المنعم بها ، وعلى قدرته - عز وجل - وفى كل ذلك هداية إلى الحق لكل عبد منيب .

ثم وجه - سبحانه - لدا. ثالثاً إلى الناس ، إليهم فيه إلى فقرهم إليه  
 - سبحانه - ، وإلى غناه عنهم ، وإلى مسئولية كل إنسان عن نفسه ، وإلى  
 وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله خالقهم إليهم ، وإلى  
 الفرق الشاسع بين الإيمان والكفر ، وإلى سوء مصير المكلفين ، فقال - تعالى - :

يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ  
 الْحَمِيدُ ۝١٥ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى  
 اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا  
 لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۝١٨ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ  
 بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى  
 اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝١٩ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝٢٠ وَلَا الظُّلُمَاتُ  
 وَلَا النُّورُ ۝٢١ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢٢ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا  
 الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝٢٣  
 إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٤ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ  
 إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٥ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ

وقوله - تعالى - : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله . . نداء منه . سبحانه -  
لأنهم ، يعرفهم فيه حقيقة أمرهم ، وأهم لأنهم لهم من خالقهم - عز وجل - .  
أى : يا أيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله - تعالى - فى كل شئ منكم الدنيوية  
والآخروية ، والله ، - تعالى وحده - هو الغنى ، عن كل مخلوق سواء ،  
وهو ، الحميد ، أى : المحمود من جميع الموجودات ، لأنه هو الخالق لكل  
شئ ، وهو المنعم عليكم وعلى غيركم بالمنعم التى لا تحصى .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن  
يرجم أنه لعدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلها  
مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر عما يتبع الضعف : وكلما كان الفقير  
أضعف كان أفقر ، وقد شهد الله - سبحانه - على الإنسان بالضعف فى قوله :  
« وخلق الإنسان ضعيفا » ، ولو لم يكن لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء ، (١) .  
وجمع - سبحانه - فى وصف ذاته بين الغنى والحميد . الإشعار بأنه  
- تعالى - بجانب غناه عن خلقه ، هو الذى يفيض عليهم من نعمه ، وهو  
الذى يعطيهم من خيره وفضله ، ما يجعلهم بمحمدونه بالسنتهم وقلوبهم .

قال الألوسى : قوله ، الحميد ، أى : المنعم على جميع الموجودات ، المستحق  
بإنعامه للحمد ، وأصله المحمود ، وأريد به ذلك عن طريق الكناية ، ليناسب  
ذكره بعد فقرهم ، إذا الغنى لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادا منعمًا ،  
ومثله مستحق للحمد ، وهذا كالتكميل لما قبله . . (٢) .  
وقوله - سبحانه - : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » ، بيان مظهر من  
مظاهر غناه عن الناس .

أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم ويترككم من هذا الوجود ، ويأت بأقوام  
آخرين سواكم ، فوجودكم فى هذه الحياة متوقف على مشيئته وإرادته .  
واسم الإشارة فى قوله ، وما ذلك على الله بعزيز ، يعود على الإذعان  
بهم ، والإتيان بفقرهم .

وما ذلك الذي ذكرناه لكم من إفتائكم والإتيان بغيركم ، بعزير ،  
أي : بصعب أو عسير أو ممتنع على الله - تعالى - ، لأن قدرته - تعالى -  
لا يعجزها شيء .

ثم بين - سبحانه - أن كل نفس تتحمل نتائج أعمالها وحدها فقال :  
« ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وقوله : « تزر » من الوزر بمعنى الحمل . يقال : فلان وزر هذا الشيء إذا  
حمله . وفعله من باب « وعد » ، وأكثر ما يكون استعمالاً في حمل الآثام .  
وقوله « وازرة » : صفة لموصوف محذوف . أي : ولا تحمل نفس آثمة ،  
إثم نفس أخرى ، وإنما كل نفس مسئولة وحدها عن أفعالها وأقوالها التي  
باشرتها ، أو تسببت فيها .

وقوله : « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء » . ولو كان ذا قربى ،  
مؤكداً لمضمون ما قبله ، من مسئولية كل نفس عن أفعالها .

وقوله : « مثقلة » صفة لموصوف محذوف ، والمفعول محذوف  
- أيضاً - للعلم به .

وقوله « حملها » أي : ما تحمله من الذنوب والآثام ، إذ الحمل - بكسر  
الهاء - ما يحمله الإنسان من أمتعة على ظهره أو رأسه أو كتفه .

والمعنى : لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، إن تطلب نفس مثقلة  
بالذنوب من نفس أخرى ، فإن تحمل عنها شيئاً من ذنوبها التي أنفلتها ، لا تجد  
استجابة منها ، ولو كانت تلك النفس الأخرى من أقربائها وذوي رحمها .  
قال - تعالى - : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والدع  
والده ولا ولد له » . جاز عن والده شيئاً . . .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى ؟  
قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا تزر واحدة منهن إلا حاملة  
وزرها ، لا وزر غيرها .

فإن قلت : كيف توفق بين هذا ، وبين قوله : وليحملن أثقالهم وأثقالا  
مع أثقالهم ، ؟

قلت : تلك الآية في الضالين المضلن ، وأنهم يحملون أثقال إضلالهم  
لغيرهم ، مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شيء من وزر غيرهم .  
فإن قلت : فما الفرق بين معنى : ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وبين معنى :  
« وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء . . . » ؟

قلت : الأول في الدلالة على عدل الله تعالى - في حكمه ، وأنه تعالى -  
لا يؤاخذ نفسه بغير ذنبها .

والثاني : في أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث . . . وإن كان المستغاث به  
بعض قرابته من أب أو ولد أو أخ . . .

فإن قلت : إلام أسند كان في قوله : « ولو كان ذا قربى » ، قلت : إلى  
المدعو المفهوم من قوله : « وإن تدع مثقلة » .

فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو ؟ قلت : « ليعم ويشمل كل مدعو . . . » (١)  
وقوله تعالى : « إنما تنفروا الذين ينخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ،  
كلام مستأنف مسوق لبيان من هم أهل الإتياع والإستجابة للحق .  
أي : أنت - أيها الرسول الكريم - إنما ينفع وعظك وإنذارك . أولئك  
المعقلاء الذين ينخشون ربهم - من وجل - دون أن يروه ، أو يروا عذابه ،  
والذين يؤدون الصلاة في مواقيتها بإخلاص وخشوع واطمئنان .

ثم حض - سبحانه - على تركية النفوس وتطهيرها فقال : « ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ، أى : ومن تطهر من دنس الكفر والفسوق وللعصيان ، وحضر نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتوبة النصوح ، فإن ثمرة تطهره إنما تعود إلى نفسه وحدها ، وإليها يرجع الأجر والثواب ، والله - تعالى - إليه وحده مصير العباد لا إلى غيره .

فأجلة الكريمة دعوة من الله - تعالى - للناس ، إلى تركية النفوس وتطهيرها من كل سوء ، بعد بيان أن كل نفس مسئولة وحدها عن نتائج أفعالها ، وأن أحداً أن يلجئ طلب غيره في أن يحمل شيئاً عنه من أوزاره .

ثم ساق - سبحانه - أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، وبين الحق والباطل ، وبين العلم والجهل .. فقال - تعالى - : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ... »

والحرور : هو الريح الحارة التي تلمح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر .

أى : وكما أنه لا يستوى في عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ، وكما لا تصح المساواة بين الظلمات والنور ، وكذلك لا تصح المساواة بين الكفر والإيمان ، وكما لا يتساوى المكاف الظليل مع المكان العديم الحرارة ، كذلك لا يستوى أصحاب الجنة وأصحاب النار .

فأنت ترى أن الآيات الكريمة قد مثلت الكافر في هدم اعتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، كما مثلت الكفر بالظلمات والإيمان بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار بالريح الحارة التي تلهب السموم .

الظلمات لا أكثر من مرة ، لتأكيد الاستعارة ،  
 Made searchable using ScribeTools.com

وقوله : « وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، تمثيل آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق ، وللكافرين الذين أصروا على باطلهم ، أو هو تمثيل للعلماء والجهلاء قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا يستوى الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا يستوى الأحياء والأموات ، وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين الأحياء ، وللـكافرين ، وم الأموات ، كقوله - تعالى - : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . . . »

وقال - تعالى - : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ، فامثو من سمع بصير في نور يمشى . . . والكافر أعمى أصم ، في ظلمات يمشى ، ولا خروج له منها ، حتى يقضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحجم . . . » (١) .

وقوله - تعالى - : « إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ، بيان لنفاذ قدرة الله - تعالى - ، ومشيتته .

أى : إن الله - تعالى - يسمع من يشاء أن يسمعه ، ويجعله مدركاً للحق ، ومستجيباً له أما أنت - أيها الرسول الكريم - فليس في استطاعتك أن تسمع هؤلاء الكافرين المصيرين على كفرهم وباطلهم ، والذين هم أشبه ما يكونون بالموتى في فقدان الحس ، وفي عدم السماع لما تدعوهم إليه .

فالجملة الكريمة تسلية للرسول ( ﷺ ) عما أصابه من هؤلاء الجاحدين . ثم حدد الله - تعالى لنبية ( ﷺ ) وظيفته فقال : « إن أنت إلا نذير . »

أى : ما أنت - أيها الرسول الكريم - إلا منذر الناس من حلول عذاب الله - تعالى - بهم ، إذا ما استمروا على كفرهم ، أما الهداية والضلال فهما بيد الله - تعالى - وحده .

• إنا أرسلناك ، - أيها الرسول الكريم - إرسالا ملتبساً بالحق ، الذي لا يحوم حوله الباطل ، بشيرا ونذيرا ، أى : أرسلناك بالحق مبشرا المؤمنين بحسن الثواب ، ومنذرا للكافرين بأشد ألوان العقاب .

• إن من أمة إلا خلا فيها نذير ، أى : وما من أمة من الأمم الماضية ، إلا وجاءها نذير ينذرها من سوء عاقبة الكفر ، ويدعوها إلى إخلاص للعبادة لله - تعالى - .

فن أفراد هذه الأمة من أطاعوا هذا النذير فسعدوا وفازوا . ومنهم من استعجب العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان فشقوا وخابوا .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تسليته لرسوله - ( ﷺ ) تسليبة أخرى فقال : • وإن يكذبوك ، فقد كذب الذين من قبلهم ، .

أى : وإن يكذبك قومك يا محمد فلا تحزن ، فإن الأقوام السابقين قد كذبوا إخوانك الذين أرسلناهم إليهم ، كما كذبك قومك .

وإن هؤلاء السابقين قد جاءتهم رسلهم بالبينات ، أى : بالمعجزات الواضحات وبالزبر ، أى : وبالكتب المنزلة من عند الله - تعالى - جمع زبور وهو المكتوب ، كصحف إبراهيم وموسى .

• وبالكتاب المنير ، أى : وبالكتاب الساطع في براهينه وحججه ، كالنوراة التي أنزلناها على موسى ، والإنجيل الذي أنزلناه على عيسى .

قال الله تعالى : قال : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ،

العينات بالمعجزات ، والرب بالكتب التي فيها مواضع ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام ، (١) .

ثم أخذت الذين كفروا ، بالعذاب الشديد ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتكذيبهم لرسولهم .

ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، لذنوبهم والإشعار بعة الأخذ .

والاستفهام في قوله - تعالى - « فكيف كان تكذيبهم » ، للتوبيخ ، أي : فانظر - أيها العاقل - كيف كان إنكارهم عليهم ، لقد كان إنكاراً مصحوباً بالعذاب الآليم الذي دمرهم تدميراً ، واستأصلهم عن آخرهم .

• • •

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أدلة أخرى على عظيم قدرته ، وبين من هم أولى الناس بخشيته ، ومدح الذين يكثرون من تلاوة كتابه ، وبخافضونه على أداء فرائضه ، ووعدهم على ذلك بالاجر الجليل فقال - تعالى - :

الرَّ تَرَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فَأَخْرَجْنَا بِهِ شَجَرَاتٍ مُتَخَلِّفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ  
مُتَخَلِّفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ  
مُتَخَلِّفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرِجُونَ نَجْرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ  
وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ  
الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ  
بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

والاستفهام في قوله - تعالى - : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ،  
لتقرير ما قبله ، من أن اختلاف الناس في عقائدهم وأحوالهم أمر  
مطرده ، وأن هذا الاختلاف موجود حتى في الحيوان والحجارة والنبات ،  
قال الأرمسي ما ملخصه : قوله - تعالى - : : ألم تر . . . هذه الكلمة قد  
تذكر لمن تقدم علمه فتكون لتعجب ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك ،  
في هذا الباب ، بأن فيه من البرهان ، حال من رآه ، في أنه لا يشي

يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه ، كما يجري مع من رأى ، قصد إلى المبالغة في شهرته ... (١) .

والخطاب للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) : أو اكمل من يتأني في الخطاب ، بتقرير دليل من أدلة القدرة الباهرة .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - علما لا يخاططه شك ، أن الله - تعالى - أنزل من السماء ماء كثيرا ، فأخرج بسببه معه من الأرض ، ثمرات مختلفا ألوانها . فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر ... وبعضها حلوى المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعا تنسقي بماء واحد ، كما قال - تعالى - : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٢) .

وجاء قوله « فأخرجنا ... » على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة ، ولأن المنية بالإخراج أبلغ من إنزال الماء .

وقوله « مختلفا ، صفة لثمرات ، وقوله « ألوانه » ، قاعل به .

وقوله - تعالى - : ( ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ) معطوف على ما قبله ، لبيان مظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل - .

قال القرطبي ما ملخصه : الجدد جمع جدة - بضم الجيم - وهي الطرائق المختلفة الألوان .. والجدة : الحطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدة :

(١) تفسير الألوسي ٢٣ ص ١٦٠

(٢) سورة الرعد الآية ٤

الطريقة والجمع جدد . . . أى : طرائق تتخالف لون الجبل ، ومنه قولهم :  
ركب فلان حدة من الأمر ، إذا رأى فيه رأيا . . . (١) .

وغرايب : جمع غريب ، وهو الشيء الشديد السواد . والعرب تقول  
الشيء الشديد السواد ، أسود غريب .

وقوله : « سود » بدل من « غرايب » .

أى : أزلنا من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، وجعلنا  
بقدرتنا من الجبال قطعاً ذات ألوان مختلفة ، فمنها الأبيض ، ومنها الأحمر ،  
ومنها ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس كذلك ، فما يدل على عظيم  
قدرتنا ، وبديع صنعنا . .

ثم بين — سبحانه — أن هذا الاختلاف ليس مقصوداً على الجبال  
فقال : « ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . . . »

وقوله : « مختلف » صفة لموصوف محذوف . وقوله « كذلك » صفة  
— أيضاً — لمصدر محذوف ، معمول لمختلف .

أى : ليس اختلاف الألوان مقصوداً على قطع الجبال وطرقها وأجزائها  
بل — أيضاً — من الناس والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلف  
ألوانها اختلافاً ، كذلك الاختلاف السكاكن في قطع الجبال ، وفي  
أنواع الثمار .

ولما ذكر — سبحانه — هنا اختلاف الألوان في هذه الأشياء ، لأن هذا  
الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، وعلى بديع صنعته .

ثم بين - سبحانه - أولى الناس بنهيته فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء ، أى : إنما يخاف الله - تعالى - ويخشاه ، العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعة وإخلاص في العبادة ، أما الجاهلون بذاته وصفاته - تعالى - ، فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لا نطمأن بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة السريعة مدحا للعلماء ، حيث قصد - سبحانه - خشيته عليهم .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو آخر ؟ قلت : لا بد من ذلك ، فإنك إذا قدمت اسم الله ، وأخرت العلماء ، كان المعنى : إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله ، كقوله - تعالى - : « ولا يخشون أحدا إلا الله ، وهما معنيان مختلفان .

فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ؟

قلت : لما قاله « ألم تر ، بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعته . . أتبع ذلك بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك بمن عرفه حق معرفته ، وعلمه كنهه عليه .

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : أنا أرجو أن أكون أئمةكم الله وأعلمكم به ، (١) .

وقوله : « إن الله عزيز غفور ، تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على أنه

يعاقب على العصية ، ويغفر الذنوب لمن تاب من عباده توبة نصوحا .

ثم مدح — سبحانه — المكثرين من تلاوة كتابه ، المحافظين على أداء فرائضه فقال : **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ . . .**

أى . إن الذين يداومون على قراءة القرآن الكريم بتدبر لمعانيه ، وعمل بتوجيهاته ، وأقاموا الصلاة ، بأن أدوها في مواقيتها بخشوع وإخلاص .  
« وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، أى : وبخلوا بما رزقناهم من خيرات ، تارة في السر وتارة في العلانية .

وجملة « يرجون تجارة لن تبور » ، في محل رفع خبر إن ، والمراد بالتجارة : ثواب الله — تعالى — ومغفرته .

وقوله : « تبور » بمعنى تمكسد ونهلك . يقال : بار الشيء يبور بورا وبوارا ، إذا هلك وكسد .

أى : هؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم ، ويؤدون ما أوجبه الله — تعالى — عليهم ، يرجون من الله — تعالى — الثواب الجزيل ، والرجح الدائم ، لأنهم جمعوا في طاعتهم له — تعالى — بهدايا كثيرة من ذكره ، وبين العبادات البدنية والمالية .

واللام في قوله ، ليوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله ، متعلقة بقوله « لن تبور » ، على معنى ، يرجون تجارة لن تمكسد لأجل أن يوفيههم أجورهم التي وعدهم بها ، ويزيدهم في الدنيا والآخرة من فضله ونعمه وعطائه .

Made searchable using ScribeTools.com

ويزيدهم من فضله « أى : كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدى ما كلفه به .  
« شكور ، أى : كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدى ما كلفه به .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بيثبت فوقاد النبي (ﷺ) ،  
وتسليته عما أصابه من أعدائه فقال : «والذي أوحينا إليك من الكتاب ،  
أى القرآن الكريم ، هو الحق ، الثابت الذى لا يحوم حوله باطل .  
مصدق لما بين يديه ، أى : أن من صفات هذا القرآن أنه مصدق لما  
تقدمه من الكتب السماوية ، كالطورة والإنجيل .

« إن الله بعباده الخبير بصير ، أى : إله الله - تعالى - لمحيظ لإحاطة تمامه  
بأحوال عباده ، مطلع على مايسرونه وما يعلنونه من أقوال أو أفعال .  
وبذلك ترى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية  
الله - تعالى - وقدرته ، وأثبتت على العلماء ، وعلى التالين للقرآن الكريم ،  
والمحافظين على أداء ما كلفهم الله - تعالى - ثناء عظيما .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان أقسام الناس فى هذه الحياة ، ووعد  
المؤمنين الصادقين بمجنات النعيم ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ  
لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ  
هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ  
مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى  
أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ  
الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

و«ثم ، في قوله — تعالى — : «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، لتراخي الرتبى ، و«أورثنا ، أى أعطينا ومنحنا ، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة . . وهو المفعول الثانى لأورثنا ، وقدم على المفعول الأول ، وهو الموصول للتشريف .

و«اصطفينا» بمعنى اخترنا واختلطنا ، واشتقاقه من الصفر ، بمعنى الخلو من الكدر والشوائب .

والمراد بقوله : «من عبادنا» الأمة الإسلامية التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

والمعنى : ثم جعلنا هذا القرآن الذى أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - ميراثاً منك لأمتك ، لتنى اصطفيناها على سائر الأمم ، وجعلناها أمة وسطاً . وقد ورثناها هذا الكتاب لتتفتح به ديارها ، وتسترشد بتوجيهاته ، وتعمل بأوامره ونواهيه .

قال الألوسى : قوله : «الذين اصطفينا من عبادنا» هم — كما قال ابن عباس وغيره — أمه محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فإن الله — تعالى — اصطفاهم على سائر الأمم . ، (١) .

وفى التعبير «بالاصطفاء» تنويه بفضل هؤلاء العباد ، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم ، كما أن التعبير بالماضى يدل على تحقق هذا الاصطفاء .

ثم قسم - سبحانه - هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال : « فمنهم ظ لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله . »

وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعود إلى أفراد هذه الأقسام الإسلامية .

وأن المراد ، بالظالم لنفسه ، من زادت سيئاته على حسناته .

وأن المراد بالمقتصد : من تسارت حسناته مع سيئاته .

وأن المراد بالسابقين بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم

وعلى هذا يكون للضمير في قوله - تعالى - بعد ذلك : « جنات عدن يدخلونها . » ، يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة ، لأنهم جميعاً من أهل الجنة بفضل الله ورحمته .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون للضمير في قوله « يدخلونها » ، يعود إلى المقتصد والسابق بالخيرات ، وأن هذه الآية نظير قوله - تعالى - في سورة الواقعة : « وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمين ما أصحاب الميمين ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون . . . »

ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ماملاً خصه : يقول - تعالى - « ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم . . . وهم هذه الأمة على ثلاثة أقسام : فمنهم ظالم لنفسه ، وهو المفرط في بعض الواجبات المترك لبعض المحرمات ، ومنهم مقتصد ، وهو مؤدى الواجبات ، التارك للمحرمات ، وله ترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات . »

« ومنهم سابق بالخيرات ، ياقن الله ، وهو الفاعل للواجبات والمستحبات  
قال ابن عباس : هم أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ورثهم الله - تعالى -  
كل كتاب أنزله . فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم  
يدخل الجنة بغير حساب .

وفي رواية عنه : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد  
يدخل الجنة برحمة الله - تعالى - ، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعته  
للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .

وفي الحديث الشريف : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » .  
وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو الكافر .

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو  
ظاهر في الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )  
من طرق يشد بعضها بعضا .

ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه  
الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أنه قال  
في هذه الآية : هؤلاء كلهم بميزة واحدة ، وكلهم في الجنة . .

ومعنى قوله « بميزة واحدة » ، في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل  
الجنة ، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة ، ( ١ ) .

وقال الإمام ابن جرير : فإن قال لنا قائل : إن قوله « يدخلونها » إنما  
عنى به المقتصد والسابق بالخيرات ؟

قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خير أو عقل ؟ فإن قال :  
قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولو لم يدخل النار من  
هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وحيد :

قيل : إنه ليس في الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من  
أنهم يدخلون جنات عدن ، وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه

بعد عقوبة الله اياه على ذنوبه التي اصابها في الدنيا . : ثم يدخلون الجنة بعد ذلك ، فيكون من عمه خير الله - تعالى - بقوله : «جنات عدن يدخلونها» (١) . وقال الشوكاني : « والظالم لنفسه : هو الذي عمل للصغار ، وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وعائشة ، وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغار لا ينافي الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب . . ووجه كونه ظالماً لنفسه ، أنه نقصهم من الثواب بما فعل من الصغار المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغار طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيماً » (٢) . قالوا : وتقسيم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات . لا يقتضى تشريفاً ، كما في قوله - تعالى - : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . . » .

ولعل السر في مجيء هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم أكثر الأقسام عدداً ، ويلبهم المقتصدون ، ويلبهم السابقون بالخيرات ، كما قال - تعالى - : « وقليل من عبادي لشكور » .

وقوله : « ياذن الله ، أي : بتوفيقه وإرادته وفضله . واسم الإشارة في قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » ، يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء . أي : ذلك الذي أعطيناه - أيها الرسول الكريم - لأمك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب ، هو الفضل الواسع الكبير ، الذي لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : « جنات عدن يدخلونها » والضمير للأنواع الثلاثة .

أي هؤلاء الظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون بالخيرات .

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٢ ص ٩٠

(٢) تفسير الشوكاني ج ٣ ص ٣٤٩

فدخلهم بفضلنا ورحمتنا ، الجنات الدائمة التى يدخلون فيها خلوداً أبدياً .  
يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام به إقامة دائمة .

يدخلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، أى أنهم يدخلون الجنات دخولاً دائماً ، وهم فى تلك الجنات يتزينون بأجمل الزينات وبأغزر الملابس ، حيث يلبسون فى أيديهم أساور من ذهب ولؤلؤ ، أما ثيابهم فهى من الحرير الخالص .

ثم حكى — سبحانه — ما يقولونه بعد فوزهم بهذا النعيم فقال :  
« وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

والحزن : غم يعترى الإنسان أخوفه من زوال نعمة هو فيها ، والمراد به هنا : جنس الحزن الشامل لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة .

أى : وقالوا عند دخولهم الجنات الدائمة ، وشعورهم بالأمان والسعادة والاطمئنان ، الحمد لله الذى أذهب عنا جميع ما يحزننا من أمور الدنيا أو الآخرة .

« إن ربنا ، بفضلنا وكرمه » لغفور شكور ، أى : لواسع المغفرة لعباده ولسكثير المعطاء للمطيعين ، حيث أعطاهم الخيرات الوفيرة فى مقابل الأعمال القليلة ، « الذى أحلنا دار المقامة من فضله » ، أى : الحمد لله الذى أذهب عنا الأحزان بفضلنا ورحمته ، « الذى » أحلنا ، أى : أنزلنا « دار المقامة » ، أى : الدار التى لا انتقال لنا منها ، وإنما نحن سقيم فيها إقامة دائمة وهى الجنة ، التى منحنا إياها بفضلنا وكرمه .

وهذه الدار « لا يمسن فيها نصب » ، أى : لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ولا عناء . يقال : نصب فلان - كفرح - إذا نزل به التعب والإعياء .

« ولا يمسن فيها لغوب » ، أى : ولا يصيبنا فيها كلال وإعياء بسبب التعب

قلع : النصب ، التبع والمشفقة ، التي نصب المنتصب الأمر ، المزاولة .  
وأما القلوب ، فبالشفقة من الفتور بسبب النصب . فالنصب : نفس  
المشفقة والكلفة . والقلوب : نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفتور ، (١) .  
وبعد هذا البيان البليغ الذي يشرح الصدور لحسن عاقبة المفلحين ،  
سأقت السورة للكرامة حال الكافرين ، وما هم فيه من عذاب مهين ،  
فقال - تعالى - :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ  
عَنَّهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نُجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ  
فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم  
مَا يَتَذَكَّرْ فِيهِ مَن تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن  
تَصْوِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

أى : د والذين كفروا ، فى الدنيا بكل ما يجب الإيمان به . لهم ، فى  
الآخرة نار جهنم ، يعذبون فيها تعذيبا لينا .

ثم بين - سبحانه - حالهم فى جهنم فقال : د لا يقضى عليهم فيموتوا ولا  
يخفف عنهم من عذابها . أى : لا يحكم عليهم فيها بالموت مرة أخرى كما ماتوا  
بعد انقضاء آجالهم فى الدنيا ، وبذلك يستريحون من العذاب ، ولا يخفف

عنهم من هذاب جهنم ، بل هي كلها خبت أو هداً لحييها ، هادت مرة أخرى إلى شدتها ، وازدادت سعيراً .

والمراد أنهم باقون في العذاب الآليم بدون موت ، أو حياة يسقيهم فيها .  
« كذا لك نجوى كل كفور ، أى : مثل هذا الجزاء الرادع القطيع ، نجوى  
في الآخرة ، كل شخص كان في الدنيا شديد الجحود والكفران لآيات ربه ،  
الدالة على وحدانيته وقدرته . .

وقوله — تعالى — : « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً  
غير الذي كنا نعمل ، بيان لما يجارون به إلى ربهم وهم ملقون في نار جهنم .  
و يصطرخون بمعنى يستغيثون ويضجون بالدعاء رافعين أصواتهم ،  
افتعال من الصراخ ، وهو الصياح الشديد المصحوب بالتعب والمشقة ،  
ويستعمل كثيراً في العويل والاستغاثة ، وأصله يصفرخون ، فأبدلت التاء طاء .

وجملة « ربنا أخرجنا . . . » مقول لقول محذوف .

أى : وهم بعد أن ألقى بهم في نار جهنم ، أخذوا يستغيثون ويضجون  
بالدعاء والعويل ويقولون : يا ربنا أخرجنا من هذه النار ، وأعدنا إلى  
الحياة الدنيا ، لكي تؤمن بك وبرسولك ، ونعمل أعمالاً صالحة أخرى  
ترضيك ، غير التي كنا نعملها في الدنيا .

وقولهم هذا يدل على شدة حسرتهم ، وعلى اعترافهم بجرمهم ، وبسوء  
أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا .

وهنا يأتيهم من ربهم الرد الذي يحزنهم فيقول — سبحانه — « أولم  
نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير . . . »  
والاستفهام للتوبيخ والتفريع ، والكلام على إضمار القول ، وقوله  
« نعمركم » من التعمير بمعنى الإبقاء والإمهال في الحياة الدنيا إلى الوقت  
الذي كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان .

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين عند ما يقولون بحسرة وضراعة : يا ربنا أخرجنا من النار وأعدنا إلى الدنيا لنعمل عملا صالحا غير الذى كنا نعمله فيها ، يرد عليهم ربه بقوله لهم على سبيل الجزع والتأنيث : أولم نهيكم فى الحياة الدنيا ، ونعطيكم العمر والوقت الذى كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار واتباع طريق الحق ، وفضلا عن كل ذلك أفقد جاءكم النذير الذى يذكركم بسوء عاقبة إصراركم على كفركم ، ولستكنكم كذبتهم وأهرضتم عن دعوته .

والمراد بالنذير : جنسه فيتناول كل رسول أرسله الله تعالى إلى قومه ، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته ، وعلى رأس هؤلاء المنذرين سيدنا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) .

والفاء فى قوله — تعالى — : فذوقوا فالظالمين من نصير ، لترتيب الأمر بالفوق على ما قبلها من التعمير وجمى النذير .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فاحسوا فى جهنم ، واتركوا الصراخ والعدوى ، وذوقوا عذابها الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، فليس للمصرين على كفرهم من نصير ينصرونهم ، أو يدفع عنهم شيئا من العذاب الذى يستحقونه .

ثم ختم — سبحانه — الآيات الكريمة ببيان سعة علمه ، فقال : إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور .  
أى : إن الله — تعالى — لا يخفى عليه شيء سواء أكان هذا الشيء فى السموات أم فى الأرض ، إنه — سبحانه — عليم بما تضرره القلوب ، وما تخفيه الصدور ، وما توسوس به النفوس .

• • •

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك جانباً من مظاهر فضله على عباده ، وأقام الأدلة على وحدانيته وقدرته ، فقال — تعالى — :

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ  
 كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ  
 الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ  
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ  
 فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعْلَمُ  
 الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٣٠﴾ إِنْ اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ  
 إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٣١﴾

وقوله - تعالى - : وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض . . .  
 بيان لجانب من فضله - تعالى - على بنى آدم .

وهو خلائف ، جمع خليفة ، وهو من يخلف غيره .

أى : هو - سبحانه - الذى جعلكم خلفاء فى أرضه ، وملككم  
 كنوزها وخيراتنا ومنافعها ، لئلى تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة  
 والطاعة .

أوجعلكم خلفاء لمن سبقكم من الأمم البائدة ، فاعتبروا بما أصابهم من  
 العذاب . ثم اضمم عن الهدى ، واتبعوا ما جاءكم به رسولكم (صلى الله

وقوله : فن كفر فعليه كفره ، أى : فن كفر بالحق الذى جاء به الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) واستمر على ذلك ، فعلى نفسه يكون وبال كفره لا على غيره .

ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، أى : لا يزيدهم إلا بغضاً شديداً من ربهم لهم ، واحتقاراً لحالهم ، وغضباً عليهم .

فالمت : مصدر بمعنى البغض والكراهية ، وكانوا يقولون لمن يتزوج امرأة أبيه وللولد الذى يأتى عن طريق هذا الزواج ، المقتى ، أى : المبعوض .

ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ، أى : ولا يزيدهم لإصرارهم على كفرهم إلا خساراً وبوراً وهلاكاً فى الدنيا والآخرة .

فآية للكرامة تنفر أشد التنفير من الكفر ، وتؤكد سوء عاقبته ، تارة عن طريق بيان أنه مبغوض من الله — تعالى — ، وتارة عن طريق بيان أن المتلبس به ، لن يزداد إلا خساراً وبوراً .

ثم أمر الله — تعالى — رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) أن يتحدى هؤلاء المشركين ، وأن يوبخهم على عنادهم وجهودهم فقال : قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض . . .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتأنيث هؤلاء المشركين أخبرونى وأنبئونى عن حال شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، ماذا فعلوا لكم من خير أو شر ، وأرونى أى جزء خلقوه من الأرض حتى استحقوا منكم الألوهية والشركة مع الله — تعالى — فى العبادة ؟

إنهم لم يفعلوا - وإن فعلوا - شيئاً من ذلك ، فكيف أبغضهم لأنفسكم عبادتهم ؟ وقوله : أم لهم شرك فى السموات ، تبكيت آخر لهم ، أى : قل

لهم : إذا كانوا لم يخلقوا شيئاً من الأرض ، فهل لهم معنا شركة في خلق السموات أو في التصرف فيها وحتى يستحقوا لذلك مشاركتنا في العبادة والطاعة .

وقوله : « أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ، تبكى ثالت لهم ، أى : وقل لهم إذا كانوا لم يخلقوا شيئاً من الأرض ، ولم يعاركونا في خلق السموات ، [ فهل نحن أنزلنا عليهم كتاباً أقررنا لهم فيه بمشاركتنا ، فتكون لهم الحجة الظاهرة البينة على صدق ما يدعون ؟

والاستفهام في جميع أجزاء الآية الكريمة للإنكار والقويخ .

والمقصود بها قطع كل حجة يتذرعون بها في شرهم ، وإزهاق باطلهم بالوان من الأدلة الواضحة التي تثبت جهالاتهم ، حيث أشركوا مع الله - تعالى - ما لا يضر ولا ينفع ، وما لا يوجد دليل أو ما يشبه الدليل على صحة مذهبوا إليه من كفر وشرك .

ولذا ختمت الآية الكريمة بالإحزاب عن أوهامهم وبيان الأسباب التي حملتهم على الشرك ، فقال - تعالى - : « بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً . »

أى : أن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً لا من الأرض ولا من السماء ، ولم نؤتهم كتاباً بأنهم شركاء لنا في شيء ، بل الحق أن الظالمين يدع بعضهم بعضاً ، ويمد بعضهم بعضاً بالوعد الباطلة ، بأن يقول الزعماء لأتباعهم : إن هؤلاء الآلهة هم شفعاؤنا عند الله ، وأننا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فيترتب على قولهم هذا ، أن ينساق الاتباع وراءهم كما تنساق الأنعام وراء راهبها .

ذلك ببيان جانب من عظيم قدرته ، وعظيم فضله فقال : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ،

أى : إن الله - تعالى - بقدرته وحدها ، يمسك السموات والأرض كراهة أن تزولا ، أو يمنعهما ويحفظهما من الزوال أو الاضمحلال أو الاضطراب ، ولئن زالتا - على سبيل الفرض والتقدير - فلن يستطيع أحد أن يمسكهما ويمنعهما عن هذا الزوال سوى الله - تعالى - « لأنه ، - سبحانه - « كان ، وما زال « حليماً ، بعباده « غفوراً ، لمن تاب إليه وأقرب ، كما قال - تعالى - : « وإلى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

قال الألوسى : قوله : « ولئن زالتا ، أى : إن أشرقتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير : « إن أمسكهما ، أى : ما أمسكهما « من أحد من بعده ، أى : من بعد إمساكه - تعالى - أو من بعد الزوال ، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة فى « لئن » ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه . . . . . و « من الأولى مزينة لتأكيد العموم ، والثانية للإبتداء (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة السريعة بما كان عليه المشركون من نقص اليهود ، ومن مكرهم « حاق بهم ، ودعاهم - سبحانه - إلى الاعتبار بمن سبقهم ، وبين لهم جانباً من مظاهر فضله عليهم ورافته بهم فقال - تعالى - :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ  
 قَدِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ  
 إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ  
 السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا لَأَسْنَتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ  
 اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي  
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ  
 مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي  
 الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا  
 كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ  
 فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ  
 قَدِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ .. » : هم قريش أقسموا قبل أن يبعث  
 الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - حين بلغهم أن أهل الكتاب ، كذبوا  
 رسولهم ، فلنعنوا من كذب نبيه منهم . . . (١) .

Made searchable using ScribeTools.com

و « جهد أيمانهم ، أى : أقوى أيمانهم وأغلظها والجهد : العناء والوسع والمشقة .

يقال : جهد نفسه يجدها فى الأمر ، إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقاتها فيه .

والمراد : أنهم أكدوا الإيمان ووثقوها ، بكل ألفاظ التوكيد والتوثيق .  
أى : أن كفار مكة ، أقسموا بالله - تعالى - قسما مؤكدا موثقا مغلظا ،  
« لئن جاءهم نذير ، أى : نبى ينذرهم بأن الكفر باطل وأن الإيمان بالله هو الحق .  
« ليكونن أهدى ، سبيلا » من إحدى الأمم ، أى : ليكونن أهدى من اليهود ومن النصارى ومن غيرهم « فى اتباعهم وطاعتهم ، لهذا الرسول الذى يأتيهم من عند ربهم لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

« فلما جاءهم نذير ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - . الذى هو أشرف الرسل .

« ما زادهم إلا نفورا ، أى : ما زادهم بجيئه لهم إلا نفورا عن الحق ،  
وتباعدا عن الهدى . أى : أنهم قبل مجيئ الرسول - ﷺ - كانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم ، لامن غيرهم وأقسموا بالله بأنهم سيطيعونه فلما جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفروا عنه ولم يؤمنوا به .  
ولأنما كان القسم بالله - تعالى - غاية أيمانهم لأنهم كانوا يحلفون بأبائهم وبأصنامهم ، فإذا اشتد عليهم الحال ، وأرادوا تحقيق الحق ، حلفوا بالله - تعالى - .

وقوله « ليكونن » جواب للقسم المقدر . وقوله ( ما زادهم إلا نفورا ) جواب لما .

وقوله - تعالى - : ( استكبارا فى الأرض ) بدل من ( نفورا ) أو مفعول لأجله ( ومكر السيئ ) معطوف على قوله ( استكبار ) .

والمراد بمكرهم السيء : تصميمهم على الشرك ، وتكذيبهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، من أجل المعاندة للحق ، والإستكبار عنه ، ومن أجل المكر السيء الذى إستولى على نفوسهم ، والحقد الدفين الذى فى قلوبهم .

وقوله (السيء) صفة الموصوف المحذوف ، وأصل التركيب : وأن مكروا المكر السيء ، فأقيم المصدر مقام أن والفعل ، وأضيف إلى ما كان صفة له . وقوله - تعالى - : ( ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ) بيان لسوء عاقبة مككرهم ، وأن شره ما نزل إلا بهم .

وقوله : ( يحيق ) بمعنى يحبط ويفزل . يقول : حاق بفلان الشيء ، إذا أحاط ونزل به . أى : ولا ينزل ولا يحبط شر ذلك المكر السيء إلا بأهله الماكرين .

قال صاحب الكشف : لقد خلق بهم يوم بدر . وعن النبى - صلى الله عليه وسلم - : ( لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله - تعالى - يقول : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، فإن الله - تعالى - يقول : يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ) (١) .

وقال الألوسى - رحمه الله - والآية عامة على الصحيح ، والأمور بعواقبها والله - تعالى - يهمل ولا يهمل ، ووراء الدنيا الآخرة ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وبالجملة : من مكر به غيره ، ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر ، فى الحقيقة هو الفائز ، والمالك هو الهالك (٢) .

وقوله - تعالى - ( فهل ينظرون إلا سنة الأولين ) حض لهم على ألا يحالوا إلى سنة الكافرين والعناد . والسنة : الطريقة .

Made searchable using ScribeTools.com

أى : إذا كان الأمر كما كرنا ، فهل ينتظر هؤلاء الماكرون ، إلا طريقتنا  
فى الماكرين من قبلهم ، وهى إهلاكهم ونزول العذاب والحسران بهم لأنهم  
ما ينتظرون إلا ذلك ،

وقوله - سبحانه - : « فان تجد لسنة الله تبديلا ، وان تجد لسنة الله  
تحويلا ، تأكيد لثبات سنته - تعالى - فى خلقه ، وتعليل لما يفيد الحكم  
باتتظارهم العذاب .

أى : هذه سنتنا وطريقتنا فى الماكرين والمكفبين لرسلهم ، أننا نعمهم  
ولا نعمهم ، ونجعل العاقبة للسيئة لهم ، ولن تجد لسنة الله - تعالى - فى خلقه  
تبديلا بأق يضر غير ما مكانهم ولن نجد لها تحويلا عما سارت عليه وجرت به  
قال الجمل ما ملخصه : قوله : « قل ينتظرون إلا سنة الأولين » مصدر  
مضاف لمفعوله تارة كاهنا ، ولفاعله أخرى كقوله « فان تجد لسنة الله تبديلا »  
لأنه - تعالى - سبحانه ، فصحت إضافتها للفاعل والمفعول . والفاء فى  
قوله « فلن تجد » لتعليل ما يفيد الحكم باتتظارهم للعذاب ، ونفى وجدان  
التبديل والتحويل ، عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني ، وتخصيص  
كل منهما بنفى مستقل لتأكيد إتقانها .

والمراد : بعدم التبديل ، أن العذاب لا يبدل بغيره . وبعدم التحويل :  
أنه لا يحول عن مستحقه إلى غيره ، وجمع بينهما هنا : تعميما لتهديد  
المسىء لقيح مكره (١) .

ثم ساق لهم - سبحانه - ما يؤكده عدم تغيير سنته فى خلقه ، بأن حضهم  
على الاعتبار بأحوال المملكين من قبلهم ، والذين يرون بأعينهم آثارهم ، فقال  
- تعالى - : « أولم يسروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من  
قبلهم وكانوا أشد منهم قوة » .

أى أعمى هؤلاء الماكرون عن التدبر ، ولم يسيروا فى الأرض ، فهروا بأعينهم فى رحلاتهم إلى الشام إلى اليمن أو غيرهما ، كيف كانت عاقبة المكذابين من قبلهم ، لقد دمرناهم تدميرا ، مع أنهم كانوا أشد من مشركى مكة قوة ، وأكثر جمعا ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض أى وما كان شأن الله — تعالى — أن يعجزه شىء من الأشياء ، سواء أكان فى السموات أو فى الأرض ، بل كل شىء تحت أمره وتصرفه .

« إنه ، — سبحانه — كان هليما ، بكل شىء ، قد يراه على كل شىء .  
ثم ختم - سبحانه - السورة للكرامة ببيان جانب من رحمته بعباده فقال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من الذنوب أو الخطايا .

( ما ترك على ظهرها ) أى على ظهر الأرض (من دابة) من الدواب التى تدب عليها ، ( ولاكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ) وهو يوم القيامة .

( فإذا جاء أجلهم ) أى حده - سبحانه - لحسابهم ، جازاهم بما يستحقون ( فإن الله كان عبادة بصيرا ) أى : لا يخفى عليه شىء من أحوالهم .

وبعد : فهذا تفسير لسورة فاطر ، نسأل الله — تعالى — أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه للراجى هفوز به

محمد سيد طنطاوى

| رقم الآية | الآية المفسرة                    | رقم الصفحة |
|-----------|----------------------------------|------------|
| ١         | المقدمة ..                       | ٢٢٧        |
| ١         | الحمد لله فاطر السموات والأرض .. | ٢٣١        |
| ٤         | وإن يكذبوك فقد كذبت ..           | ٢٣٧        |
| ٩         | واقه الذى أرسل للرياح ..         | ٢٤٣        |
| ١٥        | يا أيها الناس أنتم الفقراء ..    | ٢٥٧        |
| ٢٧        | ألم تر أن أنزل ..                | ٢٧٥        |
| ٣٢        | ثم أورثنا الكتاب ..              | ٢٧٠        |
| ٣٦        | والذين كفروا لهم نار جهنم ..     | ٢٧٧        |
| ٣٩        | هو الذى جعلكم خلائف ..           | ٢٧٨        |
| ٤٢        | وأقسموا بالله جهد أيمانهم ..     | ٢٨٤        |



٧ ش الباب الأخضر المشهد الحسينى

القاهرة ٩٣٦٠٠٨ ت